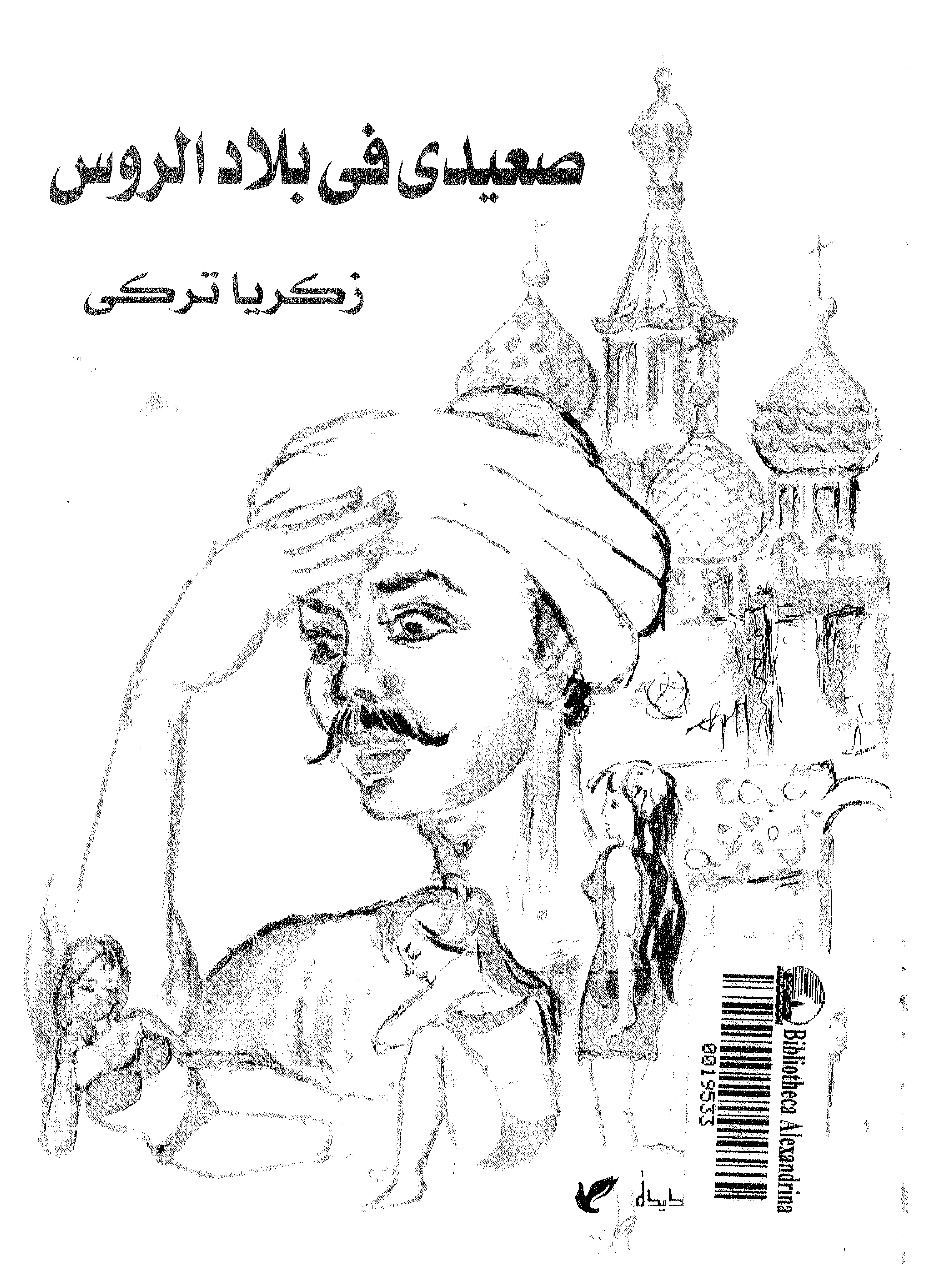
صعيدى فى بلاد الروس

زكريا تركى





صعيدي في بلاد الروس

زكريا تركي

(صعيدي في بلاد الروس)

الطبعة الأولى ١٩٩٩

دار الثقافة الجديدة

٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق

باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس : ٣٩٢٢٨٨٠

E.mail:
elguind @ internet. com.

زكريا تركي

صعيدي في بلاد الروس

دار الثقافة الجديدة

المحتويات

صعيدي في بلاد الروس

ولدت فى الصعيد لأسرة مستورة الحال فى قرية مشهورة بعظماء رجـــال مصــــر فيما قبل ثورة يوليو سنه ١٩٥٢م. وهى قرية ساحل سليم إحدى قـــرى مركــــز البـــدارى محافظة أسيوط. ولقد أنجبت ساحل سليم محمد باشا محمود أحد زعمـــاء ثـــورة ١٩١٩م. ورئيس حزب الأحرار الدستوريين ورئيس وزراء مصر لعدة مرات. كما أنجبـــت أخيـــه حفنى باشا محمود عضو مجلس البرلمان ووزير المواصلات وصاحب المقالب الظريفـــه والباشا الإشتراكى صديق روز اليوسف وكامل الشناوى ومصطفى أمين وأظرف ظرفـــاء عصره.

وقد كان أبوهم محمود باشا سليمان رئيسا لمجلس شورى القوانين. وقـــد عـــرض عليه الإنجليز أن يتولى عرش مصر بعد وفاة السلطان حسين كامل فرفض هذا العـــرض المغرى. ومن هذا المنطلق فإن رئيس الوزراء محمد باشا محمود كان يعامل الملك فـــؤاد معامله الند للند. وهو صاحب المقولة المشهورة [أنا إبن من عرض عليه الملك فـــأبى] وقد أصبحت هذه العبارة فخرا" لجميع أهالى ساحل سليم والقرى المجاورة لـــها. يرددهـــا الناس دائما مثلا للعزة والكرامة. كما أنجبت ساحل سليم عبد المجيد باشا إبراهيم وزيـــر الأشغال العموميه والمواصلات قبل الثورة وكان من عشاق سماع أم كلثوم وهو صـــاحب العبارة المشهورة [نحمد الله الذى خلقنا فى عصر به أم كلثوم] وأنجبت ساحل سليم كامل بك عبد الرحيم سفير مصر فى أمريكا قبل الثورة ومدير مكتب الجامعة العربية بنيويورك بعد الثورة ومندوب اليمن الدائم فى الأمم المتحدة حتى قيام ثورة اليمن، وأحـــد مؤسســـى الجمعية التعاونيه للبترول. كما أنجبت ساحل سليم محمود بك محمد محمود نجـــل محمـــد باشا محمود ورئيس ديوان المحاسبات قبل الثورة، المعروف بالجهاز المركزى للمحاسبات الآن، ووزير المواصلات فى وزارة محمد نجيب، وقد إعتذر عن تولـــى الـــوزارة فـــى التشكيل الذى حدث بعد أزمة مارس سنه ١٩٥٤م. وكذلك أنجبت ساحل ســـليم الدكتـــور همام محمد محمود أستاذ ورئيس قسم الكهرباء واللاسلكى بهندسة القاهرة سابقا. وأنجبـــت ساحل سليم اللواء جمال تمام كبير المعلمين بكلية الشرطة وأستاذ جميع ضباط الشـــرطة. كما أنجبت ساحل سليم العديد من ضباط الجيش والشرطة ورجـــال القضـــاء والســـفراء وأصحاب الوظائف المرموقه.

ولقد كان لإسرة محمد باشا محمود وهى المعروفة بإسرة السلينى فضل كبير فـــى أن تصبح ساحل سليم منارة للتقدم والحضارة بين القرى المجاورة لها فقد أنشأ بها محمـــد باشا محمود مستشفى أميرى سنه ١٩٣٦م. ومحطة كهرباء ومياه سنه ١٩٤٠م.. وأنشـــأ بها خليل باشا إبراهيم مدرسة ثانويه سنه ١٩٤٨ كان بها قسم داخلى يضم أبنـــاء الـــدول العربية والإفريقية من ليبيا والسودان والصومال والحبشة واليمن ومسقط وعمان وفلسطين والبحرين وعدن. كما أنشأ وحدة زراعيه ومدرسة زراعيه ووحدة إجتماعيه.

ولقد تميزت أسرة السلينى بالأدب الشديد والذوق الرفيع والتواضع، وقد إنعكس كل ذلك على سلوك أهالى ساحل سليم، فلم تعرف ساحل سليم العنف الذى تتميز بـــه قـــرى الصعيد.

وبالرغم من أنه كان يوجد تقسيم طبقى واضح بين الأسر فهناك عائلـــة الســـلينى وهى عائلة الباشوات ومالكى معظم الأراضى ثم بعض العائلات المستورة الحـــال مـــن صغار الملاك ثم عائلات للحلاقين والجزارين والسقائين والحمالين والعبيـــد والعربجيـــة والمراكبيه والبنائين والقضاة وبعض الغجر، إلا أن الجميع جمعهم الود والإخاء والتعـــايش السلمى.

وقد تميز أهالى ساحل سليم بوجود الرأى العام المستنير، يستوى فى ذلك الأميـــون والمثقفون والأغنياء والمعدمون.

وقد عرفت ساحل سليم جماعة الإخوان المسلمين كما عرفت الشـــيوعيين بجـــانب المناديين بالإصلاح فى ظل الديمقراطية وتعدد الأحزاب.

وبالرغم من هذه الإختلافات المذهبية فقد تميز الجميع فيما بينهم بعلاقـــات الـــود والصداقة والإخاء.

ولقد كان هناك رجل دين يعظ الناس ويؤمهم فى الصلاة ويخطب الجمعه، وكان له إبن شيوعى. وعندما كان الناس يقولون للآب يامولانا ألا تقدر عليه حتى يرجع عن غيه ؟ يجيب الشيخ فى سماحة ربنا يهديه " لكم دينكم ولى دين " ولم يفقد الشيخ حبه لابنه ولـــم يفقد الآبن إحترامه لأبيه.

هكذا عاش أهل ساحل سليم يرفرف على بلدتهم الآمان والسلام والمودة. وكـــانت النكته والقفشة الظريفة والتعليق اللاذع هى الأدوات التى يعبرون بها عـــن غضبـــهم إذا غضبوا وعن سخطهم إذا سخطوا.

وبفضل مجموعة المدارس التى أنشأها خليل باشا إبراهيم، كتب لآبناء ساحل سليم والقرى المجاورة لها ان يتعلموا، حيث أن إمكانيات الأهالى المادية لم تكن تسمح لهم أن يعلموا أبناءهم فى مدارس مدينة أسيوط ومايكلفه الإنتقال والسكن فى المدينة من إمكانيات يعجز عنها معظم أولياء الأمور.

ولم تعرف ساحل سليم التعصب الدينى إطلاقا، فكان وكلاء أعمال باشوات ساحل سليم كلهم من المسيحين ولهم مطلق الصلاحية فى التصرف. وقد قاموا بعملهم بكل أمانه وإخلاص ولم يسمع أحد عن التعصب الدينى بين تلاميذ المدارس فى ساحل سليم، وإنما عمل الجميع وتجاوروا وتعايشوا بحب وإحترام وإخاء وسلام. وتشارك المسلمون والمسيحيون فى التجارة والزراعة وشتى الأعمال. وعندما سؤلت فى الإذاعه الدكتورة نعمات أحمد فؤاد إستاذه التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة عن رئيس وزراء مصر الذى يكون خارج المنافسة قالت إنه محمد باشا محمود فهو العراقه والأصالة والعين الرويانه الشبعانة المليانة. ثم قالت : لقد قامت مظاهرة ضده وطافت بقصره مطالبة بسقوطه فخرج لهم قائلا : لقد جئتم تسقطون إبن من عرض عليه الملك فأبى. فهتف المتظاهرون " يحيا محمد باشا محمود ".

ولقد أنهيت دراستى الثانويه بتفوق وكان ترتيبى الأول على مدرسة ساحل سليم الثانوية والتحقت بكلية الصيدله جامعة القاهرة ووصلت إلى السنة الثانية.

وفى صيف سنه ١٩٦٦ قرأت إعلانا فى جريدة الأهرام عن وجود منحة لدى مؤسسة الثروة المائية لدراسة الهندسة بالإتحاد السوفيتى للحاصلين على الثانوية العامة القسم العلمى بمجموع ٧٠% فأكثر. وتقدمت إلى المؤسسة بطلبى وقبلت أوراقى.

وقد وهبنى الله ذكاءا شديدا وذاكره حديدية وطموحا كبيرا. ولكن وآه من كلمة ولكن كما يقولون فقد كنت خجولا خجلا يفوق كل وصف. وقد أضاع على خجلى هذا جميع الميزات الآخرى وطغى عليها. ووقف هذا الخجل دائما عائقا أمام إمكانياتى وقدراتى، حتى أنه كاد أن يقضى على حياتى فى إحدى المرات ويضيع على فرصة السفر إلى الإتحاد السوفيتى فى مرة آخرى.

أما كيف كاد يقضى خجلى على حياتى فهذه هى الحكاية : بعد إمتحانات الثانوية العامة ذهبت وأصدقائى ومدرب الساحة الشعبية بساحل سليم إلى جزيرة وسط النيل للسباحة وبعد أن قطعت مسافة طويلة أحسست بإعياء شديد وعدم قدرتى على الحركة وأيقنت أنى غارق لامحالة، وأبى على خجلى أن أستنجد بأى أحد من أصدقائى أو أطلب

المساعدة منهم وهم يسبحون بجوارى. ولكن صديقى الوفى كامل حفنى هم لنجدتى من تلقاء نفسه عندما لاحظ حالة الإعياء والتعب. وقلت له وأنا شبه يائس أرجو أن تتركنى حتى لايغرق كلانا، فأجابنى بوفاء نادر إما أن نسلم سويا أو نغرق سويا. فلما أيقنت أنى هالك لامحالة، صرخت ثلاث صرخات مدوية مودعا بها حياتى وشبابى. ولكن الله سخر لى مركبا شراعيا كان يمر صدفة فى النيل، وتم إنقاذى بقدرة الله وعنايته.

أما فرصة السفر إلى روسيا التى كادت أن تضيع من شده خجلى فهذه هى حكايتها : كان يتم الكشف الطبى على المسافرين فى هذه المنحة بمقر الكومسيون الطبى العسكرى بشارع العباسية. وقد نجحت فى اليوم الأول فى جميع الفحوص الطبية ولم يتبقى إلا تحليل البول وكان ميعاده صباح اليوم التالى. وكنت على علم ودراية بخجلى الشديد وأن معين البول ينضب منى فى وجود أناس آخرين. وقد أقلقنى هذا الموضوع طوال الليل وفكرت كيف يمكن أن تضيع منى فرصة السفر إلى روسيا من أجل قطرات من البول. وعندما إستيقظت فى الصباح الباكر شربت كميه كبيره من الماء ومن عصير القصب حتى أحسست أن المثانة على وشك الإنفجار. ولكن عندما دخلت مقر الكومسيون وأعطى لى العسكرى المجند وكان إسمه معداوى الكأس لأخذ عينة البول بشرط أن يتم هذا الموضوع تحت سمع وبصر العسكرى معداوى. ولكن هيهات هيهات ولاقطرة واحدة وأخذ العسكرى معداوى يصيح ويهدد ويزمجر، اللى مش هيقدم عينه البول هيسقط فى الكشف ومش هيسافر روسيا. وبعد مرور ربع ساعة وصياح العسكرى معداوى وتهديده أيقنت أنى محروم من البعثه ياولدى محروم محروم. فطلبت من العسكرى معداوى ورجوته أن يدير وجهه إلى الناحية الأخرى فأستجاب معداوى على مضض، وهنالك فقط نزلت بعض القطرات بأعجوبه شديدة وكتب لى النجاة من هذا الموقف. وكنت قد أخفيت عن أهلى وأصدقائى موضوع السفر إلى روسيا ونيتى بترك الدراسة بكلية الصيدلة. ووضعت خطة على أن يكون السفر مفاجأه للجميع أخبرهم به قبل ميعاد قيام الباخرة من الإسكندرية بيوم واحد ولكنى أضطررت إلى كشف خطتى لأن مؤسسة الثروة المائية طلبت توقيع ولى الأمر على بعض الضمانات مثل التعهد بدفع نفقات المنحة إذا حدث تقصير فى الدراسة والتعهد بالعمل لدى المؤسسة لمدة سبع سنوات بعد إنهاء الدراسة وعدم الزواج من أجنبية أثناء فترة الدراسة. ونصحنى الأهل بعدم ترك الدراسة بكلية الصيدلة لأنى قاربت على الإنتهاء من الدراسة والتخرج. ولكن عنادى الشديد وجنونى بالسفر إلى الخارج تغلب على كل النصائح التى قيلت لى. وبعد ذلك قام أحد أخوالى وكان مقدم شرطة فى ذلك الوقت بتوقيع وإعتماد جميع الضمانات المطلوبه.

وهنا لابد أن أشهد شهادة حق لصالح القائمين على مؤسسة الثروة المائية فى ذلك الوقت، وهو أنه لم يكن هناك أى واسطة فى إختيار المسافرين فى هذه المنحة ولكن تم الإختيار على أساس المجموع فى الثانوية العامه وشرط النجاح فى الكشف الطبى وقد تعرفت أثناء ترددى على المؤسسة على بعض زملاء السفر.

وقد ركبت قطار الصباح من القاهرة إلى الإسكندرية يرافقنى خالى مقدم الشرطة يوم السبت أول أكتوبر ١٩٦٦م.

وقد قام مندوب المؤسسة بتغيير قيمة خمسة جنيهات مصرية إلى ماركات المانية لكل مسافر من أحد البنوك الموجودة فى ميناء الإسكندريه ثم سلم لنا المندوب جوازات السفر وتأشيرات الدخول إلى الإتحاد السوفيتى وركبنا الباخرة الروسية " لاتفيا " وهذا الإسم لجمهورية ضمها الإتحاد السوفيتى إلى أراضيه أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد إنفصلت الآن عنه ضمن جمهوريات البلطيق التى إستقلت عن الإتحاد السوفيتى وغادرت الباخرة ميناء الإسكندرية فى الساعه السابعه مساءا من نفس اليوم. وتناولنا فى مطعم الباخرة وجبة عشاء روسية دسمة وكان راديو الباخرة يذيع أغانى روسية منها أغنية جميلة يعشقها جميع البحارة إسمها " ماركو بولو ".

وكان بالباخرة كما هو الحال فى جميع البواخر الروسية صالة للرقص على أنغام الموسيقى تفتح أبوابها فى العاشرة مساءا وأغلب المشاركين فى الرقص هم الروس العاملون على الباخرة من قبطان وبحارة وعاملات نظافة وعاملات مطبخ وكذلك الروس الذين يعملون فى البلاد العربية. وأهم مايسترعى النظر فى الباخرة الروسية هو النظافة الشديدة فى كل مكان وفى كل شىء.

والعاملات الروسيات نظيفات وجميلات وملابسهن جميلة وبسيطة وأنيقة. أما وجوههن فهى خالية من المساحيق وتدل نضارة الوجوه على الجمال الطبيعى والإهتمام بالتغذية وممارسة الرياضة. وعاملات المطعم لايعرفن أى لغة غير الروسية. وقائمة الطعام الموجودة على الموائد مكتوبة باللغه الروسية أيضا وقد سبب لنا هذا بعض الحيرة وشعورا بالغربة لأننا لم نكن نعرف أى شىء عن اللغة الروسية. وتأتى عاملة المطعم فتحينا باللغة الروسية فلا نجيب بشىء إلا بهز رؤسنا مثلما تهز رأسها. ثم تتكلم ولانفهم شيئا" ولكن نخمن أنها تسألنا عما نريده من طعام فلا نجيب بشىء إلا بإشارات غير مفهومه بالأيدى والرؤس فتذهب العامله وبخبرتها تأتى بالطعام الذى يفضله المصريون. وطعام البواخر الروسية عموما شهى ودسم وبكميات وفيرة. وأول كلمة روسيه تعلمناها على الباخرة هى كلمة " خراشو " ومعناها جيد وهى من مقطع واحد وليست من مقطعين

كما كانت تنطقها الفنانة تحية كاريوكا وينطقها الفنان فايز حلاوة فى إحدى مسرحياتهم الظريفة.

وبعد ١٨ ساعة من مغادرة الإسكندرية وصلت الباخرة إلى ميناء بيرية باليونان ونزل أغلب الركاب للفرجة على ميناء بيريه. وقد أخذت وزميلى محمود بقى الأسطى وأحد اللبنانين الأرمن القطار من بيريه إلى أثينا. ولم يكن إسم والد زميلنا محمود هو بقى الأسطى ولكن أطلقت عليه هذا الإسم لأنه أول من نطق كلمة من فضلك باللغة الروسية ومعناها بجالوستا نطقها بطريقة مضحكه جدا بقى الأسطى. وقد إشتهر من يومها بإسم محمود بقى الأسطى. ولازمه هذا الإسم إلى الآن.

ومدينه أثينا مدينه جميلة يشعر الإنسان بتراثها الحضارى. أما ميناء بيريه فيشبه إلى حد كبير ميناء الإسكندرية وتنتشر به المقاهى ويوجد به يونانيون كثيرون يتحدثون اللغة العربية. وقد تسببت هذه الجولة فى مدينتى بيريه وأثينا فى تأخرى والزميل محمود عن طعام الغذاء بالباخرة. فاكلنا تفاح أمريكانى كنا قد إشتريناه من الميناء.

وعندما تحركت الباخرة أصيب محمود بدوار البحر وتقيأ كل ما أكله من تفاح أمريكانى وكنت دائما أميل للفكاهة فى تناول الأحداث ولذلك لم أجعل ماحدث لمحمود يمر مر الكرام. فشرحت له أن ماحدث لم يكن سببه دوار البحر ولكن السبب أنه لم ينتقل من أكل الفول والطعمية إلى أكل التفاح الأمريكانى تدريجيا وأنه فاجأ معدته بهذه الكميه من التفاح الأمريكانى ولم تكن قد إعتادت على الطعام النظيف فطردته على الفور. وضحك الزملاء لهذا التفسير كما ظهر على وجه محمود أنه إقتنع بهذا التفسير.

ومن على سطح الباخرة يمكن رؤية العديد من الجزر اليونانية المنتشرة فى البحر المتوسط ومنظرها جميل يثير التأمل والخيال ومن ثم فليس غريبا أن تنجب اليونان أعظم الحكماء والفلاسفه أمثال سقراط وأفلاطون. وتنتشر مراكب النزهة وقوارب الصيد بين هذه الجزر.

وبعد أن أصبحت الباخرة فى عرض البحر وقبل غروب الشمس سمعنا أجراس الإنذار تدق فى السفينة فار تعدت مفاصلنا وإرتجفت قلوبنا من الخوف والهلع وأذاع راديو السفينه باللغة الروسية والإنجليزية والفرنسية أنه يجب على الجميع الصعود إلى سطح السفينة فصعدنا مع الصاعدين والرعب يسيطر على الجميع. ووجدنا أن جميع العاملين الروس يلبسون لبس الإنقاذ وأخذوا ينزلون قوارب النجاة من على ظهر السفينة إلى الماء.

وأخذ طاقم السفينة ينزل إلى القوارب بعد وصولها إلى الماء ثم إتضح أخيرا أن هذه مناورة تدريبية لطاقم السفينة. فحمدنا الله وتنفسنا الصعداء بعد أن كاد الهلع يقتلنا.

وكان معنا فى نفس الكابينة أحد طريدى الكلية الفنية العسكرية وهو إبن أخت عقيد بالجيش كان مديرا لمكتب المشير عامر رحمه الله وزوجا للفنانه المشهورة مها صبرى وقد قتل فى لندن فى السبعينات عندما كان يعمل وسيطا فى تجارة الأسلحة وكان هذا الزميل صامتا طول الوقت لايكلم أحدا. وإذا حاول أى أحد التحدث معه رد عليه بقرف شديد فتجنبناه جميعا وإعتبرناه غير موجود. وكان معنا على السفينة ومن ضمن زملاء البعثة إبن وزير التموين ونائب رئيس الوزراء فى ذلك الحين. وهو شاب مهذب يدل سلوكه علىالأصل الطيب والبيئة النظيفة. وقد حاول جميع الزملاء التودد إليه وكسب صداقته.

وأخذت الباخرة تمخر عباب ماء البحر المتوسط ونحن نستمتع فى نشوة وسعادة بمناظر الجزر المتناثرة فى البحر. وقد حلق خيالى وقادتنى أحلامى اللامعقولة واللانهائية وتصورت نفسى أعيش فى جزيرة معزولة من هذه الجزر أكتب الشعر وأنطق بالحكمة. أكتب مالم يكتبه بشر من قبل داعيا الناس إلى الحب والعدل والخير والسلام.

وأخذ نسيم البحر العليل يدغدغ روحى وينساب إليها فى يسر وسهولة فتتقمصنى شخصية الشاعر المتصوف الحكيم فى تلك الجزيرة المعزولة.

وبعد مسيرة يوم بالباخرة ظهرت ملامح ميناء إسطمبول بجوامعها الكثيرة ومآذنها العالية وروابيها الخضراء وهاجت نفسى بذكريات التاريخ والفتوحات الإسلامية ودولة الخلافة ثم الهزيمة والفرقة والإنقسام والتغريب وعضوية حلف شمال الأطلنطى.

والذى يزور إسطمبول لا يشعر بالغربة أبدا ويحس أنها تبتسم فاتحة ذراعيها مرحبة فرحة بكل عربى يطرق بابها.

ويوجد فى أحد ميادين إسطمبول بالقرب من الميناء جامع كبير أمامه جمع هائل من أسراب الحمام يلتقط الحب الذى يلقيه إليه الناس متمتعا بالمرح والسعادة والسلام.

وبعد أن طفنا بشوارع إسطمبول وأعجبنا بكل مافيها قادتنا أقدامنا إلى أحد الشوارع، وياليت أقدامنا ماقادتنا إلى هذا الشارع فكله بيوت للبغاء والنساء يعرضن أنفسهن فى مداخل هذه البيوت وهن عاريات إلا من شريط من القماش مثل ورقة التوت يسترن به عوراتهن. وياله من منظر مخزى ومذرى ومقزز ومهين لبنى البشر. وياالهول

منظر القواديين التيوس وكيف يضربهم النساء على أعناقهم. وتعجبنا وإنتابنا الحزن كيف أن دوله إسلامية تبيح البغاء وتصرح بممارسته.

ومن مدينة أسطمبول أرسلنا كروت بالبريد إلى أسرنا نطمئنهم على أن الرحلة تمر بسلام.

وغادرت الباخرة ميناء إسطمبول ليلا وأنوار مآذن إسطمبول الساحرة تتلألأ لتزيل ماعلق فى نفوسنا من غم فى هذا الشارع الملعون.

وعبرت بنا الباخرة مضيق البسفور وجاءت اللحظة الرائعة التى إنتظرناها جميعا لرؤية الكوبرى المعلق المقام على مضيق البسفور والذى يربط الجزء الأوربى من تركيا بالجزء الآسيوى منها وهو تحفة فنية وهندسية غاية فى الجمال. وعبرنا مضيق البسفور وكنا مبهورين بسحر المناظر الخلابة الرائعة على جانبى الشاطىء وإجتزنا مضيق البسفور إلى البحر الأسود. وبالرغم من أن البحر الأسود خالى من الأمواج العالية إلا أن كثيرا من الركاب إصيبوا بدوار البحر.

وبعد مسيرة يوم فى البحر الأسود وصلنا إلى مدينة كونستانتا وهى ميناء تابع لجمورية رومانيا. وتجولنا بالمدينة ذات الحدائق الغناء والأشجار الخضراء والشوارع النظيفة والهدوء التام، حتى كأن المدينة خالية من السكان، والبيوت متباعدة وتحيط بكل بيت حديقة ولم نقابل إلا بعض الأطفال يجمعون علب الكبريت الأجنبية الفارغة كنوع من الهواية.

وصلت الباخرة أخيرا إلى ميناء أوديسا وهى إحدى الموانى الروسية الكبيرة الواقعة على البحر الأسود. وصعد رجال الجمارك الروس إلى الباخرة لتفتيش حقائب الركاب وكنت أحمل معى كتابين فى اليوجا وكتاب " دع القلق وإبدأ الحياة " لديل كارينجى. ومرسوم على غلاف الكتاب وجه إنسان قلق وموضوع علىالوجه علامه × باللون الأحمر وقد أثار الرسم الموجود على غلاف الكتاب شك رجل الجمارك الروسى وظن أنه ربما يكون من الكتب التى تهاجم النظام فى الإتحاد السوفيتى. وبدأ يسألنى بلغة إنجليزية ركيكة عن موضوعات هذا الكتاب وحاولت أن أشرح له ولكن كان من الواضح أنه لم يفهم شيئا مما قلت، وبالرغم من ذلك فقد كان كريما وترك لى الكتاب.

ونزلنا من الباخرة وكان فى إنتظارنا مندوب الملحق البحرى المصرى. وقد جاء خصيصا من موسكو لإستقبالنا، كما كان معه بعض المبعوثين المصرين الذين يدرسون

فى ميناء أوديسا. وبعد أن رحبوا بنا، سأل مندوب الملحق البحرى عن أكبر المجموعة سنا". فأشار الزملاء إلى. فسلمنى بكل شهامه ثلاثه آلاف روبل لأوزعها على الزملاء

وأقمنا فى مدينة أوديسا لمدة ثلاثة أيام فى أحد بيوت الطلبة ولم نكن نعرف من اللغة الروسية شيئا وقد عانينا كثيرا لجهلنا اللغة الروسية.

وأوديسا مدينة جميلة شوارعها واسعة ونظيفة بها حدائق عامة كثيرة ومنظر الخضرة يقابل الإنسان فى كل مكان. العاملات الروسيات هن اللاتى يقمن بالنظافة فى كل مكان فى الشوارع وفى الحدائق. العاملات نشيطات جميلات متفائلات. يقمن بعملهن بإخلاص شديد وإقتناع بقيمة العمل. ويشعر الإنسان لأول وهلة بأن عبارة العمل شرف العمل عبادة أنها حقيقة وليست شعارا.

وترى عاملات البياض معلقات على السقالات يقمن بأعمال البياض والدهانات فى همه ونشاط.

ذهبنا إلى أحد مكاتب البريد لإرسال خطابات إلى ذوينا فى مصر كنا نحمل فى جيوبنا علب سجائر أجنبية وقد لاحظنا أن الروس يطلبون منا سجائر بدون سابق معرفة ومنهم ضباط كبار قد فعلوا ذلك، مما أصابنا بالدهشة والإستغراب.

وبعد إقامة ثلاثة أيام بمدينه أوديسا كان علينا أن نسافر إلى مدينة كييف عاصمة جمهورية أوكرانيا لدراسة اللغة الروسية بالكلية التحضيرية لمدة عام. وتم حجز التذاكر لنا فى قطار النوم وكانت ليلة ليلاء ذلك أن سريرى فى القطار جاء فى كابينة بها ثلاثة مسافرين روس رجل وإمرآتان. وياللهول كما يقول فنان الشعب يوسف وهبى. تحرك خجلى القاتل مرة أخرى كيف أدخل وأنام فى كابينة بها سيدات وتشبثت بأحد المبعوثين المصريين فى أوديسا، وكان يجيد اللغة الروسية لينقذنى من هذا الفصل الرهيب.والغريب أن السيدتان الروسيتان أخذتا الموضوع بكل بساطة، وكان تعليقهن ما الذى يخيفك يا آيها الرجل؟. وعرضت على زملائى أن من يبيت فى مكانى فسوف أعطيه مبلغ عشرة جنيهات فرفض الزملاء جميعا، وقالوا لى نحن على إستعداد لإعطائك مائة جنيه لنرى كيف ستقضى هذه الليلة.

وأخيرا كان لابد مما ليس منه بد فدخلت الكابينة ورتبت لى إحدى السيدات سريرا علويا ولوالدها السرير المقابل وخلعت حذائى فقط وصعدت إلى سريرى ونمت ببدلتى كاملة. وتبادلت مع الرجل الروسى بعض الإشارات البلهاء التى لاتعبر عن شيء ولايفهم منها شيئا أما السيدتان الروسيتان فقد أستبدلتا الفساتين بقمصان نوم ببساطة شديده وكأنه

لايوجد رجل غريب فى الكابينة، ولم يغمض لى جفن طوال الليل حتى أقبل الصباح ووصل القطار إلى محطة كييف.

نزلنا بحقائبنا إلى محطة كييف وكان الوقت ظهرا ولم نجد فى إنتظارنا أحد. ومكثنا على هذه الحالة حوالى ساعة لاندرى ماذا نقول ولا إلى أى مكان نذهب. ولا نعلم من اللغة الروسية إلا كلمة خراشو التى لا يمكنها أن تحل جميع المشاكل ثم وصل أوتوبيس وبه مترجم روسى يجيد اللغة العربية بجميع اللهجات كما يعرف الكثير من الأمثله الشعبية العربية. وصلنا بالأوتوبيس إلى بيت الطلبة وللحقيقة فإنه بيت مشترك للطلبة والطالبات الدارسين بجامعة كييف.

وقد وضعنا حقائبنا فى مدخل بيت الطلبة ثم تم توزيعنا على الغرف كل غرفة بها أربعة سراير وتم إسكان كل إثنين مصريين مع إثنين من الطلبة الروس وسكنت وزميلى المصرى فى حجرة بها طالب روسى يدرس التاريخ بجامعة كييف وهو دائم السكر ومعاقرة الخمر. أما الآخر فكان يدرس الرياضيات بنفس الجامعه وإسمه ديفيد وأعتقد أنه كان يهوديا لأنه ملتزم وجاد ولايعاقر الخمر.

ومبنى بيت الطلبة قديم ومكون من ثلاثة طوابق ونظيف جدا وحجراته واسعة ونظيفة وأرضها خشبية. وبعدأن وضعنا حقائبنا فى حجراتنا، نزلنا إلى الشارع لإستكشاف المدينة. الشوارع نظيفة وواسعة والحدائق العامة كثيرة والأشجار موجودة فى كل مكان. ومازالت تقابلنا مشكلة عدم معرفة اللغة الروسية. وبدأنا نتعامل بالإشارة وبرسم الأشياء التى نريدها حتى أن أحدنا قلد صوت الدجاج عندما أراد أن يشترى بيضا وكان كل ذلك يضحك العاملات الروسيات كثيرا وفى النهاية يتفهمن طلباتنا. وكنا نتعجل دراسة اللغة الروسية حتى تحل مشكلة التفاهم فى جميع أمور حياتنا.

وفى اليوم الثانى صحبنا المترجم إلى إحدى المستشفيات لتوقيع الكشف الطبى الشامل علينا. ومما لفت نظرنا أن الغالبية العظمى من الطبيبات.

وعند دخولى لعمل أشعة على الصدر بدأ الطبيب الروسى يكرر كلمة نفس باللغة العربية وفهمت من طريقته فى الكلام أنه يريد منى أن أتنفس بعمق. ولما خرجت من حجرة الكشف وجدت أن زملائى ينادوننى بإسمى متبوعا بكلمة نفس كما نطقها الطبيب الروسى. وضحكت مع الزملاء من هذا اللقب الجديد، ولم أبدى أى نوع من الضيق حتى لاتقترن كلمةنفس بإسمى. وفعلا لم يحاول أحد أن ينادينى بكلمة نفس مرة أخرى.

الشيء الجميل الذى يسترعى الإنتباه فى كل مكان هو النظافة الشديدة. وفى اليوم الثالث صحبنا المترجم للتعرف على مدينة كييف، ولكم هى رائعة الجمال هذه المدينة وهى عاصمة جمهورية أوكرانيا الواقعة فى الجزء الأوربى من الإتحاد السوفيتى. وجاء الدور لركوب مترو الأنفاق بمدينة كييف ولابد من النزول على سلم كهربائى متحرك وكدت أن أصرخ من الخوف ولولا الملامة والفضيحة من أن يقال إن رجل صعيدى يخاف من الأماكن المرتفعة لصرخت ولم أحاول أن أضع رجلى فوق هذا السلم الذى سينزل بى إلى سابع أرض. ومرت الدقائق التى أستغرقها السلم الكهربائى فى الوصول إلى رصيف المترو كأنها دهر من الخوف وتكرر هذا الإحساس مرة أخرى فى صعود السلم الكهربائى.

ولكن مع تكرار إستخدام المترو زال هذا الخوف. وقد زرنا كثيرا من الأماكن الأثرية بمدينة كييف ومنها كنيسة شهيرة قبابها مصنوعة من الذهب الخالص.

وزرنا فى هذا اليوم أكبر إستاد رياضى بمدينة كييف وقد حكى لنا المترجم القصة التالية : فى أثناء الإحتلال النازى لمدينة كييف فى الحرب العالمية الثانيه طلب الألمان أن تقام مباراه فى كره القدم بين الفريق الألمانى وفريق مدينة كييف، وهدد الألمان لاعبى كييف بأنهم إذا إنتصروا على الفريق الألمانى فسوف يتم إعدامهم رميا بالرصاص. وحضر المباراة حشد كبير من الألمان ومن مواطنى مدينة كييف وكان النصر لفريق مدينة كييف. وقد أعدم الألمان فريق كييف فى الإستاد بعد نهاية المباراه مباشرة فى مذبحة بشعة.

مازلنا نتعجل تعلم اللغة الروسية، وسأل أحدنا المترجم هل فعلا سنتحدث الروسى وأجاب المترجم بلهجة مصرية يا أخى خلال ثلاثة شهور هتتكلم روسى زى اللبلب.

وقد ذهبنا فى اليوم الثالث إلى الكلية التحضيرية لدراسة اللغة الروسية. والكلية التحضيرية لاتبعد كثيرا عن بيت الطلبة. وقد تم توزيعنا على مجموعات صغيره بعد أن عقدوا لنا إمتحانا فى الكيمياء والرياضيات والفيزياء على مستوى الثانوية العامة الروسية. وتم تصنيف المجموعات طبقا لنتائج هذا الإمتحان.

كانت مجموعتى تضم سبعة أفراد أحدهم إبن وزير التموين ونائب رئيس الوزراء مهذب نعم التربية ونعم الأخلاق لايعرف اللؤم ولا الخبث. والثانى طريد الكلية الفنية العسكرية، معقد لايكلم أحدا، ويستاء ويصبح فى منتهى الضيق إذا كلمه أحد، أو ألقى عليه السلام، ذكى جدا، له ذاكرة خارقة، عبقرى فى الرياضيات ماهر فى لعب الشطرنج ولكن

آه لو إنهزم فى أحد الأدوار، فهى الكارثة والطامة الكبرى التى تجعله لاينام الليل حتى يرد إعتباره، وهو متدين محافظ على الصلوات، وقد أبدى تفوقا رائعا فى دراسة اللغة الروسية. أما ثالث المجموعة فهو حاصل على دبلوم ثانوية صناعية وكان يعمل مدرس عملي بمدرسه حلوان الصناعية. أطلقنا عليه لقب شرلوك هو لمز وذلك أنه في يوم السفر من الأسكندرية إلى روسيا إعتبر نفسه أوربيا وجاء إلى الميناء لابسا بالطو وكوفيه وقبعة ونظارة سوداء ولم يتعرف عليه ضابط الجوازات وأمره بخلع القبعة والنظارة والكوفيه ليتحقق من شكله، ومن ثم فقد أطلقنا عليه شرلوك هولمز، ولم يغضب لهذه التسمية، وعلى كل حال فقد كان إنسانا عاقلا وجادا وطيبا، وهو الآن قبطان عالمى فى أعالى البحار. أما الرابع فقد كان ذكيا وممتازا فى دراسته ولكنه زير نساء ومجنون جنس. والخامس ذكى وكريم وعصبى المزاج. والسادس كان فلسطينى من أبناء مدينة الخليل يعشق مصر والمصريين، ذكى وجاد وكريم ومثقف وعصبى المزاج ويمتاز بالشهامة والرجولة. أما السابع فقد كان ذكيا يتمتع ببرود شديد يجيد أعمال السمسرة والكذب والوقيعة وكان مهندما أنيقا فى ملبسه أطلقنا عليه مجموعة أسماء ولكن اللقب المفضل الذى إستمر متمتعا به هو البواب.

بدأنا تعلم اللغة الروسية مع سيدة رائعة الجمال موفورة الصحة والشباب رقيقة لاتتكلم إلا همسا أحبها الجميع لظرفها ورقتها وإنسانيتها. وقد بدأنا بتعلم نطق الحروف وكتابتها بطريقة تشبه طريقة الكتاتيب أى طريقة التعليم القديمة فى مصر. أى فى البداية نتعلم نطق الحروف وكتابتها. وفى اليوم الأول أخذنا واجب منزلى هو كتابة الحروف عدة مرات. وبعد مرور ثلاثة أيام على إنتظامنا في دراسة اللغة الروسية أخبرتنا المدرسة أنه سوف يتم إستبدالها بمدرسة آخرى. وكعادة أبناء الشرق فى تغليب العاطفة على العقل، بل إلغاء العقل فى أحيان كثيرة، ثار الزملاء وحلفوا برأس أبوهم إن ماحد يدخل علينا إلا هذه المدرسة الجميلة الرقيقة. وقد إستنكرت هذا الموقف غير العقلانى من الزملاء وحاولت المدرسة أن تتفاهم معنا بانجليزية ركيكة ولكن بلا فائدة وكانت المدرسة الأخرى منتظرة خارج الفصل وأعتقد أنه بذكائها أحست بهذا الموقف وكان لابد من اللجوء إلى عمنا أبو رياض المترجم الروسى وكان إسمه الحقيقى نيكولاى ولكن وجدنا أن الطلبة العرب يطلقون عليه أبو رياض. ولما جاء أبورياض لم يقم بدور المترجم فقط ولكن قام بحل المشكله إستنادا إلى معرفته بنفوس الشرقيين وكان إعتقادة أن من يلغى عقله لا ينفع معه الحوار أو الإقناع والطريقة الوحيدة لحل المشكلة هى التهديد.

وقد قال أبو رياض بحدة هذا هو نظامنا وإذ لم يعجبكم فيمكنكم الرجوع إلى بلدكم. وهنا صمت الزملاء رضوخا للأمر الواقع. ومن هذه اللحظة أصبحت فكرتي عن أبورياض أنه داهية كبيره. ودخلت مدرسة الروسى الأخرى شابة جميلة ورشيقة ذات عيون خضراء يبدو عليها الذكاء الشديد والإعتداد بالنفس والجدية. يكسو وجهها الحزن والآسى. وقالت باللغة الروسية أنا إنسان، ولما كانت تعرف أننا لاندرى معنى هذه الكلمة فقد فتحت القاموس وأشارت إليها ووجدنا أن معناها إنسان. وشعرت فى هذه اللحظة أن هذه المدرسة تريد أن تقول بكلمة إنسان أشياء كثيرة وتذكرت قول الله تعالى " ولقد كرمنا بنى آدم " وأنه لايحق لأى أحد أن يمس كرامة الإنسان لاتلميحا ولا تصريحا بدأت معنا هذه الجميلة ذات العيون الخضراء والشعر الذهبى فى دراسة اللغة الروسية وللحق فقد كانت أنسانة جادة أقنعت الجميع بسلوكها أنها إنسانة محترمة وقد أقلع الجميع عن حركات الإستظراف مثل العزومة عليها بالسجائر، والغزل الثقيل مثل عينيكي خضرة وعينيكى حلوة. ورويدا رويدا بدأت تسيطر على المجموعة بذكائها وإنسانيتها وجديتها.

فهى إنسانة واسعة الثقافة لم تكتفى بروائع الأدب الروسى ولكنها كانت مهتمة بإبداعات الأدب الفرنسى مثل روايات سارتر وسيمون دى بوفوار وفرانسواز ساجان.

***

هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧

دائما يتجسم إحساس المرء بوطنه ومصريته عندما يكون فى الغربة. وفى هذه الحقبة من الزمن كان هناك إهتمام كبير من الشعب المصرى عامة بالسياسة العالمية. وأخذت القضية الفلسطينية الإهتمام الأكبر من فكر ووجدان الحكومة المصرية والشعب المصرى. وعندما كنا نتكلم عن القضية الفلسطينية كان يقول لنا الروس إنها قضية من أعقد القضايا ومشكله من أكبر المشاكل. وكنا نقول لهم إن الجيش المصرى قادر الآن على تحرير فلسطين لولا وقوف الإستعمار العالمى بقيادة الولايات المتحده الأمريكية مساندا لإسرائيل يمدها بالمال والسلاح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت إجابة الروس دائما أن الحرب شيء بشع ولايمكن أن تحل قضية وعندما يسمع الإنسان الروسى العادى كلمة حرب فإنه يصاب بالهلع الشديد ويذكر مآسى الحروب وما فعلته بالإتحاد السوفيتي من خراب وقتل وجوع وتشريد. فالإنسان الروسى العادى داعية سلام منضبط غير ميال للعنف يستخدم دائما عقله لحل مشاكله، والخناقات الفردية تكاد تكون معدومة في روسيا ووسائل الإعلام اليومية من صحافة وإذاعه وتلفزيون تدعو الناس دائما للسلام وتنفرهم من الحرب. وهناك إنشودة جميلة يرددها الكبار والصغار تقول : دائما سوف تبقى الشمس ودائما سوف تبقى السماء ودائما سوف تبقى أمى ودائما سوف أبقى أنا ودائما سوف يبقى السلام.

أما نحن فقد كان رأينا أنه لاحل للقضية الفلسطينية إلا بالحرب. وفى مايو سنه ١٩٦٧ سمعنا من الإذاعة أن مصر أعلنت حاله الطوارىء القصوى فى القوات المسلحة وأن طلائع الجيش المصرى أخذت تتدفق على سيناء وأن الرئيس عبد الناصر أمر بإغلاق مضايق تيران وإنسحاب القوات الدوليه التابعه للأمم المتحدة. وهللنا وكبرنا وفرحنا لذلك وكنا واثقين من أن النصر سيكون حليفنا فى هذه الجولة وأنه قد جاء اليوم الذى إنتظرناه طويلا لتحرير فلسطين والقضاء على إسرائيل.

وفى هذه الفترة وصلنى خطاب من القاهرة به صورة للرئيس عبد الناصر وصورة للمشير عامر ومضمون الخطاب أن الأهل والشعب المصرى أجمع متفائلون وواثقون من النصر وهزيمه العدو الصهيونى. وإنتابنى فرح شديد بصورة الرئيس الزعيم والبطل القائد والمناضل فى سبيل رفعة الشعب المصرى والأمة العربية. أما المشير عامر فكان له قبول وحب عند الشعب المصرى.

وعلقت الصورتين فى حجرتى وأنا متفائل بأن النصر سيكون حليفا للقائد السياسى والقائد العسكرى.

وفى الوقت الذى كنا نرقص فيه طربا للإستعداد للحرب كان الروس نساءا ورجالا يضعون أيديهم على قلوبهم خوفا من تفجر الموقف وإندلاع الحرب.

وفى أحد دروس اللغة الروسية جاءت لنا مدرسة الروسى بجريده البرافدا السوفيتية وبها مقاله مأخوذه عن جريدة ليموند الفرنسية وقالت لنا ترجموا هذه المقالة من اللغة الروسية إلى اللغة العربيه وكانت هذه المقالة تتضمن مقارنه بين ماتملكه مصر وماتملكه إسرائيل من طائرات ودبابات وجنود وأسلحة أخرى وكانت المقارنه فى صالح مصر مما جعلنا نزداد تفاؤلا وسعادة.

ولايمكن لى أن أنسى ذلك اليوم ولايمكن لأى مصرى أن ينساه كما لايمكن لأى عربى أن ينساه. إنه يوم ٥ يونيو سنه ١٩٦٧. كنت فى الكلية التحضيرية التى ندرس بها اللغة الروسية بمدينه كييف وفى حوالى الساعة الثانية عشر ظهرا أخبرنى أحد الطلبة الهنود أنه سمع إذاعة لندن وأن إسرائيل قامت بالهجوم على مصر وأن الحرب إندلعت بينهما.

ووجمت من هول المفاجأة. ثم جاء الزميل محمود بقى الأسطى قائلا باللغة الروسية لقد إندلعت الحرب. فلعنته بأبشع كلمات السباب طالبا منه أن يتحدث باللغة العربية ولا داعى للتفلسف فى هذا الوقت، وتكهرب الجو بين الطلبة المصريين والطلبة العرب وهرعنا جميعا إلى بيت الطلبة ولاذت كل مجموعه بجانب جهاز راديو، نتسمع أخبار الحرب، وكلما أعلن الراديو أننا أسقطنا عددا من الطائرات الاسرائيلية هللنا وكبرنا. وظللنا على هذا الحال لمدة يومين نهلل ونكبر لكل مانسمع من إنتصارات وخاصة عندما وعدنا مدير إذاعة صوت العرب أنه سوف يذيع غدا من تل أبيب بعد وصول قواتنا إليها وتحريرها من العدو الصهيونى النجس.

وفى اليوم الثالث بدأت نغمة الإنتصارات تفتر رويدا رويدا، وقال الراديو إن الجيش المصرى إنسحب إلى خط الدفاع الثانى وقلنا ربما تكون هذه خطة تكتيكية وفردنا أمامنا الخرائط الخاصة بسيناء. وأخذ أحد طريدى الكلية الفنية العسكرية يشرح لنا على الخريطة خطة الجيش المصرى كما يتصورها. وفجأه أصيب أحد الزملاء بلوثة عقلية وأخذ سكينا يريد أن يضرب بها الزميل الذى يقوم بالشرح صارخا ومكررا بجنون " أنا عايز أشوف أمى " وتكاثرنا عليه وأخذنا منه السكين، ثم بدأت عدوى إنفلات الأعصاب تظهر على الجميع.

وبدأ الإكتئاب والهم والغم يملأ نفوسنا بعد أن علمنا بقبول مصر لوقف إطلاق النار ووصل الجنون إلى ذروته الكامله عندما أعلن الرئيس عبد الناصر تنحيه عن جميع مناصبه الرسمية وتحمله الكامل لمسئولية الهزيمة. ثم تلى ذلك خبر إستقاله المشير عامر من جميع مناصبه الرسمية. وأحسسنا أن كيان الدولة أصبح مهزوزا وخفنا على مصر من الإنهيار.

وكانت أول بارقة أمل للخروج من هذا المأزق هى البرقية التى أرسلها الفريق أول سليمان عزت قائد القوات البحرية راجيا الرئيس عبد الناصر البقاء ومعلنا تأييد وولاء القوات البحرية لسيادته. ثم توالت أنباء برقيات التأييد ببقاء الرئيس عبد الناصر وزحف

الملايين من أبناء الشعب المصرى من جميع أنحاء مصر بتلقائيه شديده إلى بيت الرئيس عبدالناصر مطالبه إياه بالبقاء وقيادة البلاد إلى بر الأمان.

وفى اليوم التالى تجمعنا مصريون وعرب فى مسيره كبيرة طفنا فيها بمدينة كييف رافعين العلم المصرى منددين بالعدوان الهصيونى مصممين على بقاء الرئيس عبدالناصر والصمود وإزالة آثار العدوان. وكانت مفاجأة للروس لأن هذه المسيرات ممنوعة قانونا فى الإتحاد السوفيتى.

وتمكنت من نفسى حالة الإكتئاب وكثيرا ماكنت أتخيل أن ماأعانيه مجرد حلم بشع وكابوس ثقيل سرعان ما أفيق منه. ولكنها كانت الحقيقه بكل مأسيها تجثم على صدرى وصدر كل مصرى وعربى. وإنزويت لا أغادر حجرتى ولا أنزل الشارع. وأخذ زملائى يقصون على مايعانونه من سخرية اليهود الروس بنا وإحتقارهم لنا والمعروف أن مدينة كييف بها أكبر تجمع لليهود.

وزارتنى مدرسة اللغة الروسية للتخفيف عنى وعن الزملاء وأبلغتنى أنه سوف يعقد فى المساء مؤتمر بقاعة المعهد العالى للبناء سوف يحضره قادة الحزب بمدينة كييف لشجب العدوان الإسرائيلى ومساندة الشعب المصرى والشعوب العربية وعلينا أن نشارك فى هذا المؤتمر.

وفى المؤتمر تحدث قادة الحزب فاستنكروا العدوان الإسرائيلى وتحاملوا على الإمبرياليه العالمية التى تقودها الولايات المتحدة الأمريكية ووعدوا بمساندة الدول العربية سياسيا ومساعدتها عسكريا. ثم تحدث مبعوث مصرى يجهز للدكتوراه فى ميكانيكا الجرارات فقال كلاما فاترا وطلب من الحاضرين التبرع لشراء عربه جيب للجيش المصرى فأستاء منه الجميع لأن كلامه لم يكن لائقا بمهابة المؤتمر ولا بكرامة مصر والجيش المصرى.

أديت الإمتحانات بإمتياز . وقررت أن أسافر إلى مصر . وقد سمعنا ونحن فى عرض البحر بمعركه رأس العش وصمود وإنتصار القوات المصرية فى هذه المعركة. وقد تسلل بصيص من الأمل أخذ يداعب نفوسنا بعد الصمود فى هذه المعركة. وقد شاهدنا قطع الأسطول السادس فى البحر المتوسط كما شاهدنا الوحدات البحرية السوفيتية فى ميناء الإسكندرية.

وكنت أتصور أن جميع مدن وقرى مصر فى حالة إظلام تام. ولكن وجدت القاهرة كما هى بأضوائها ومسارحها وسينماتها ولكن الوجوم والتوهان على وجوه الناس. لاحديث

للناس على المقاهى أو فى البيوت أو فى المواصلات العامه إلا عن الهزيمـــــه والنكســـه وكيف حدث ذلك ومن المسئول، وكيف الخلاص. وفى هذه الأثناء كانت حملـــــة التــبرع بالذهب وخلع الأزواج خواتم زواجهم الذهبية وتبرعوا بها للمجهود الحربى وبالرغم مـــن أن الوجوم والحزن والكآبه التى ألقت بظلالها على كل بيت فى مصر إلا أنـــــه إنتشـــرت موجة رهيبة من النكات اللاذعة تناولت ضباط الجيش وكبار المســـئولين وقـــد تنـــاولت الرئيس نفسه. وقد أبدى الرئيس عبدالناصر دهشته من هذه النكات فى خطابه الذى القـــاه فى ٢٦ يوليو ١٩٦٧ أى بعد حوالى خمسين يوما من الهزيمة والنكسة.

والعارف بطبيعة الشعب المصرى وتكوينه يعلم تماما أن هذه الموجة من النكـــات الساخرة لم تكن كرها فى الرئيس وضباط الجيش ولا تشفيا فيهم ولكن تلك هـــى طبيعـــة الشعب المصرى إبان المحن والأزمات. فهو ينفس عن نفسه حتى لايقتله الغـــم والقـــهر واليأس. لقد كان للشعب المصرى آمالا عظيمة وكبيره عاش لها وتحمل من أجلها الكثـير، وثق فى قادته وأعطاهم تأييدا وحبا لم يعطة شعب لقائد من قبل. وفجأة ضاع الحلم، وأطل الوهم بكل مآسية السياسية والإقتصادية والإنسانيه. وبدلا من لجوء الشعب المصرى إلـــى العنف المدمر الذى لايبقى ولايذر، كانت النكته الساخرة التى حفظت لهذا الشعب اتزانـــه وساعدته على البناء والعطاء والإستمرار فى الحياة.

ولقد ساعد التدين العميق والإيمان بالله الشعب المصرى على إحتمـــال مصائبــه والصبر والكفاح حتى تزول عن كاهله كل غمة، كما ساعدته النكته الساخرة على إحتمـال المرارة ومقاومة اليأس.

وعدت من أجازتى إلى روسيا وأنا كسير النفس مشغول الفكر، وقد غادرت مدينـــة كييف إلى مدينه إسطراخان حيث درست الهندسة الميكانيكية لمدة خمسة ســـنوات وفـــى طريقنا من مطار إسطراخان إلى بيت الطلبة أخبرنا سائق التاكســـى الروســـى بإنتحـــار المشير عامر وحزنت عليه رحمه الله لآنه كان مثالا للشهامة والطيبة.

وصلنا إلى بيت الطلبة ليلا كان فى إنتظارنا سكرتيره منظمة الشباب وهى طالبـــة بكلية تكنولوجيا تصنيع الأسماك بنفس المعهد الذى ندرس به وقد كانت على علاقة بـــأحد المصريين الذين يحضرون للدكتوراه ولكنه هجرها لخوفه على مســـتقبله مـــن نشـــاطها الحزبى الخطير. وكان معها طالب بلغارى تبدو عليه علامات النفاق والرياء وأنـــه ذيـــل للروس وتابع لهم. وقد تم توزيعنا مؤقتا على بعض الغرف. وفى الصباح أخذت أبحث عن دورة المياه ووجدت باب إحدى الغرف مفتوحا وبها إثنان من المصريين يتناولان طعـــام الأفطار أحدهم زميلى سبقنى إلى إسطراخان منذ إسبوعين والآخر موجود فى إسـطراخان

منذ عام مضى. وبعد السلام والترحيب دعونى إلى الإفطار معهم فقلت لهم أين دورة المياه قالوا أقعد إفطر أحسن لأنك لن تستطيع أن تدخلها، وكانوا يعلمون أننى على قدر كبير من الحياء، قلت بسرعة أين هى ؟ فتقدمنى أحد الزملاء وفتح لى باباوقال تفضل وعندما نظرت وجدت خمسة دورات بلدى بدون أبواب والروس يجلسون القرفصاء لقضاء حاجتهم وفى يد كل منهم جزء من صحيفة يقرأ فيها ثم يمسح بها دبره بعد قضاء حاجته. وقمت بعمل حسبه سريعه وهى أننى سوف أعيش فى هذه الظروف لمدة خمسة سنوات ومن المستحيل أن لا أقضى حاجتى طوال هذه المدة. فشمرت وجلست القرفصاء وكانت هذه أول مرة أنقم فيها على نظام الحياه فى روسيا ولم أجد أى سبب مقنع يجعل دورة المياه بدون باب علما بأن روسيا غنية بالغابات ووفره الأخشاب.

وفى هذه الحالة إنتابنى إحساس بأن كل ماحققه الإتحاد السوفيتى من تقدم علمى ومن مكانه عالمية لايساوى شيئا لأن هذا التقدم لم ينعكس على النظافة الشخصية للفرد وعلى الحياء والذوق العام.

وهنا تذكرت تعاليم الدين الإسلامى وتركيزة على الطهاره والنظافة الشخصية وحضه على الحياء ووصفه للحياء بأنه شعبة من شعب الإيمان.

وكانت دورة المياه بهذا الوضع تمثل كارثة لزميلنا طريد الكلية الفنيه العسكرية المتدين المتزمت فقد صام عن الطعام والشراب حتى لايدخل دورة المياه. وحاولت إقناعة أن ليس ذلك هو الحل وأنه لايمكن أن يصوم لمدة خمسة سنوات. وأخيرا إهتدى إلى حيلة فقد قام بإتلاف مفاتيح الإضاءة الخاصة بدورة المياه وكان يدخلها ليلا فقط حتى لايرى أحدا ولايراه أحد. وقد تسبب عدم وجود إضاءة فى دورة المياه إلى نوادر مضحكة ومأساوية فى نفس الوقت فكثيرا ماقام أحد الداخلين فى الظلام الدامس بالتبول على جالس القرفصاء الذى تأخذه المفاجأه وعندما يفيق ويصرخ يكون كل شىء قد إنتهى وأصبح هو وملابسه تحت دش من البول.

وثارت ثورتنا وأبلغنا إدارة المعهد أننا قوم بنا حياء وأن وجود دورة مياه بدون باب شىء مخجل وغير أدمى. وطالبنا بتركيب باب خشب لإحدى الدورات. ووعدتنا الإدارة خيرا بعد أن تعجبت لهذا الطلب الغريب. وفى الإجتماع الشهرى مع مدير المعهد كررنا المطالبة مرة أخرى بتريكب الباب. وفوجئنا بعميده الطلبة الأجانب تقول إن ذلك شىء صعب وشبه مستحيل. وهنا ثار فيها مدير المعهد الأسمر أرمنى الأصل كيف تقولين ذلك ؟ ألا توجد أخشاب فى روسيا ؟ ألا يوجد نجار فى روسيا ؟ وعرفنا ساعتها أن المشكلة سوف تحل. وقد تم تركيب الباب الخشبى بعد ثلاثة شهور ولكن بعد أن تعود

أغلب المصريين على قضاء حاجتهم على المكشوف. وهنا أدركت مدى تأثير البيئة المحيطة على الإنسان فقد تفقده حياءه وآدميته فى بعض الأحيان.

عانينا فى إسطراخان من عملية الإستحمام حيث أن الغلاية المركزية التى تمد الحى الذى يوجد فيه بيت الطلبة بالماء الساخن لاتعمل إلا فى شهر ديسمبر. وكان ذلك يضطرنا إلى الذهاب إلى حمامات عامة بعيده. ودخلت أحد هذه الحمامات وهالنى وجود جمع كبير من الرجال العرايا أمام كل منهم طشت وليفه وصابونه كل واحد يملأ الطشت بالماء الدافىء ثم يسكب الماء على نفسه بالطريقة البدائية.

ثم بعد ذلك عرفنا أنه يوجد بالمدينة حمامات لها أبواب. وهذه الحمامات مشتركة ويمكن لأى رجل أن يأخذ زوجته أو عشيقته ويدخل بها أحد هذه الحمامات مادام مستأجرا لحمام مزدوج.

وقد حدث لى فى إحدى المرات فصل بارد وسخيف حيث ذهبت إلى بوفيه المعهد وطلبت زجاجه لبن وقيل لى إنه لايوجدإلا زجاجه سعة لتر فأخذتها وشربتها وإنتابتنى حاله مغص شديد أثناء استماعى لإحدى المحاضرات. فخرجت من المحاضرة ولم أكن قد تعرفت على أقسام المبنى قبل ذلك وسألت عن دورة المياه فقيل لى أنها بالدور الثالث ودخلت أول دورة قابلتنى لها باب عمومى ولكن من الداخل حوائط بدون أبواب وجلست القرفصاء وإذ بالباب يفتح وتدخل فتاه لاعبه كره يد فتنظر بإستغراب وأنا أقول يا أرض إبلعينى من الخجل ثم خرجت الفتاة دون أن تصرخ أو تثير فضيحة، ساعتها أكتشفت أن شدة المغص جعلتنى أدخل أول دورة مياه قابلتنى دون التأكد بأنها خاصة بالرجال. فلملمت نفسى وخرجت أقطر عرقا من هذا الفصل البارد.

وقد حدث فصل أبرد مما حدث لى لزميلنا الشيخ هاشم. حيث أن بيت الطلبة مشترك وبه طالبات كذلك، ومن ثم فقد تم تخصيص يوم فى الحمام للطلبة ويوم للطالبات. ونزل الشيخ هاشم إلى الحمام فى اليوم المخصص للطلبة ودفع الباب العمومى بكل قوه قائلا يامنجى وقد فوجىء بفتاه عارية كما ولدتها أمها أخذت تصرخ وتحاول أن تستر نفسها بأى شىء، فما كان من الشيخ إلا أن إستعاذ من الشيطان الرجيم وتراجع وأغلق الباب بسرعة وجاءنى متأزما ولم يستطيع أن ينام طيلة هذه الليلة.

ومن الفصول الباردة والظريفة التى تعرض لها الشيخ هاشم أنه فى أحد الأيام الشديده الحرارة فى شهر يونيو وكنا نستعد لإنهاء مشاريع التخرج وأنا منضجع على سريرى بملابسى والشيخ نائم على ظهره على سريره بفانلة وسروال له فتحه من الأمام

وإذ هناك طرق بباب الحجرة فأجاب الشيخ هاشم نعم وإذ الزميلة الروسية إيرينا تدخل علينا الحجرة فما كان من الشيخ هاشم إلا أن مثل دور النائم. ولما رأت أيرينا هذا المنظر وجهت كلامها لي وظهرها للشيخ هاشم طالبة مني أن أعطيها المذكرة الخاصة بحساب إقتصاديات المشروع. فقلت لها تفضلي بالجلوس وسأتيكي بها من أحد الزملاء من مبنى قريب وخرجت من الحجرة ورجعت لها بعد حوالى ربع ساعه فوجدت أيرينا جالسه على كرسى لاصقه وجهها فى الحائط وظهرها للشيخ هاشم. والشيخ هاشم مغمض العينين متصلب الجسم يمثل دور المستغرق في النوم. وما أن أحست بى ايرينا حتى خطفت منى المذكرة وخرجت تجرى. أما الشيخ هاشم فتنفس الصعداء وقفز من على سريره قائلا لى إن هذه الربع ساعة مرت عليه كأنها تأبيدة.

فى اليوم التالى لوصولنا إلى مدينة إسطراخان جاء الزملاء المصريون الذين سبقونا فى الدراسة وأخبرونا ان مصطفى عامر إبن أخت المشير عامر فى حالة إنهيار شديد بعد سماعه نبأ إنتحار خاله. فذهبنا إليه نعزيه وكان فى حالة يرثى لها وأخذنا نواسيه ولم يسترد إتزانه إلا بعد شهور طويله وكان طالبا بكلية المزارع السمكية، ضخم الجثة فارع الطول، طيب القلب، أصيل، كريم، عاطفى بدرجة كبيره. وعندما كان يعزمنا على غذاء ونعتذر كان يقول ورحمة المشير فكنا نلبى دعوته فورا، فتملأ عيناه الدموع لهذا الوفاء لتاريخ خاله الذى حاولت بعض القوى أن تنال منه

وقد زار المشير عامر الإتحاد السوفيتى قبل النكسه بشهور، وكان للمشير عامر وضعا خاصا عند القيادة السوفيتية، فهو يتعامل بشيامه نادرة، وهذا النوع من الرجال يستولى بكل سهوله على قلوب الروس. كما كان المشير حائزا على لقب بطل الإتحاد السوفيتى، ومن ثم فقد كان إستقبال القيادة السوفيتية له إستقبالا حارا وحافلا. وكل ذلك قد جعل لمصطفى عامر وضعا مميزا عند إداره المعهد.

ولقد أحس مصطفى بإنكسار نفسى بعد وفاة خاله، ولكن إدارة المعهد أرسلت له من يبلغه أن وضعه لن يتأثر أو يتغير نتيجة لتغيير الظروف.

وبالرغم من ذلك العهد الذى قطعه الروس على أنفسهم فإنهم لم يترددوا لحظة فى طرد مصطفى من الإتحاد السوفيتى بعد ذلك بعامين عندما نشبت خناقه بينه وبين إثنين من الزملاء المصريين، وحولوا هذه الخناقة البسيطة إلى قضية سياسية إتهموا فيها مصطفى بعدائه للإتحاد السوفيتى وأنه يضغط على زملائه لمنعهم من دراسة تاريخ الإتحاد السوفيتى، الفلسفة المادية، والإقتصاد السياسى، والشيوعية العلمية.

وكنا نعلم جميعا أن مصطفى برىء من كل هذه التهم وأن هذه الخناقه حدثت تحت تأثير الفودكا ذلك المشروب الروسى القوى اللعين الذى يجعل الحكيم سفيها والطبيب إبليسا. ولكنها السلطة الغاشمة المتوجسه والخائفة دائما والتى تتوهم أشياء خياليه غير موجودة، فتلجأ إلى تلفيق الإتهامات وإصدار الأحكام ولاتستند فى كل ذلك إلى صوت العقل أو الإنسانيه وكانت الوشاية تلعب دورا خطيرا فى المجتمع السوفيتى، وفى تقرير مصائر الناس ولذلك تجد أن الجميع خائف من الجميع أوبعضهم خائف بعضا.

والغرض من سرد هذه الواقعة هذه أنه لايوجد أى أمان فى ظل الحكم الشمولى. وقد ذكرت سابقا أن الإتفاقية الثقافية بين مصر والإتحاد السوفيتى لم تنص على إلزام الطلبة المصريين بدراسة تاريخ الإتحاد السوفيتى، الفلسفه المادية، والإقتصاد السياسى والشيوعيه العلميه. وقد أقلق الروس وقض مضاجعهم معارضة المصريون الشديدة لدراسة هذه المواد دونا عن جميع الطلبة الأجانب وإعتبروه تمردا يتنافى مع الضيافة ويسىء للصداقة المصرية السوفيتية.

ولاتخلو أى تجمعات من وجود الوصوليون وبعض أصحاب النفوس الضعيفة. فقد تم إغراء ثلاثة من الزملاء المصريين بأداء إمتحان فى مادة الإقتصاد السياسى المقررة على السنه الثالثة فى الكليات والمعاهد العليا.

وقد إعتبر الروس ذلك إنتصارا يعادل صعودهم إلى القمر ولايقل عن إنتصارهم على الألمان فى الحرب العالميه الثانية.

وإرتجت أرجاء المعهد بجميع كلياته وأساتذته وطلبته لنبأ تأدية بعض الطلبة المصريين إمتحان فى مادة الإقتصاد السياسى.

وحضر الإمتحان وكيل المعهد وعميد الطلبة الأجانب وعميد كلية الميكانيكا حيث أن الإمتحانات هناك شفوية وتعتمد على المناقشة.

وعلى الجانب الآخر ثار باقى الطلبة المصريون وإعتبروا أن ماحدث يعتبر غدرا وخيانة من زملائهم.

وجاءنى الزملاء وقد قرروا أن يؤدبوا هؤلاء الذين غدروا بهم. فنصحتهم بالهدوء والتروى والإهتمام بدراستهم. وأن العمل الوحيد العاقل هو أن يقاطعوا هؤلاء الزملاء ولا يتعاملون معهم لخروجهم على الإجماع المتفق عليه، وأوضحت لهم أن أى عمل متهور أخر سيعتبره الروس عملا سياسيا معاديا لهم وسوف يضربون بيد من حديد ردا على ذلك.

وقد حدث ماحذرت منه وكنت أخشاه، فقد حضر مصطفى عامر وزميله عصام معروف لاعب كره اليد بنادى الجزيره وفريق مصر الدولى، حفلــه عيـد ميلاد أحد الأصدقاء وشربوا بعضا من الفودكا وقرروا تأديب الزملاء الخارجين على الإجماع، وحدثت مشادة كلامية حاميه تطورت إلى التشابك بالأيدى.

وقد قمنا بفض الإشتباك فورا ولم تحدث أى إصابات للزملاء، وحاولنا تكتم الخبر، ولكن كأنما وقعت الواقعة ففوجئنا بوكيل المعهد اليهودى يأتى إلينا بالبيجاما فى منتصف الليل ومعه سكرتير الحزب وسكرتيره منظمة الشباب وحاولنا إفهامهم أن هذه خناقة عادية ولكنهم أصروا أن هذا عمل عدائى ضد الإتحاد السوفيتى وأحالوا الزملاء إلى المستشفى ولفقوا لهم تقرير طبى تضمن وجود سجحات وتهتك فى الكبد ونزيف داخلى وماشابه ذلك. ثم أبلغوا وزارة التعليم العالى والسفارة المصرية والمستشار الثقافى المصرى الدكتور صبحى عبد الحكيم.

وبعد حوالى أسبوع بدأت المفاوضات والمناورات وجاءتنى سكرتيره منظمة الشباب تزف إلى البشرى أن هناك أمل فى التراجع عن طرد مصطفى وعصام إذا وافق باقى المصريين على دراسة هذه المواد. وفى تلك الفترة زارنا مستشارنا الثقافى الدكتور صبحى عبدالحكيم لتفقد أحوالنا وحل بعض مشاكلنا.

فشرحنا له الظروف التى نمر بها وطلبنا منه خطاب يفيد عدم إلزامنا بدراسة هذه المواد. فأفادنا أن مصر فى وضع حرج ومحتاجه إلى الدعم العسكرى والسياسى من السوفييت وأنه لايمكن أن يعطينا مثل هذا الخطاب. وأنه شخصيا لايمانع فى دراستنا لهذه المواد. فإجتمعنا وتناقشنا وتجادلنا ثم أجمعنا على مضض بموافقتنا على دراسه هذه المواد حتى لايتم طرد مصطفى وعصام.

وبالرغم من ذلك فقد تم طردهم ولم يرجعوا لروسيا إلا بعد عامين، أرسلوا خلالهما خطابات وإعتذارات إلى وزاره التعليم العالى وإداره المعهد يعلنون فيها أنهم تابوا وأنابوا وأصلحوا وندموا على مافعلوا وسوف يدرسون هذه المواد التى ضربوا زملائهم من أجلها.

* * *

عيد العمال فى أول مايو ١٩٦٨

وما أدراك ماعيد العمال فى روسيا. طبعا إنه يوم أجازة ويوم عيد ويوم مسيرات وإستعراضات ويوم رقص وفرح وموسيقى وهتافات. وتبدأ مراسم الإحتفال مبكرا حيث الجو يكون صحوا فى هذا الوقت من العام وتكون الثلوج قد ذابت والسحب قد إنقشعت والشمس قد ظهرت بعد غياب طويل وقد أقبل الدفء ينعش الحياه فى الناس وفى الورود والزهور والأشجار بعد شهور سته لايرى فيها الأنسان شمسا ولا نباتا ولا شجرا وكل مايراه الإنسان مطرا وثلجا وبردا وزمهريرا ورجالا ونساءا وأطفالا لايظهر منهم شىء إلا العينين وفتحتى الأنف. أما مابقى من الأجساد فمغطى بالمعاطف الثقيلة ذات الفراء والطواقى التى تحجب الرأس والأذنين والوجه والأحذية ذات الرقبة الطويلة المبطنة بالخشب والفراء.

إذن فقد أقبل العيد وأقبل الربيع بعد لهفة وطول إنتظار والروس شعب يعشق الأعياد لأنهم يعشقون الموسيقى ويعشقون الرقص وهم كذلك يعشقون الربيع حيث الورود والزهور والخضرة والأشجار. وتعنى الوردة للفتاة الروسية شيئا كثيرا أغلى من أى هدايا وأى أموال. وتقديم وردة لفتاه روسية تقابل بإمتنان وسعادة لايعادلها كنوز الأرض. بشرط أن تكون هذه الوردة طبيعية لأن الروس لايحبون الورود الصناعية ولايضعونها فى بيوتهم أبدا.

فى هذا العيد الكبير تقام فى كل مدينه وكل قرية منصة ضخمة تجمع كبار رجال الحزب الشيوعى وكبار ضباط الجيش والبوليس وتمر أمام هذه المنصة طوابير العمال والطلبة والنساء والأطفال حاملين الأعلام هاتفين بحياة الإتحاد السوفيتى وحياه الحزب. وفى هذا اليوم لايسمح لأى أحد بالتخلف عن هذه المسيره حتى ولو كان أجنبيا ومن يتخلف عن هذه المسيره من الأجانب يعتبر ذلك موقفا عدائيا منه تجاه الأصدقاء السوفيت. والروس عموما شديدو الحساسية للمشاركة فى أعيادهم السياسية.

وكنا نحن الطلبه المصريين فى مدينه اسطراخان التى تقع على نهر الفولجا أشهر وأكبر أنهار روسيا والتى وقعت على ضفافه أكبر وأعظم وأبشع معركة حربية بين الألمان والسوفيت فى مدينه ستالينجراد والتى سميت فولجا جراد بعد ذلك ومن بشاعة هذه المعركة إشتعلت المياه فى نهر الفولجا مما صب فيه من حمم القنابل والقذائف والمتفجرات والبارود. وإنتصر السوفييت فى هذه الملحمةوهزم الألمان وإندحروا ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك.

كنا نحن المصريين نحمل أعلام مصر ونهتف بإسم مصر. وكنا فى هـذه الفـتره التى تلت هزيمه ١٩٦٧ شديدو الحساسية بوطننا ومصريتنا وأمام المنصة الرئيسية لقـادة الحزب والجيش أنشدنا نشيد الله أكبر ونشيد والله زمان ياسلاحى بحماس شديد نابع مـن قلوبنا لأننا نعلم نحن جميعا أنه لاكرامه ولاعزه لنا إلا بدحر العدو الصهيونى عـن كـل شبر من أرض مصر.

وقوبل حماسنا بتصفيق حماسى شديد من الشعب السوفيتي وقادة الحزب والجيـش تقديرا لوطنيتنا وتعاطفا مع قضيتنا.

بدأت المسيرات فى هذا اليوم فى الثامنه صباحا وإنتهت فى الثانيه بعد الظهر وقـد ذهب كل منا إلى حال سبيلة على أمل أن يلتقى فى المساء كل واحـد بمجموعتـه التـى يستريح لها من روس ومصريين لتكملة الإحتفال بالأكل والشرب والموسيقى والرقص .

والروس شعب كريم . موائدهم دائما عامرة بما لذ وطاب مـن لحـوم وكافيـار وأصناف الطعام الكثيره . والروس شعب طيب بشوش يحب القفشة والنكته ولايحملـون هما أبدا . فهم جميعا يعملون بنشاط ويعشقون عملهم ويبدعون فيه . ولايقلقـهم مسـتقبل الأبناء لأن الدولة تتكفل بتعليمهم وتعطيهم منحا مالية أثناء التعليم بشرط أن يكون النجـاح بتقدير جيد . ثم تقوم بتشغيلهم بعد التخرج مباشرة فى أعمال حقيقية تناسب مؤهلاتهم وأى فرد فى روسيا منتج حقيقى ولا توجد هناك بطالة مقنعة . ثم إن الروس لايميلـون إلـى كثرة الإنجاب . فالغالبيه العظمى يكتفون بولد واحد أو بنت واحده ومن النادر جدا أن تجد أسرة بها إثنين من الأبناء بالرغم من أن الحكومه تشجع الإنجاب ومن تنجب خمسة أبنـاء تمنح لقب بطلة الإتحاد السوفيتى . لكن الروسيات يكتفـون بـابن واحـد ولايتسـابقون للحصول على هذا اللقب .

والإنسان الروسى قنوع بطبيعته إذا سألته كيف الحال ؟ قال لك الحمد لله أنا أعمل وأتقاضى مرتبا وزوجتى تعمل وتتقاضى مرتبا وإبنى يدرس على نفقه الدولة ويتقـاضى مرتبا وأنا أجد السكن المناسب والمأكل والملبس فماذا ينقصنى بعد ذلك .

وأنا أعتقد أن سبب هذه القناعة هو عدم وجود الغنى الفاحش والفقر المدقع . ولقـد سهرنا هذه الليله فى بيت أحد الأصدقاء الروس نأكل ونسمع الموسيقى وكنت أنا شـخصيا أستمتع بالموسيقى والأغانى الروسية الجميلة المنبعثه من إسطوانه البيك آب وكنت أتفـرج على الرقص ولا أشارك فيه حيث أننى تربية صعيدى ومن العار أن يهز الصعيدى وسطه ويرقص الجيرك أو التانجو العربى أو رقصة الغجر . وكـانت الجميـلات الشـقراوات

المشاركات فى هذا الحفل لايعجبهن سلوكى هذا ويقلن لى إن عدم المشاركة فى الرقص هو سلوك غير حضارى لايليق بمثقف متعلم مثلى . وكنت أقول لهم قولوا ماشئتم عن سلوكى هذا ، غير حضارى أو متخلف ولكن لن يهز صعيدى وسطه ولو على أسنة الرماح . فيضحك الجميع ولكنهم يعتبرون أن هذا نقصا فى شخصيتى يجب على أن أقومه. وإنتهى ذلك الحفل البهيج بين أكل وشرب وموسيقى وفرجة على الرقص فى حوالى الساعه الواحدة بعد منتصف الليل . وخرجت لأذهب للمبيت فى سكنى بالمدينه الجامعيه وكان على مسافة نصف ساعة سيرا على الأقدام وكان الجو صحوا ومازالت الموسيقى تصدح والرجال والنساء والأطفال يرقصون فى الشوارع .

وقابلت اثناء سيرى أستاذ فلسفة يهودى ضخم الجثه يهوى النقاش والحوار والمجادلات مع الطلبه المصريين بالرغم من أننا نحن المصريون لم نكن ندرس الفلسفة دونا عن جميع الطلبه الروس والأجانب لأن الإتفاقية الثقافية بين مصر والإتحاد السوفيتى نصت على أن الطلبة المصريين غير ملزمين بدراسة تاريخ الإتحاد السوفيتى والفلسفة والإقتصاد السياسى والشيوعية العلمية حيث أن هذه المواد تدرس فى الكليات العمليه مثل الهندسة والطب وغيرها .

وقد قاومنا الضغط علينا لدراسة هذه المواد وقد إعتبر الروس هذا موقفا عدائيا لايصح من الأصدقاء المصريين . وجعلت إدارة المعهد تتحين الفرصة تلو الفرصة للضغط علينا لدراسة هذه المواد . وكان هذا الموضوع حيويا بالنسبة لهم للقضاء على ما إعتبروه تمردا من المصريين دون باقى الأجانب من بلغار ومجريين وبولنديين وسوريين ولبنانين وفلسطينين حتى الإيرانيين فى عهد الشاهنشاه كانوا يدرسون هذه المواد . وقد لاحت لهم الفرصة وسبق ذكر ذلك فى فصل آخر .

هنأنى أستاذ الفلسفة اليهودى بعيد العمال وهنأته كذلك . وشاركنى السير وفتح مجالا للحديث وكان من الواضح أنه منتشيا بفعل بعض النبيذ حيث أنه كان يعانى من أضطراب بالقلب نتيجة السمنه المفرطه ومن ثم فهو غير قادر على المشروبات القويه وخاصه الكونياك والفودكا .

وتناول فى حديثه أوضاع الإتحاد السوفيتى والحقبة الستالينية وتجاوزات ستالين ومساوىء عهده كاديكتاتور إنفرد بالسلطة وتخلص من الرفاق وكمم الأفواه وأذكر أننى قلت له بشىء من الدبلوماسية ربما كان لستالين عذرة فى فتره الحرب الطاحنة الضروس مع المانيا وأن الحرب تحتاج دائما إلى رجل قوى يقود البلاد إلى النصر . فأجاب أن

قيادته للبلاد حتى النصر على الألمان تحسب له أما تجاوزاته الأخرى فقد كـانت كثـيرة ورهيبة .

ثم تطرق الحديث إلى المشكله العربية الإسرائيليه وإحتلال إسـرائيل للأراضـى العربية وشبه جزيره سيناء المصرية وقد هاجم فـى حديثـه وهـو اليـهودى الحركـة الصهيونية والفكر الصهيونى وإحتلال أراضى الغير بالقوة .

وحاول أن يثبت لى أنه وهو يهودى لايعتنق الفكر الصهيونى وأنه يقف مع الحـق العربى ولكنه لايؤيد قيام حرب آخرى لأن للحروب مآسيها المدمرة للإقتصاد وللإنسـان وللحضارة وأنه يؤيد الحق العربى فى إسترداد الأرض عن طريق مباحثات سلام . وقلت له إن إسترداد الأرض التى إحتلتها إسرائيل بدون حرب يعتبر ضربا من المسـتحيل وأن الجيش المصرى قادر على الثأر لكرامته وإسترداد أرض مصر والمحافظه على ترابـها . وكنا قد وصلنا إلى بيت الطلبة وحاول أن يودعنى ويرجع ولكنى بشهامه الصعايده قلت له لايصح ذلك وأنت الأستاذ فلابد ان أوصلك أنا إلى بيتك وأصررت على الرجـوع معـه حتى باب بيته ثم إتفقنا على أن نفترق فى مكان لايبعد كثيرا عن بيت الطلبه ولاعن بيتـه وظل يتكلم أثناء السير محاولا إقناعى بوجهة نظره بعدم جـدوى الحـرب بيـن مصـر وإسرائيل وأنه يمكن إسترداد الأرض بمفاوضات سلام وأن هناك أحزاب فى إسرائيل مثل الحزب الشيوعى الإسرائيلى الذى يشارك فيه العرب واليهود وهو حزب يدعو إسـرائيل لرد الأراضى المحتله إلى أصحابها وينادى بالسلام ولكنى إختلفت معه بكل صراحه فـى كل ذلك نظرا لصلف إسرائيل وتعنتها وربما كان هو محايدا عند مناقشته لـهذه القضيـة ولكنى كمصرى كنت أعرف شيئا واحدا هو أن أرضي محتلة بعدو غادر نجس خبيث لـن يتركها إلا مكرها ومدحورا ومهزوما .

ولا أدرى لماذا كان إحساسى أن هذا الأستاذ كان متعاطفا مع إسـرائيل وأن ولاءه كان لإسرائيل وليس للإتحاد السوفيتى وأن مايقوله لى ليس يؤمن به فعلا وأنـه لايجـهر برأيه الحقيقى خوفا من السلطة السوفيتيه . أما زوجته اليهودية الجميلة أستاذة الرياضيـات فلم تكن قادرة على إخفاء تعاطفها مع إسرائيل وكان دائما يراودها حلـم الـهجرة إلـى إسرائيل وكانت جميع تصرفاتها تدل على أنها صهيونية من منبت شعرها إلـى أخمـص قدميها .

واليهود قوم خبثاء . يستغلون دائما جميع النظم لخدمه مصالحـهم ولمـا كـانوا يعلمون أنهم يعيشون فى الإتحاد السوفيتى فى دوله دستورها الإلحاد ولا تعترف بالإديـان فقد أشاعوا أن اليهودية قوميه وليست دينا . وتوجد خانه فى البطاقة الشخصية الخاصـة

بكل مواطن سوفيتى هذه الخانه خاصة بالقوميه . ويكتب اليهودى أمام هذه الخانه كلمه يهودى وبهذه الوسيله الذكيه والخبيثة خافظ اليهود على وضعهم وتراثهم ولم يذوبوا فى المجتمع السوفيتى على أساس أن اليهودية قومية وليست دينا لأنهم يعلمون أن روسيا تحارب الآديان .

واليهود مكروهون من الروس ويصفهم الروس بأنهم قوم خبثاء وبخلاء وغير مخلصين لأى وطن يعيشون فيه ويتركز إخلاصهم لأنفسهم وولائهم لإسرائيل وأنهم لايعملون بأيديهم ولكن يجمعهم لوبى واحد يتيح لهم التعليم العالى والمناصب القيادية والعلميه التى تمكنهم من القوة والسيطره . ويحكى الروس دائما نكتا لإذعه وساخرة عن اليهود وبعض هذه النكات قبيحا للغاية ويتخذون من إسم سارة وإبراهام نموذجا للزوج والزوجه اليهود . وهذه نكته غير قبيحة يرويها الروس عن سارة وإبراهام : دخل الزوج إبراهام سعيدا فرحا وقال لإمرأته إفرحى وهللى ياسارة قالت له سارة لماذا أفرح وأهلل ياإبراهام ؟وقال إبراهام لقد وفرت اليوم ثلاثة قروش قالت ساره وكيف ذلك ياإبراهام قال إبراهام لقد جريت وراء الترام حتى مكان عملى ياسارة . قالت سارة جاتك نيله ياإبراهام كان يمكنك توفير ثلاثه جنيهات يا إبراهام . قال وكيف ذلك ياسارة قالت أن تجرى وراء تاكسى حتى مكان عملك ياخايب .

وبما أن الحديث قد تطرق إلى اليهود فى الإتحاد السوفيتى فإننى أرجع بذاكرتى إلى إستاذتى ومدرستى تلك الشابة الصغيرة ذات الأربع والعشرين عاما الجميلة بدون أصباغ الأنيقة بدون تبرج ولاخلاعة حديثها السحر وصوتها نغم قوية ورقيقة حازمه وعطوفة جادة فى غير تعال عاشقة للموسيقى والأدب والشعر عفوفة النفس شجاعة ومهذبه أدين لها بتعليمى اللغة الروسية والأخذ بيدى على جادة الطريق . تبتسم وربما تضحك من قلبها على موقف طريف لكنها دائما إنسانة ودائما محترمة لم ترى عينى لها مثيلا فى أخلاقياتها ورجاحة عقلها .

لكل ذلك نالت إحترام الجميع وكانت مجموعتنا تتكون من سبعة طلاب سته مصريين والسابع فلسطينى إسمه صالح من الخليل وكان صالح كريما وجادا ويعشق مصر والمصريين متفتح الفكر ومثقف مؤمن تماما بقضيته الفلسطينيه يدافع عنها دائما بحماس شديد ويقرع الحجه بالحجه ومع كل هذه الميزات فقد كان صالح عصبى المزاج إلى حد ما . لايصمد طويلا امام المضايقات ومن السهل أن يستثار . وكان الطلبة المصريين يقولون أن أستاذتنا هذه يهودية . هل هذه إشاعة ؟ هل هذه حقيقة ؟ على كل الأحوال لم يحدث منها أى موقف عدائى لأى أحد . خاصة صالح فقد كانت تشجعه دائما

وتقف بجانبه وأذكر أن صالح ضرب إحدى العاملات الروسيات فى مطعم الطلبة بطبق مملوء بالخضار الساخن وهنا قامت قيامة إدارة الكلية التحضيرية التى ندرس فيها اللغه الروسية لأن مسألة ضرب الإنسان مسأله مستبعده تماما فى الإتحاد السوفيتى فكرامة الإنسان يحميها القانون ولايمكن أن يدور فى خلد أى إنسان أن يرفع يده ليتعدى على إنسان آخر وهذا التصرف الهمجى ليس له وجود فى الإتحاد السوفيتى .

المهم أن إداره الكلية إعتبرت أن مافعله صالح هو إهانة لشعب الإتحاد السوفيتى أجمع وقررت فصل صالح وطرده من الإتحاد السوفيتى . وهنا إنبرت إستاذتنا مدافعه عن صالح بإستماته شديده . ذاكره لإدارة الكليه جميع المبررات والظروف التى جعلت صالح عصبيا وأنه لايقصد إهانة الشعب السوفيتى ولكن تصرفه هذا كان وليد إنفلات لحظى فى أعصابه وإستطاعت بحماسها الشديد إقناع الإدارة بتخفيف العقاب إلى إنذار نهائى . كل ذلك يدل على أن إستاذتنا لاتضمر أى عداء لأحد منا .

ولكن وأه من كلمه ولكن كما يقولون فقد حدث أثناء قراءتنا لأحد الموضوعات باللغة الروسية مع إستاذتنا هذه أن قالت إنه عند القاء الزعيم السوفيتى لينين لإحدى خطبة أن أطلقت عليه إحدى السيدات المعارضات لسياسته رصاصة من مسدس كانت تحمله وقد أصابته الرصاصه ولكنه لم يمت . وهنا صرخ صالح وقال بصوت عالى إن هذه السيدة يهودية قذرة مثل جميع يهود العالم القذرين . وهنا وهنا فقط تغير وجه أستاذتنا وإستشاطت غضبا وقالت لا لا ياصالح ليس كل يهود العالم قذرين كما تقول . ثم تمالكت نفسها وهدأت وأكملت معنا الدرس والقراءة بطريقة عادية .

هل حقا كانت أستاذتنا يهودية وإستشاطت غضبا عندما وصف صالح جميع اليهود فى العالم بأنهم قذرين أم لم تكن يهودية والذى أغضبها أن يعمم سلوك الفرد على الجنس كله .

وعلى العموم لن أغير رآيى فى إستاذتى إن كانت يهودية أو غير ذلك . ولكنى سأحزن جدا وأصاب بإكتئاب شديد إن كانت إستاذتى يهوديه وهاجرت إلى إسرائيل . هل يمكن لهذه الإنسانه الرقيقة أن تساهم فى إغتصاب أرض الضفة وقطاع غزة . أتمنى من الله أن لايكون ذلك قد حدث . أيمكن لهذه الإنسانة أن تقطن مستوطنة فى الخليل مدينه تلميذها صالح وتحمل سلاحا بحجة الدفاع عن النفس ضد هجمات العرب . هل يمكن أن تكون قد إغتصبت بيت صالح وطردت أهله وسكنت فيه هل يمكن أن تقتل صالح الذى دافعت عنه قبل ذلك هل يمكن أن يقتل صالح إستاذته فى إحدى الهجمات .

إحساسى يقول إن ذلك لن يحدث حتى ولو كانت إستاذتنا يهودية وإحساسى يقـول إنها لن تهاجر إلى إسرائيل حتى ولو كانت يهودية . لقد كانت تحترم ديننـا وأخلاقياتنـا وعقائدنا وكانت تعلم أن ديننا يحرم أكل لحم الخنزير ومعاقرة الخمر وكانت تحترم كـل ذلك وتعجب به .

ذهبنا إليها مرة فى بيتها بمدينة كييف لنودعها قبل أن نرحل إلى مدينة آسطراخان لدراسة الهندسة لمده خمسة سنوات ولم تكن متزوجة آن ذاك ، وكانت تعيش مع والدهـا وأختها طالبة الجامعة وبعد أن قدمت لنا أكواب الشاى قالت بطريقتها اللبقة الذكية الجادة ، لولا أنى أعرف أنكم مسلمون وأن المسلمين لايشربون الخمر لكنت قدمت إليكم نبيذا خفيفا صنعه والدى لنفسه . فشكرناها على إحترامها للدين الإسلامى وتعاليمه .

وبالرغم من مجاهرتها بأنها لاتعتنق أى دين إلا أنها كانت دائما تقول إنها تؤمـن من كل قلبها بوجود خالق لهذا الكون وأنه بدون هذا الإيمان يصبح الإنسان هشا ضعيفـا لاقيمه له . ولم تكن لغتنا الروسية تساعدنا على إجراء حوار عميق فى الدين فـى هـذا الوقت . ولكن إستاذتنا الإنسانه لم تهاجم الأديان وتسخر من المتدينين فى أى يـوم مـن الأيام كما كان يفعل بعض السفهاء من الروس .

* * *

الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات في موسكو لأول مره

فى أوائل يناير ١٩٧٠ وصلتنا رسالة من إتحاد الطلبة المصريين فـى موسـكو ترجو من مجلس إتحاد الطلاب المصريين بمدينة آسطراخان الحضـور إلـى موسـكو للمساهمة فى أعمال المؤتمر السنوى لإتحاد الطلبة المصرييـن . وبعـد أن أبلغنـا إداره المعهد بذلك حصلنا من قسم البوليس على تأشيرات السفر إلـى موسـكو بعـد المـرور بالإجراءات الروتينيه البطيئة . ولم نجد أماكن على أى طائرة فسافرنا بالقطار ووصلنـا موسكو الساعة السادسة صباحا بعد قضاء ليلتين بالقطار وكان البرد قارسا والسماء تمطر ثلجا ولما ذهبنا إلى المكتب الثقافى المصرى وهو مكان إنعقاد المؤتمر وجدنـا المكتـب

مغلق الأبواب وبعد أن طرقنا الأبواب بعنف فتحت لنا الباب الرئيسى عاملة روسيه بـدأ على وجهها وسلوكها أنها كانت نائمة بعد سهر طويل وأحسست أنها تقول لنفسها يا فتاح يا عليم أى داهيه حدفتكم علينا فى هذا الوقت . فلما أنبأناها بسبب وجودنا أخبرتنا بصوت ساخر ووجه متجهم غاضب أن المؤتمر قد أنهى أعماله بالأمس وأن اليوم هو أجازه عيد الأضحى ولن يتواجد أحد فى هذا المبنى لمدة أربعة أيام ثم صفعت الباب فى وجوهنا بكل شده ودخلت لإستكمال نومها .

وقد أسقط فى أيدينا ماذا نفعل نحن الخمسة فى هذا البرد القارس والسماء التى تمطر ثلجا . وبالرغم من أننى كنت أرتدى معطفا ثقيلا ولا يظهر من جسمى إلا العينين وفتحتى الأنف . إلا أننى أحسست بألم شديد فى كتفى وكأنما هناك خنجر مغروز وراء عنقى. وقلت للزملاء أنه لابد لنا من الرجوع فورا إلى إسطراخان فخفف الزملاء من قلقى وقالوا لابد أن نستريح يومين فى موسكو.

ولكن كيف والفنادق فى موسكو لاتقبل من الأجانب إلا الدفع بالدولار ومن أين لنا بهذه الدولارات . وبالطريقة الإرتجاليه لحل المشاكل قررنا الذهاب إلى وزارة التعليم العالى وفى الإدارة الخاصة بالطلبة الأجانب دخلنا مكتب أحد كبار الموظفين الروس . وما أن علم بما نحن فيه حتى ثار وزمجر وكال لنا سيلا من الشتائم المهذبة والقى باللوم على مجلس إتحاد الطلبة المصريين بموسكو الذى خالف المتفق عليه بأن يكون إنعقاد المؤتمر فى أجازة نصف السنه فقط وليس أثناء الدراسة . وأصر أن نرجع إلى إسطراخان فورا وأنه لايوجد عنده حل لمشكله إقامتنا فى موسكو . وكان معنا زميل خفيف الظل له قدره عجيبة على إشاعة البهجة والسرور فى أى مكان يتواجد فيه وقد إستدرج صديقنا هذا بظرفه ولطفه الموظف الكبير إلى الكلام وحكى له أكثر من نكته مصرية حتى ضحك وقهقه وبدأ يشتمنا شتائم غير مهذبة فعرفنا أن الفرج قد جاء لأنه من خلال معايشتنا اليوميه للروس عرفنا أن الشتائم غير المهذبة تعنى التبسط ورفع الكلفه . وقال لنا هذا الموظف الكبير إذهبوا إلى المدينة الجامعية الخاصة بجامعة موسكو وسوف يدبر لكم رئيس إتحاد الطلبة المصريين الإقامة هناك . قلنا له وإن لم نجده قال إتصلوا بى. فخرجنا من مكتبه إلى الشارع وقد إعيانا البرد والتعب والجوع . وفى الشارع إتفقنا على أنه لابد من إستخدام الفهلوة المصرية حيث أن المدينة الجامعيه بعيده جدا ومن المحتمل أن لانجد رئيس إتحاد الطلبه هناك فيضيع اليوم هباءا وقررنا أن نفطر فى مطعم قريب من وزارة التعليم العالى وبعد أن نشرب الشاى وينبعث الدفء فى أجسامنا نتصل

بالتليفون بهذا الموظف الكبير نخبره أننا لم نجد رئيس الإتحاد . وقد نفذنا هـذه الخطـة فأعطانا هذا الموظف خطاب للإقامه فى أحد بيوت الطلبة لمدة أسبوع .

بعد أن إسترحنا قليلا فى هذا البيت خرجنا لمشاهده موسكو وشراء مايلزمنا مـن طعام وأثناء خروجنا وجدنا إعلانات كثيرة معلقة فى طرقات البيت باللغة العربية تقول إن الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات سيعقد مؤتمرا فى الساعة الثامنه مساءا بمبنـى المركـز الثقافى المصرى . ففرحنا فرحا كبيرا لذلك وقررنا الذهاب إلى هناك . ولما ذهبنـا فـى الميعاد المحدد قال لنا الملحق الثقافىالمصرى إن الزعيم ياسر عرفات قد الغى حضوره ، وقد توافد الطلبة العرب من جميع أنحاء موسكو إلى المركز الثقافى المصرى ثـم فجـأه وبعد حوالى نصف ساعة تم الإعلان عن وصول الزعيم . وإتضـح أن حكايـة إلغـاء حضوره هى خطة آمنيه خوفا عليه من اليهود الروس . فخرجنا لإستقباله فى الشارع وقد عانقه وزيرنا المفوض عناقا طويلا وقال له سوف نرتب لك غدا لقـاءا مـع كوسـيجين رئيس الوزراء السوفيتى وكان يرافق الزعيم الدكتور نبيل شعث وتحـدث الزعيـم عـن أحداث الساعة وعلاقة منظمة التحرير الفلسطينيه بالحكومات العربيه وكان واضحا مـن حديثه أنه تعلم وتربى فى القاهره وأنه يكن للزعيم المصرى جمال عبد الناصر كل إحترام وقد أشاد بالجيش المصرى وبالقادة المصريين وخاصة بالمرحوم الفريق عبدالمنعم رياض ثم قدمت إليه أسئلة كثيره مكتوبه من العرب الحاضرين من مختلف الـدول والأحـزاب والإنتماءات .

وعندما جاء دور الإجابة عن السؤال الخاص بعلاقته بالحكومة الأردنيـه طلـب الزعيم من الحاضرين إيقاف أجهزه التسجيل ثم قال بالحرف الواحد إن علاقتـه بـالملك حسين كالذى يعيش فى بيت الضبع ومن يعيش فى بيت الضبع لايستطيع أن ينام مغمـض العينين ولابد أن تكون إحدى عينيه دائما مفتوحه وطبعا فهمنا مـايقصده الزعيـم بـهذه العبارة . ثم جاءه سؤال عن رآيه فى حرب إسلاميه مقدسه فأجاب بسخرية وتـهكم والله مأأنا يا أخى شيخ الإسلام حتى أستطيع الإجابه ، فضحكنا جميعًا . ثم جاء سـؤال عـن حكاية النصف مجنزرة التى تذيع عن تدميرها المنظمات الفلسطينيه فقال : إنه عندما بدأت الصحف العربيه تتهكم على بلاغات تدمير النصف مجنزرة ذهبت إلى الفريق عبدالمنعـم رياض فقال لى عليك بالنصف مجنزرة فقلت له كيف ؟ قال إن طول حـدود الأردن مـع إسرائيل تصل إلى أكثر من ستمائه كيلو متر وإن تدمير الفدائيين لأى معدات إسـرائيلية حتى ولو كانت نصف مجنزرة سوف يصيب إسرائيل بالإرتباك على طول هذه الجبهة .

ثم تطرق الحديث بعد ذلك إلى التكلفة الإقتصادية للحرب فقال على سبيل المثال إن الساعة الواحدة لتشغيل المدفع المضاد للطائرات تتكلف ثلاثة آلاف دولار وهـي مدافع لازمه لحماية مخيمات الفلسطينين فى جنوب لبنان فمن أين لهم بكل هذه الأموال . وقال : لونظرنا إلى فيتنام نجد أنه يصلها يوميا قطار محمل بالذخيره والمعـدات الحربيـه مـن الصين . فما هى المساعدات التى تقدمها الحكومات العربية لمنظمة التحرير الفلسطينيه .

جمعنا حفل عيد ميلاد أحد الزملاء المصريين مع بعـض الزميـلات الروسـيات وأثناء سماع الموسيقى سألتنى إحداهن كيف حالك ؟ فأجبتها بجفاء شديد لقد جئـت إلـى بلادكم وأنا مصرى وأنا الآن مصرى وسوف أغادر بلادكم وأنا مصرى وهنا إنبرت لـى إحدى السنيورات الجميلات قائلة إن ماتقول هو عين الخطأ قلت لها كيـف يكـون ذلـك يامليحة قالت بحماس شديد وكأنها تخطب فى إجتماع لمنظمة الشباب إن التركـيز علـى القوميه يعوق بناء السلام العالمى ولن يسود السلام فى العالم إلا إذا ذابت القوميات وزالت الحدود المصطنعة مابين الدول قلت لها ياحلوة إن الإنسان بدون وطن ينتمى إليـه فـهو إنسان ضائع لاقيمة له والواجب يحتم علينا أن نحمى حدود أوطاننا وتراب أرضنا .

ولما كنت أعلم أن هذه السنيورة من مدينة كييف عاصمة جمهوريه أوكرانيا وأعلم كذلك أن أهل أوكرانيا متعصبون وعنصريون . قلت لها سوف أسألك سؤلا يأيها القمـر قالت إسأل ماشئت : قلت لها إذا تقدم لك شابان من مواطنى الإتحاد السوفيتى متشـابهان فى كل شىء يريدان الزواج منك أحدهما روسى والآخر كازاخستانى فمن تختارين ؟ قالت بتلقائية أنا لا أتزوج أبو عنين مسحوبه وتقصد أنها لايمكن أن تتزوج الكازاخستانى الـذى تشبه عينيه عيون اليابانيين والصينيين وقد أثبت لها بهذا أنها برغم ماتزعمه وتتحمس لـه فهى فى داخلها عنصرية ومتعصبة لجنسها وقوميتها وأن ماترفعه من شعارات ترددهـا كالببغاء شىء والحقيقة والواقع شىء آخر .

فى يناير سنه ١٩٦٨ وصل إلى مدينه إسطراخان الدكتور رأفت القوصى إسـتاذ تشكيل المعادن بهندسة القاهره الأن ومعه الدكتور الهامى إسـتاذ التحكـم الآلـى بكليـة الهندسة. وكانوا آنذاك يعدون رساله الدكتوراه بجامعة موسكو جاءوا لتكوين إتحاد للطلاب المصريين الدارسين فى جميع أنحاء الإتحاد السوفيتى بدلا من الإتحاد القديم الـذى كـان يضم الدارسين بمدينتىموسكو ولينيجراد فقط وقـد رشـحنى الزمـلاء لرئاسـة إتحـاد إسطراخان فى إنتخابات حرة نظيفة وكانت مدينة إسطراخان تضم حوالـى مائـة دارس مصرى يشرف عليهم مكتب السد العالى بموسكو ومع إحترمى الكبير للمرحوم المهندس / عبد العظيم أبو العطا مدير مكتب السد العالى بموسكو آنذاك ووزير الرى بعد ذلك . فقـد

كان موظفوا مكتب السد العالى يستخدمون أساليب قراقوش فى التعامل مع مبعوثى مؤسسة الثروة المائية وإتخذوا لهم بطانة تحصى على الدارسين أنفاسهم وحركاتهم وسكناتهم مما جعل الدارسين يعيشون فى رعب .

وقد تفاءل الجميع خيرا بتكوين الإتحاد الجديد . وقمنا بتكوين مجموعه عمل للسفر إلى موسكو وحضور المؤتمر السنوى لإتحاد الطلاب المصريين والمطالبه بأن يكون الإشراف على مبعوثى مؤسسة الثروة المائيه للمكتب الثقافى وليس لمكتب السد العالى وقد تمت الإستجابة لطلبنا ولكن مع تعليق ظريف للدكتور / صبحى عبدالحكيم المستشار الثقافى بموسكو آنذاك ورئيس مجلس الشورى بعد ذلك فقد قال أنتم مثل المستجير من الرمضاء بالنار .

وكان المؤتمر ناجحا بجميع المقاييس وكانت مجموعات موسكو ولينينجراد هى أنشط المجموعات ولقد كان المؤتمر ناجحا بجميع المقاييس وارسلت قرارات المؤتمر وتوصياته إلى الرئيس جمال عبدالناصر ومنها :

١ - السماح بتكوين الأحزاب وعدم إقتصار العمل السياسى على الإتحاد الإشتراكى .

٢ - إبعاد الشخصيات المسئوله عن النكسة والتى مازالت تشارك فى الحكم .

٣ - الإستياء الشديد من المقالات التى ينشرها الأستاذ / هيكل فى الأهرام والتى تدعو إلى اليأس وإستحالة عبور قناه السويس مما يؤثر على عزيمة ضباط الجيش ويثبط همتهم .

ومن الظريف أن أحد الأسماء التى ذكرت أثناء النقاش وكان المطلوب إستبعادها تم التخلص منه فيما يدعى بثورة التصحيح وكان يشغل منصب وزير إستصلاح الأراضى بجانب منصبه الكبير فى الإتحاد الإشتراكى أما الآخر فقد كان أكثر ذكاء عمل وزيرا مع الرئيس عبد الناصر طوال فتره حكمة وكان من أقرب المقربين للرئيس السادات وشغل منصب رئيس مجلس الشعب فى حكمه وقد أصيب فى حادث المنصة وقد إعتزل العمل السياسى بعد ذلك بهدوء وذكاء شديد ولم تهاجمه أى صحيفة أو أى كاتب إلى الآن .

وفى الحفل الختامى للمؤتمر حضر وزيرنا المفوض لأن السفير الدكتور / مراد غالب لم يكن موجودا فى موسكو آنذاك كما حضر الدكتور / صبحى عبد الحكيم المستشار الثقافى والمهندس المرحوم / عبد العظيم أبو العطا مدير مكتب السد العالى وآخرين .

وعندما تليت قرارات المؤتمر قابلها الوزير المفوض بإمتعاض شديد ثم ألقى كلمه قال فيها : لو إنكم جمعتم من كل واحد منكم مبلغ عشرة روبلات وإشتريتم عربه جيب للجيش لكان ذلك أنفع لمصر من كل هذه القرارات .

ولكم أصبنا جميعا بالإستياء والدهشة من طريقة تفكير هذا المسئول الكبير .

كما شارك في المؤتمر الآنسات والسيدات اللاتي يجهزن للحصول على الدكتوراة في موسكو ٠

ومن الشهيرات اللاتي شاركن في هذا المؤتمر الآنسه/ ماجده عز بطلة مصر في تنس الطاولة في هذا الوقت ٠ وهي الآن الدكتورة / ماجده عز عميدة معهد الباليه بالقاهرة ٠

***

ندوة عن المجر

أقام الزملاء المجريون ندوة عن جمهورية المجر وقد وجهوا الدعوة للدراسين المصريين كما وجهوا الدعوة كذلك للدارسين الأجانب والروس لحضور هذه الندوة . وكان الإخوة المصريون عازفون دائما عن حضور مثل هذه الندورات الثقافية . وكنت أجد في نفسي حرجا شديدا في عدم تواجد مصر في هذه الندوات ومن ثم فقد وجدت أن من واجبي أن أكون ممثلا عن مصر في حضور هذه الندوات . وكانت هذه الندوات تقام دائما في المساء بعد إنتهاء اليوم الدراسي .

وقد تكلم الزملاء المجريون عن بلدهم وحدودها الجغرافيه وعن تاريخهم وحضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأفراحهم وأعيادهم ونظامهم السياسي . ثم تطرق الحديث إلى مايجب عليهم أن يقولوه من حبهم للإتحاد السوفيتي وإعجابهم الشديد بكل ماهو موجود فيه وإمتنانهم وشكرهم العميق للحكومة السوفيتية والحزب الشيوعي السوفيتي لكل المساعدات التي يقدمونها للشعب المجري والحكومه المجرية وإنهى المتحدث الأخير حديثه بهتاف عاشت الصداقة السوفيتيه المجرية وعاشت الصداقة بين شعوب العالم وعاش السلام العالمي .

ثم بعد ذلك وقف الزملاء المجريون إستعدادا للإجابة عن أى سؤال أو إستفسار يقدم من الحاضرين . فوقفت وقلت إن لدى سؤالين أتمنى الإجابة عليهما . وكنت أعلم مقدما أن إجابة الزملاء المجريون على أسئلتى لابد أن تكون إجابه يرضى عنها الروس . ولكنى قصدت بأسئلتى هذه أن يعرف الجميع أن الدارسين المصريين غير بعيدين عن السياسة الدولية ومشاكل العالم .

وكان السؤال الأول : مارأيكم فى أحداث المجر سنه ١٩٥٦ ؟

وكانت الإجابة : لقد قامت فى المجر ثورة مضادة تريد أن تسلب الشعب المجرى كل ما حققه من تقدم وإزدهار فى ظل الإشتراكية وقد تصدى الشعب المجرى والجيش المجرى بمساعدة الإتحاد السوفيتى وتم القضاء على هذه الثورة المضادة وسحق أعوان الإستعمار والرأسماليه والمحافظة على مكاسب الشعب التى تحققت فى ظل الإشتراكية .

وكان السؤال الثانى : مارأيكم فى مسألة توحيد ألمانيا ؟

وكانت الإجابة : نحن نوافق على توحيد المانيا بشرط أن يكون التوحيد تحت الحكم الإشتراكى لألمانيا الديمقراطية .

وكنت أعلم فى قرارة نفسى أن هذه الإجابه لإرضاء الروس فقط وأن رأى الزملاء المجريون الحقيقى يخالف ذلك تماما فطالما سمعتهم يتغنون بالحرية ويندددون بالمستبد والمستعبد الروسى .

ولكن ذلك كان طبعا فى جلسات لاتضم الروس . وبعد إنتهاء الندوة وأثناء الخروج مالت عميدة الطلبة الأجانب على أذنى قائله : إنك سألت أسئلة صعبة للغاية . فضحكت وقلت لها لابد من مساهمة مصر مساهمة إيجابية فى هذه الندوات .

***

وضاع القمر لأجل بالطو المطر

كانت قمرا يمشى على الأرض ذات شعر ذهبى ناعم طويل يتدلى إلى مابعد خصرها لاتتجاوز العشرين ربيعا كان وجهها ينير القاعة التى رأيتها فيها لأول مرة . فهى طالبه بكليه المزارع السمكية وعضو بارز بمنظمة الشباب والمسئوله عن نادى الطلبة وكان ناديا إجتماعيا وثقافيا ورياضيا للطلبة الأجانب والروس .

وعندما كان مكتب السد العالى بموسكو يشرف على مبعوثى مؤسسة الثروة المائية إعتبر موظفو المكتب أن هذا النادى رجس من عمل الشيطان لايقربه المصريون .

وكانت هذه النظره متخلفه وخاطئة جعلت الدارسين المصريين فى وضع معزول عن المشاركة فى التعريف ببلدهم وحضارتهم وقضيتهم المصيرية وهى تحرير أرضهم من الإحتلال الصهيونى آنذاك .

وبالرغم مما كنا نعلمه علم اليقين من أن موظفى هذا المكتب يأتون بكل المحرمات والموبقات من التجارة فى العملة وخلافه . ولكنهم كانوا من النوع الذى يحلل الحرام لنفسه ويحرم المباح على غيره وخاصة أنه كان بإمكان هؤلاء فصل أى دارس وإعادته إلى مصر بعد تلفيق شتى التهم والأسباب .

وما إن زالت الغمة وأصبح الإشراف للمكتب الثقافى الذى يديره أساتذة تربويون أفاضل أكثر تفتحا ورقيا ، سمحوا لنا بالإنضمام إلى جميع الأنشطه الثقافيه والإجتماعية . ومن ثم فقد إنضممنا إلى نادى الطلبة وقوبل إنضمامنا بسعاده وفرح شديد من الروس والأجانب نظرا لما تمثله مصر فى وجدان العالم كله من حضاره وإحترام . وعندما دخلت قاعة النادى بهرنى هذا الوجه الذى يضىء القاعة بشبابه وجماله .

وكان هذا هو الإجتماع الأول الذى تمثل فيه مصر ، وبعد الترحيب بإنضمام مصر بدأ النقاش من أجل إختيار إسم للنادى وثارت المناقشات والمجادلات والإقتراحات . وكنت أجلس بين هذه الفاتنة ومدير المعهد وكان أرمنى الأصل أسمر الوجه مجعد الشعر يحمل للمصريين ودا كبيرا ومعزة خاصة .

ولما كان سير المناقشات والإقتراحات لايروق لى فقد قلت بتلقائية خاليه من أى دبلوماسيه : دعونا نتصرف بطريقة ديمقراطية ومادام هذا النادى خاص بالإجانب فالمفروض أن الطلبة الأجانب هم الذين يختارون إسم النادى . وقد أيدت كلامى هذه الجميلة ذات الوجه القمرى غير مدركة للعواقب فما كان من مدير المعهد أن زمجر فيها بغضب ماهذا الذى تقولينة يامتخلفة ياغبية ، فأصبح وجهها أحمر مثل الدم وصمتت صمت الأموات حتى نهاية الإجتماع وقرب نهاية الإجتماع كنا قد أطلقنا على هذا النادى إسم النادى الدولى . وكانت هذه السنيوره ممتازه فى دراستها والكل يتنبأ لها بمستقبل علمى وحزبى باهر .

وقد صادقت هذه المليحة زميلا مصريا أخلصت له أشد الإخلاص وحنت عليه وساعدته ورعته بحبها وحنينها . وكان زميلنا هذا رجلا طيب القلب لكن عيبه الوحيد

والكبير معاقرته الدائمه للخمر ومن ثم فقد كان مفلسا دائما . وفى إحدى نوبـات إفلاسـه الشديد أعطى هذه الصديقة بالطو مطر لبيعه . وكان قد إشترى هذا البالطو من اليونـان بمبلغ خمسة دولارات . والتجارة ممنوعة على الأفراد فى الإتحاد السوفيتى مـهما كـان السعر تافها وقليلا . ولسوء حظ هذه الصديقة فقد قبض عليها البوليـس الروسـى أثنـاء عرضها البالطو للبيع وشكل لها مجلس تأديب قرر فصلها من منظمة الشباب ومن الكليـة فضاع مستقبلها العلمى والحزبى من أجل بالطو مطر . ومن مفارقات القدر أن زميلنا هذا الذى أضاعت مستقبلها من أجله قد أكمل دراسته وعاد إلى مصر وتزوج من مصرية .

* * *

صديقى الروسى الطبيب

لم يكن مسموحا لنا بالإقامه بعيدا عن بيت الطلبه واتخاذ سكن مسـتقل خـاص . فممنوع تأجير مساكن للطلبه الأجانب وكل المساكن فى الإتحـاد السـوفيتى حكوميـه . وكانت هناك حالات نادرة يتم فيها تأجير غرفه من الباطن . ولكننـى منضبـط بطبعـى ولاأحاول مخالفه قوانين البلد التى أعيش فيها إحتراما لنفسى وبعيدا عن الشبهات . كما أن بيت الطلبه كان قريبا جدا من الكليه التى أدرس بها وهذه ميزة كبيرة خاصة فـى شـتاء روسيا وبردها القاتل .

ولم يكن لكل منا غرفه خاصه به ويسكن كل غرفه أربعه من الطلبه إثنـان مـن الروس وإثنان من الأجانب . وكان المصريون يفضلون الإقامه مع الروس عن الإقامه مع بعضهم فكنت أجد دائما فى الغرفه ثلاثه من الطلبه الروس وواحد مصرى . أما أنا فقـد أقمت لمده سته سنوات مع صديقى الشيخ هاشم فقد كان ممتازا فى دراسته طيبا ومتدينـا وشهما وعلى خلق كريم .

وكان معنا فى الحجرة زميل روسى واحد فقط . وكنا نعتبر ذلك مـن فضـل الله ونعمته علينا أن سمحت الإدارة لغرفتنا بثلاثة نزلاء فقط . وكان لابد من تواجـد طـالب روسى على الأقل فى كل غرفه بحجة أن ذلك يساعد على إتقان اللغه الروسية التى ندرس بها . وفى الحقيقة فإن الزملاء الروس كانوا يكتبون تقارير عن سـلوكيات وأخلاقيـات وإنتماءات كل واحد منا ويقدمونها إلى إداره المعهد

وكان هذا الصديق الروسى طيب القلب وكريم وهو إبن فلاح وكانت والدته ترسل له البيض ومربة الكريز والدواجن واللحوم المقددة فى طرود من المزرعة التى تعمل بها وكان يصر على أن نشاركه هذه الخيرات أى أنه كان إشتراكيا حقيقيا أما نحن فلم نكن نبخل عليه بأى شيء ونقابل كرمه بكرم ونرد جميله بأحسن منه . وكان ظريفا يجيد القفشة والنكته وكان عاديا فى دراسته لاهو من الممتازين ولاهو من المتخلفين وكان مثله الذى يردده دائما أن أهم شيء فى هذا العالم الأكل والراحة . وجدته فى إحدى المرات يحمل مجموعه كبيره من الكتب فقلت له باللغة العربية كالحمار يحمل أسفارا . فلما صر أن أشرح له ذلك باللغه الروسيه فقلت له هل تعرف مكتبه لينين الموجوده فى موسكو قال نعم أسمع عنها قلت له كم كتاب فى هذه المكتبه قال ملايين الكتب قلت له إذا وضعنا جميع هذه الكتب فوق ظهر حمار وظلت على ظهره لمدة عشر سنوات هل يفقه أو يفهم شيئا مما فيها ؟ قال لا وضحك ضحكا عاليا وأصبح مسرورا وسعيدا ببلاغة هذه الجمله وحفظها باللغة العربيه وظل كلما وجد طالبا مصريا يحمل كتبا قال له باللغه العربيه كالحمار يحمل أسفارا ثم يتبع ذلك بضحكه عاليه وكنت أسير معه فى إحدى المرات فوجد طالبه روسيه تحمل كتبا فأقترب منها وقال لها باللغه العربيه كالحمار يحمل أسفارا فضحكنا ضحكا عاليا فما كان منها إلا أن إنهالت عليه بوابل من الشتائم بأنه غير مهذب فلاح وجبان لأنه يشتمها بلغه لاتعرفها ولكنه لم يغضب وإستمر فى سيره ضاحكا مسرورا وكان صديقنا هذا يثق فينا تماما ويعلم أننا لن نشى به ، ومن ثم فقد كان يحكى لنا أقبح النكت التى تسخر من الزعماء والحكام السوفيت مثل لينين وزوجته وستالين وزوجته وبريجنيف وخروتشوف وزوجاتهم .

وكان على ذراعه وشم أخضر كبير الحجم كما هى عادة الفلاحين الروس . فلم أتمالك نفسى فى إحدى المرات وأشرت إلى الوشم وقلت له هل هذه هى البطاقه العائليه يأيها الرفيق؟ فأحمر وجهه خجلا ولم يرد وذهب إلى سريره والتف بالبطانيه محاولا النوم . فحزنت فى نفسى لأنى جرحت إحساس هذا الإنسان الطيب . وكان من فرط خجله من هذا الوشم يرتدى دائما قميصا بكم كامل حتى فى الصيف بحيث لايكون هذا القميص شفافا فيظهر الوشم . وقد ضايقنى هذا الصديق فى إحدى المرات فبيت النيه على إستفزازه فسألته ؟ أجبنى أيها الرفيق كم طبقة فى الإتحاد السوفيتى ؟ قال ألا تعرف ؟ قلت لا قال : طبقتان قلت ماهما ؟ قال : العمال والفلاحين . قلت فقط ؟ قال : فقط قلت وأين الأطباء والمهندسين وضباط الجيش والبوليس وأساتذه الجامعات وفلاسفه الحزب ؟ قال إن آباء هؤلاء من العمال والفلاحين وأخذ يفكر لدقائق ثم قال هذا مايقولوه لنا هذا هو

المكتوب فى الكتب . قلت له يجب أن تفكر وتستخدم مخك يا أيها الرفيق ولاتصدق كل مايقال لك كما تقول الحكمة الموجودة فى كتاب كليلة ودمنه ولكنه غضب منى وأعتبرنى أهنته وسخرت منه .

* * *

معجزة العامية المصرية

كان بمدينة أسطرخان مهندس طيران شاب تعلم اللغه العربيه عن طريق الراديو ، وكان يجيد القراءة والكتابه والتكلم باللغه العربيه الفصحى . وقد سعى هذا المهندس للإنضمام إلى المعهد الذى ندرس به كعضو فى هيئه التدريس . وقد رحبت به إدارة المعهد حيث أن بالمعهد عدد كبير من الطلبه العرب وسوف يزداد هذا العدد مستقبلا وبدأ هذا المهندس يقوم بتدريس الهندسة الوصفية والرسم الهندسى فى مختلف كليات المعهد .

وفى أحد الأيام زارنا رئيس مجلس إداره مؤسسة الثروة المائية وكبار معاونيه لتفقد أحوال الدارسين بالإتحاد السوفيتى . وعقد معنا إجتماعا دعى إليه مدير المعهد كنوع من المجاملة . وبالطبع فقد صحب مدير المعهد معه هذا المهندس الذى يجيد العربيه الفصحى حتى ينقل إليه كل مايدور فى الإجتماع وقد وقع صاحبنا المهندس فى حيص بيص كما يقول المثل العامى حيث أن المحاورات والمناقشات كانت كلها بالعاميه المصريه ولم يفهم صاحبنا شيئا من كل ماقيل . ولكنه كان ذو إرادة حديدية وجاءنى بعدها يرجونى بشدة أن أعلمه العاميه المصريه وأصطحب معه مسرحية بالعربيه الفصحى وبدأت أعلمه العاميه المصريه . وكان يستميت ليفوز بنصف ساعه من وقتى يوميا حتى يتعلم العاميه المصرية . وأعتقد أن هدفه كان أبعد كثيرا من التدريس فى معهد به طلبه عرب وأن هدفه الحقيقى الألتحاق بوظائف السلك الدبلوماسى وما يتبع ذلك من ميزات ماديه ووضع إجتماعى راقى . وبمناسبة زيارة وفد مؤسسة الثروة المائية لمدينه اسطراخان فقد أقام المعهد عرضا خاصا لأوبرا عايده ولكن الوفد المصرى لم يبدى أى حماس وأخذت الجميع سنة من النوم أثناء عرض الأوبرا الرائعه . وعندما دخل معهدنا مسابقة التمثيل بأوبرا عايده فاز بالمركز الأول على جميع معاهد الإتحاد السوفيتى . وقد

صعد مدير المعهد على خشبة المسرح وقبل قدم الطالبة التى قامت بدور عـايده تقديـرا وإحتراما للفن الرفيع الراقى .

***

زميلتى الظريفة الشقية

كانت إحدى خمسة بنات فى مجموعتى الدراسية بكلية الميكانيكا . وكانت أكـثرهن ظرفا ونشاطا وحيوية . متفائلة ومقبلة على الحياة . وحيدة والديها . أنيقة فى ملبسـها . ضاحكة مستبشرة لاتحمل هما أبدا . إسمها تانيا وكنت أدعوها تاتا تشبها بتاتا ذكى أجمـل جميلات مصر فى الستينات والذى أعجبنى فيها أنها لم تكن فلاحه فى لبسها أو سـلوكها مثل الغالبيه العظمى من أهل المنطقة التى كنا نعيش فيها . فهى دائما لبقة ومجاملة . تجيد النكته والقفشة والتعليق اللاذع . تستمع إلى الإذاعات الأجنبيه وتنـاقش معنـا ماسـمعته ولذلك لم تكن تردد كالببغاء إن روسيا هى الجنة وأن باقى العالم يعيش فى بؤس وشقاء لم تنذر نفسها للدراسه ولا للسياسة ولكنها تريد أن تعيش كمـا يعيـش الإنسـان السـوى . تجاورنا فى قاعات المحاضرات وفى المعامل لمدة خمسة سنوات . لم أحاول أن تتعـدى علاقتى بها أكثر من الزمالة ولذلك كانت تشعر بأمان شديد وهى معى . وقالت لـى فـى إحدى المرات . لوكنت روسيا لتزوجتك فورا . فما كان منى إلا أن إبتسمت إبتسامه بلهاء لاتعبر عن شىء

ومسأله الزواج من روسيه بالرغم من وجود روسيات ممتازات كانت شيئا مستبعدا تماما من تفكيرى . حيث أنه لابديل عن الزوجة المصرية حتى ينشأ الأبناء أسوياء ينتمون إلى وطنهم مصر بالرغم من إستبداد الزوجة المصريه وميلها إلى النكد الدائم .

جاءنى صديقى الشيخ هاشم وقال لى تانيا تقول لك إنها ستحتفل بليلة رأس السـنه معنا فأجبته بدون إكثراث أهلا وسهلا . وكنت قد تغيبت عن الدراسة فى هذا اليوم حتـى أهرب من الإرتباط مع أى مجموعة من الروس أو المصريين للإحتفال بـرأس السـنه . ومن ثم لم أعمل أى إستعداد لهذه الليله . علما بأن الروس يحتفلون بهذه الليلـه إحتفـالا كبيرا وتكون موائدهم عامرة ببذخ شديد بشتى أنواع الطعام والشراب ويرقصون ويغنـون

حتى الصباح . ومنذ بداية المساء طاف بى جميع الزملاء المصريين كل واحد منهم يطمع أن أنضم إلى مجموعته فى هذه الليله فرفضت جميع الدعوات وسقت لهم شتى الحجج والمبررات . وقررت أن أقضى الليل فى غرفتى أكتب خطابات إلى الأهل بمصر . وفى الثامنه مساءا وصلت تانيا ومعها أحد الزملاء الروس . فرحبت بها وقالت ماذا تفعل ؟ قلت أكتب خطابات للأهل . قالت هل هذا وقت الخطابات ؟ سأغيب عنك عشرة دقائق ثم أرجع فأجدك لابسا جاهزا لكى نحتفل سويا أم تريد أن تنكد علي فى هذه الليله المفترجه ؟ قلت لها حقا أنا وش نكد لكن أنكد عليك أنت بالذات فلا والف لا . وبعد أن لبست وتـأنقت وأصبحت جاهزا جاءت فصحبتها وزميلنا الروسى والشيخ هاشم إلى مجموعه من المصريين والروس كنت استريح لها .

وكان زميلنا الروسى هذا وإسمه نيكولاى وكنا نطلقه عليه كولا . وكان شابا ظريفا جادا متفوقا فى دراسته ووالداه من الفلاحين ومن ثم لم يكن يخضع تصرفاته لأصول الإتيكيت . وكان إسم عائلته الذى يلقب به منديليف على إسم عالم الكيمياء الروسى الشهير صاحب الجدول الدورى للعناصر منديليف . وكنت اتندر بهذا الإسم . وكنت أسأله يوميا يا أيها العالم الكبير منديليف أليس هناك من إختراعات جديدة ؟ فيجيب مبتسما ومنشرح الصدر سوف يكون وكان كثير من الزملاء يعتقدون أن علاقة تانيا بزميلنا كولا ستتوج بالزواج . وكنت أتوقع غير ذلك نظرا لسلوك كولا الريفى وتفكير تانيا الراقى . وقد حدث ماتوقعته فى هذه الليلة . فما أن رأى كولا الأكل الشهى والشروب اللذيذ حتى ترك تانيا وزاغت عيناه على ما بالمائده يهتبل أنواع الطعام إهتبالا بنهم شديد كأنه خارج من تأبيدة وله خمسة وعشرون عاما لم يذق طعاما . ورقصت تانيا فى هذه الليلة وسعدت وتركت كولا يسعد بطعامه وشرابه . ولكنها كانت قد دبرت أمرا وإتخذت قرارا . وجاءتنى بعدها قائلة لقد تركت كولا إلى حال سبيله . قلت لها لماذا وهو شاب ممتاز ؟ قالت فعلا إنه شابا ممتازا فى كل شيء ولكنه لايناسبنى .

كنت أجلس بجانب تانيا فى أحد فصول العملى الخاص ببناء السفن وكان مدرس العملى شابا نحيف الجسم أصفر الوجه كأنه خرج توا من المقابر وقد أطلقت عليه إسم العازر والعازر هذا كان ميتا ثم أحياه السيد المسيح فقام يمشى فى الطرقات زائغ العينين خائفا مرتعدا . وكان هذا المدرس على النقيض من الأستاذ المحاضر الذى كان شابا ذكيا بليغا وخبرته كبيره فى أعالى البحار والمحيطات يحكى لنا دائما عن حوادث غرق السفن وأخطاء التصميم التى أدت إلى هذه الكوارث وكانت محاضراته من أمتع المحاضرات .

وكان هذا اليوم قبل أحد الأعياد القوميه فى روسيا بيوم . وذهبت إلى العاذر هذا ومعى لوحة بها التصميم المطلوب فلم تعجبه وأصر على إعادتها من جديد فتركته وعلى وجهى علامات النكد فقالت تانيا كيف تسمح لهذا العاذر أن ينكد عليك فى أيام العيد كان المفروض ان تبعثه بالروسى . فدهشت ووجمت وأحمر وجهى خجلا لأن تعبير يبعث بالروسى كنايه عن شتيمة من اقبح الشتائم . وأنا أعلم أن تانيا مهذبة ولكن هكذا طبع الروس فى بعض الأحيان .

يوجد هناك تقليد فى المعاهد العليا الروسية يسمى الإحتفال بآخر ناقوس . وآخر ناقوس هذا هو الناقوس الأخير الذى يدق إيذانا بإنتهاء آخر محاضرة لطلبة السنة النهائية وغالبا مايكون ذلك فى الأسبوع الأول من يناير . بعدها يخصص النصف الثانى من العام لعمل مشاريع التخرج ويكون لكل طالب مشروع خاص به . وقد إحتفلنا نحن طلبه السنه النهائيه بكليه الميكانيكا إحتفالا كبيرا بالناقوس الأخير دعونا فيه عميد الكليه والأساتذة وأمهات وأباء الطلبه والطالبات . وجاءنى أحد الزملاء المصريين وقال لى أننا أعرف بجوار من سوف تجلس الليله . قلت له يافهيم ولم يكن إسمه فهيم ولكنى أطلقت عليه هذا الاسم لأنه بالرغم من أنه كان ممتازا فى دراسته ولكنه كان يحتاج إلىشرح مستفيض فى أمور الحياه العادية حتى يفهم ويقتنع . قلت له يافهيم أنا ليس لى القدرة على الإهتمام بزميلة طوال الحفل . وان كل ما يعجبنى فى تانيا أنها تتعامل بشهامه تساوى عشرة منك يافهيم . وكان زميلنا فهيم هذا يبنى دائما علاقاته على أساس المنفعه المادية ولم يكن شهما ومن ثم كان من العسير عليه أن يفهم ماهى الشهامه وذهبنا إلى الحفل ونحن جميعا سعداء بأنه لن يكون فى حياتنا محاضرات دراسيه بعد اليوم . وبدأ الحفل بالأكل والشرب والرقص وأثناء الإحتفال قال لى أحد الاساتذه الروس وكان من جرحى الحرب العالميه الثانيه وقال لى بصوت مسموع عالى غير مبال بالطلبه أو الأساتذة اليهود الموجودين فى الحفل متى يتم طرد اليهود من شبه جزيره سيناء ؟ قلت له قريبا بإذن الله . قال لى لقد كان الجندى الروسى يشرب مائة جرام من الفودكا ثم يهجم على الالمان غير مبال بالموت حتى تم النصر . قلت له سوف نحارب بإيماننا بالله ونضحى من أجل وطننا وأرضنا ولسنا فى إحتياج إلى الفودكا . قال هذا قول حسن والمهم أن يتم طرد اليهود . ثم إستأنفنا حفلنا . وقرب نهاية الحفل قالت لىتانيا لا تغادر الحفل قبل أن ترانى وأنا أرقص رقصة الغجر وعزفت موسيقى الغجر ورقصت تانيا رقصه الغجر الساخنه ووضعت فى فمها سكين وقد ظهرت فى هذه الرقصة كأنها غجرية بنت غجرية ونالت إعجاب الجميع.

ذهبت لمراجعة مشروعى مع أحد الأساتذة وعندما دخلت القاعة ولم أكن قد رأيت تانيا من مدة طويلة إذ بها تقوم والفرح ينط من عينيها وتأخذنى بالأحضان والقبلات غير مبالية بوجود الأستاذ أو الزملاء الروس . ثم خرجنا من القاعة حتى يأتى دورنا فى المراجعة وأخذنا نتكلم فى شتى الموضوعات وأثناء الحديث حضر أحد الزملاء المصريين فسلم علينا وكان هذا الزميل متزوج من روسية وله إبن منها إسمه خالد .

فقال لتانيا بدون مناسبه تعرفى ياتانيا إن إبنى خالد شبهك فردت عليه باسلوبها الساخر وبديهتها الحاضرة أبنك هيكون شبهى ليه ؟ ده تلاقيه شبه جاركم ولم أتمالك نفسى ساعتها من الضحك بصوت عال لظرف القفشة . وإبتعد أبو خالد وهو شبه مذهول .

***

مندوب الحزب الغبى

كنت قد حجزت تذكرتين للسينما أنا وصديقى الشيخ هاشم ممنيا النفس بالإستمتاع بفيلم روسى رومانسى / يريح أعصابى بعد امتحانات مرعبه وشاقة ، وبعد أن إرتديت ملابسى وتهيأت للخروج ، وإذ بطرقات على باب حجرتى ، وحينما فتحت وجدت أحد الزملاء البلغاريين ومعه أحد الروس . وكان زميلنا البلغارى هذا من أكبر المنافقين قولا وعملا . وقد عرفنى هذا المنافق بأن مرافقة مندوب من الحزب الشيوعى فى موسكو ، فرحبت به وأنا فى غاية الضيق ، لأنه لم يكن لدى إستعداد نفسى لإستقبال أحد ، وكنت فى أشد الإحتياج إلى الترفيه عن نفسى ، وقال لى مندوب الحزب هذا هل يمكننا أن نتحدث معك فى بعض الأمور ، قلت له تفضل ، وطلبت من مولانا الشيخ هاشم أن يهرب بجلده ويذهب للسينما . وبدأ مندوب الحزب بالسؤال التقليدى كيف الحال ؟ وكيف تعيشون هنا ؟ قلت له وأنا أحاول أن أخفى ضيقى بوجوده كما ترى . قالى لى : إن لى بعض الملاحظات على تصرفات الطلبه المصريين والتى تجعل إدارة المعهد وزملائكم الروس يتضايقون منكم . قلت له إذكر هذه الملاحظات . قال لى إن زميلكم فلان يصلى أمام الطلبة الروس الذين يعيشون معه فى نفس الحجرة . وهذا شىء فى منتهى الخطورة لأن الطلبة الروس قد يقلدونه فى حركاته ثم يفكرون فى هذه الصلوات وقد يقنعهم بسلوكه هذا وينتشر فكره بين الروس وهذا يمثل خطورة على شبابنا وبلدنا .

قلت له يأيها الرفيق إن دستور الإتحاد السوفيتى كفل حرية العقيدة وحرية الدين أم أن هذا حبر على ورق ؟ ثم إنكم تعرفون أن زميلنا هذا رجل مسلم متمسك بدينه وأن حرية العقيده والأديان فى مصر واقع فعلى ولا يوجد لآى أحد كائن من كان أن يتدخل من قريب أو بعيد فى معتقدات الناس ودينهم ، وأن زميلنا هذا رجل مهذب ومنضبط وجاد وممتاز فى دراسته ، وأننا سنقف جميعا بجانبه إذا حاولتم مضايقته أو طرده ، فقال لى إن العمليه لن تصل إلى الطرد ولكنى قلت لك مايضايقنا منه . فقلت فى نفسى سبحان الله إنسان مسلم يصلى يصيب الأتحاد السوفيتى أكبر ثانى دوله فى العالم بالهلع والخوف .

ثم إستطرد قائلا : أما الملحوظة الثانيه فإن جميع الطلبه والطالبات الروس والأجانب يقومون بنظافة ممرات ومطابخ وحمامات بيت الطلبة كل فى يوم محدد له ، ماعدا الطلبة المصريين فإنهم يستنكفون ويتكبرون ويرفضون القيام بهذا العمل . قلت له يا أيها الرفيق نحن هنا للدراسة فقط ولقد عشنا لمدة عام فى مدينة كييف ولم يكن هذا النظام موجودا ، ويقوم بالنظافة العاملات . وأنتم لديكم عاملات كثيرات ويمكنكم تعيين عامله ويقوم الطلبه المصريون بدفع الأجر الشهرى لها . فإستشاط هذا الرفيق الغبى غضبا وقال بتهكم هل تعتقد أن الإتحاد السوفيتى لايستطيع أن يدفع أجر عاملة . قلت له إنكم تخلقون مشكلة كبيرة من لاشيء . قال لى : إننى أنقل لك مدى الحساسية والمعاناة التى يعانى منها زملائكم الروس تجاه هذا الموضوع وإنكم تتصرفون كما لوكنتم السادة والروس خدم لكم . قلت له ولماذا كل هذه المعاناه نحن على إستعداد أن نترك بلدكم فورا ونرجع إلى مصر إذا كان ذلك سيريح الطلبه الروس من المعاناه . قال : أنا لم أقصد أن يتطور الموضوع إلى هذا الحد . ثم تكلم عن الصداقة المصرية السوفيتيه وعن المساعدات العسكرية لمصر وعن وجوب مساهمة الطلبة المصريين فى تدعيم روابط هذه الصداقة . وإنتهت المقابلة بفتور حاول خلالها الزميل البلغارى المنافق أن يشيع فيها الحرارة بثرثره لامعنى لها . وتعجبت فى نفسى كيف تختار لجنة الحزب فى مدينه عريقة مثل موسكو هذا الغبى ليتعامل مع الطلبة الأجانب .

***

مدرسة بحر البقر

فى أثناء حرب الإستنزاف قامت إسرائيل بعدوان خسيس ودنيء ووحشى على مدرسة أطفال بالشرقية تسمى مدرسة بحر البقر فدمرت القنابل المدرسة وقتلت مئات الأطفال . وأثار هذا العدوان اللإنسانى القذر مشاعر الإستياء عند شعوب جميع أنحاء العالم ، وخاصة الشعب السوفيتى فالناس بطبعهم فى روسيا يكرهون الحرب لما ذاقوه من مآسى وآلام خلال الحرب العالمية الثانية . وقد إستفز مشاعرهم بحق أن يضرب أطفال بالقنابل . وعقدت فى جميع الهيئات والمصانع والجامعات والمدارس مؤتمرات تندد بالعدوان الإسرائيلى . وقد تحدث مدير المعهد وأمين الحزب وسكرتيرة منظمة الشباب وهاجموا إسرائيل ووصفوها بالعنصرية والخسة والنذاله وأنها عميلة للإستعمار العالمى وأن ماتقوم به إسرائيل من إعتداءات على الدول العربية وإحتلال لأراضيها يعد إنتهاكا للقانون الدولى ويمثل خطرا كبيرا على السلام العالمى ويهدد التعايش السلمى .

وقد وعد المتحدثون جميعا بمساندة الشعب السوفيتى والحكومة السوفيتية لمصر والدول العربية والقضية الفلسطينية .

ثم جاء دورى فى الكلام وبعد أن شكرت الشعب السوفيتى على هذه الموازرة . قلت لهم إننى أعدكم من فوق هذه المنصة ومن فوق أرض الإتحاد السوفيتى أن الجيش المصرى سوف يسترد أرضه ويثأر لهؤلاء الأطفال ولكل الشهداء ولن يطول الإنتظار فقد طفح الكيل وجاوز الظالمون المدى . وكأنما لمست كلماتى شغاف قلوب الحاضرين فصفقوا طويلا لصمود الشعب المصرى ولعزيمة الجيش المصرى . وقد تكررت هذه المؤتمرات وهذه المساندة بعد العدوان على مصنع الكيماويات بأبى زعبل .

* * *

على سطح السفينة

يعتبر السفر عن طريق البحر من أمتع وأحب أنواع السفر إلى نفسى . حيث الإمتداد اللانهائى للبحر يشهد بعظمة الخالق سبحانه وتعالى . وحيث تصفو روح الإنسان

ويتفكر فىخلق السموات والأرض وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله ليهتدى بها الإنسان فى البر والبحر ويعلم بها عدد السنين والحساب ، فسبحانك ربى جلت قدرتك . وتبا لكل ملحد وكافر وجاحد لايؤمن بالواحد القهار .

كنا غالبا نسافر فى أوائل شهر يوليو . ولابد لنا من ركوب الطائرة من مدينة أسطراخان إلى ميناء أوديسا على البحر الأسود . وكنا دائما نضع فى إعتبارنا أن نصل إلى أوديسا قبل موعد قيام الباخرة بثلاثه أيام على ألأقل حتى نستطيع أن نجد أماكن على الباخرة المتجهة إلى الإسكندرية . ويتمتع الطلبة الدارسون بالإتحاد السوفيتى والمستخدمون للبواخر الروسية بنسبة تخفيض ٥٠ % ذهابا وإيابا . وهذا ماجعل ثمن التذكرة فى متناول أى طالب . وكان سعر التذكرة بالدرجة السياحية ذهابا وإيابا فى حدود خمسين جنيها مصريا بما فيها الوجبات الثلاثة الروسية الدسمة . وكنا نقيم الثلاثة أيام التى نقضيها فى أوديسا فى إستراحة إحدى المعاهد البحرية العسكرية التى يدرس بها زملاء مصريون . وفى سنه ١٩٦٨ كان الزحام على أشدة حيث يسافر فى هذا الموعد الطلبة المصريون والسودانيون واللبنانيون والسوريون وكذلك الخبراء الروس العاملون فى مصر وسوريا.

ولم نجد أماكن بالدرجة السياحية على الباخرة . ولم تكن قدرتنا المالية تتحمل أسعار تذاكر الدرجة الأولى أو الثانية .

ومعنى ذلك أن نقيم أسبوعا آخر فى أوديسا ولكن من أين لنا بالنقود ، زيادة على أننا لانريد أن يضيع أسبوع من أجازتنا فى أوديسا . ويلجأ الإنسان فى الأوقات العصيبة إلى الأشياء المعقوله واللامعقوله وحاولنا رشوة الفتاه الروسية الجميلة التى كانت تقوم بالحجز وذلك بوضع مبلغ عشره روبلات داخل كل جواز سفر . ولكنها ردت إلينا الجوازات بإبتسامه وأدب شديد مقسمة بشرفها أنه لاتوجد أماكن على الباخرة .

ولم يكن أمامنا إلا قبطان السفينة وشرحنا له الوضع وأننا لايمكن أن ننتظر أسبوع آخر لأنه ليس لدينا ما نقتات به . فوعدنا بشرفه أنه بعد أن يصعد جميع الركاب الحاجزين سوف يسمح لنا بالركوب ولكن علينا أن نتدبر أمرنا ونعيش على سطح السفينة لمده خمسة أيام حتى نصل إلى الإسكندرية . وفرحنا بهذا العرض فرحا شديدا وشكرناه على ذلك وقد نفذ وعده وصعدنا على سطح السفينه بعد صعود جميع الركاب . وتحركت الباخرة فى الثانيه عشر ليلا . وكنت أعتقد أن الإقامه على سطح السفينة متعة مابعدها متعة ولكن خاب ظنى فقد لفحنى البرد الزمهرير وأخذت السماء تمطر بغزارة . ونزلنا إلى الطرقات الموجودة بين الكبائن ، وفى هذه اللحظة شعرت كم هى نعمة من عند الله أن

يأوى الإنسان إلى بيت بسيط يشعر فيه بالدفء والأمان . وقررت فى نفسى من هذه اللحظة ألا أعمل فى البحر مهما كان العائد المادى من هذا العمل . ولما كان المصريون يميلون إلى المغامرة وخاصة فى هذه المرحله من العمر والتى تسمى أيام الطلبة . فقد جاءني أحد الزملاء وأخبرنى أنه يمكننا النوم خلسة فى كبائن الدرجة الأولى الخالية من الزبائن ، على أن نغادرها فى الخامسه صباحا ونصعد إلى السطح قبل أن يتم إكتشاف أمرنا وإرغامنا على دفع ثمن المبيت بالدولارات . ومن أين لنا بهذه الدولارات . وقد قمنا كاللصوص بالتسلل إلى كبائن الدرجة الأولى ولكن لم يغمض لى جفن ولم أستطع النوم طوال الليل خوفا من إفتضاح أمرى . وتسللت إلى سطح السفينة فى الرابعة صباحا . وقد أيقنت أن إحتمال البرد أحسن كثيرا من الشعور بالخوف .

وقد غادر بعض ركاب الدرجة السياحية السفينة فى ميناء كونستانتا فى رومانيا فأخذنا أماكنهم ولم يعترض القبطان أو مساعدوه على ذلك .

رجعت فى زيارة إلى مصر فى أغسطس ١٩٧٠ بعد الإنتهاء من آداء إمتحان السنة الثالثه بكليه الميكانيكا وبعد الإنتهاء من فترة التدريب العملى بأحد مصانع إنتاج الثلاجات الصغيرة بمدينة إسطراخان .

وقد وافق الرئيس عبد الناصر على قبول مبادرة روجرز الأمريكيه بوقف إطلاق النار بين مصر واسرائيل . وكانت هذه خطوة ذكية من الرئيس عبد الناصر حتى يضغط على الروس للموافقة على كل مايطلب من سلاح وعتاد وخبراء وفى نفس الوقت القيام بأكبر إنجاز وهو بناء قواعد الصواريخ التى أصبحت شبكه حماية ضد غارات الطائرات الإسرائيلية التى كانت تعبث قبل ذلك فسادا فى الأجواء المصرية . وقد لعبت هذه القواعد دورا رئيسيا وجبارا فى حرب أكتوبر المجيده ١٩٧٣ .

وعند عودتى إلى الإتحاد السوفيتى فى سبتمبر لإستكمال دراستى كان ميناء أوديسا على البحر الأسود مقفلا نظرا للإشتباه فى وجود حالات كوليرا . وتقرر أن ترسو الباخرة فى ميناء خرسون . وقد سبب لنا ذلك مشكله كبيرة حيث أننا كنا عند سفرنا نحتفظ بمبلغ من الروبلات فى أمانات ميناء أوديسا يكفينا هذا المبلغ لبضعة أيام نعيشها فى أوديسا كما يكفى لشراء تذكرة طائرة إلى إسطراخان .

وإنتابنى قلق شديد وأنا بالباخرة ماذا أفعل فى خرسون ولايوجد معى مال وليس لى أهل فى هذا البلد وكيف أسافر إلى إسطراخان.

ومما زاد الطين بلة أننى عندما نزلت فى ميناء خرسون وعند فتح الشنط ليراهـا موظف الجمرك وإذ بهذا الموظف يفخر ويستدعى جميع روسائه كأنه عثر على شحنة هيروبين أو قنابل ذرية فى إحدى الشنط . وإتضح أن كل الذى أحدث هذا الإرتباك هو رؤيه هذا الموظف لزوجين من الأحذية الحريمى. وبدأت الأسئلة والإستجوابات . لمن هذه الأحذية ؟ هذه الأحذية لأحد الأصدقاء الذين أنهوا دراستهم وقد أرسلها معى لإحدى صديقاته. ألا تعرف أن حمل أشياء تخص الأخرين هو عمل ممنوع ؟ لا لا أعرف ذلك. وإنتهى هذا التحقيق بمصادرة زوجى الأحذية وإعطائى إيصال بهما وقيل لى يمكنك الحضور بعد ثلاثة أيام ودفع قيمه الجمارك وإسترداد الأحذية . وعندما ذهبت إلى مدير الجمرك وجدته رجلا فظا عنفنى بشده وقال لى يجب عليك أن تنتهى من دراستك أولا ثم تمارس التجارة وسوف أرسل خطابا بالواقعة إلى مدير المعهد الذى تدرس به. ولم يوافق على دفع الرسوم وإسترداد الأخذية .

أى واقعة وأى تجارة يا أيها الرفيق ؟؟ كل ذلك من أجل زوج من الأحذية الحريمى أرسلهم أحد الزملاء لصديقته معى. وقد نفذ هذا الرفيق وعده وأرسل خطاب إلى مدير المعهد ولولا أننى كنت أتمتع بسمعة طيبة ويعلم الجميع أننى لا أمارس التجارة ولا أصلح لها لأصبح لهذه الواقعة شأن آخر مثل وضعى تحت المراقبة الدائمة وإرسال إنذار نهائى بفصلى وطردى من الإتحاد السوفيتى إذا أقدمت على مثل هذه الفعلة النكراء مرة أخرى.

وهنا قد يطرح سؤال نفسه، من أين أتيت بالنقود لدفع الرسوم الجمركية للإحذية ؟؟ والحقيقة أن تلك قصة طريفة. كان معى على الباخرة زميلى جلال ولحسن حظى أنه يعرف مكان سكن تابع لمعهد بحرى عسكرى يدرس به بعض الطلبة المصريين فذهبنا إلى هناك وإستقبلنا الإخوة بفتور شديد، وأنا فى حياتى لا أطيق التواجد فى مكان يتسم أهله بالفتور ولكن فى هذه الحاله مكره أخاك لابطل. وأخذ يشرح لهم جلال مانعانيه من إفلاس وحاجتنا إلى النقود للسفر إلى إسطراخان. فإذا كان بإمكانهم أن يبيعوا لحسابنا بعض الأشياء التى يقبل الروس على شرائها حتى يتسنى لنا السفر. فقابلوا كلام جلال ببرود شديد. فما كان منا إلا أن ذهبنا نتمشى حول الميناء لعل الله يفرج كربتنا. وإذ بشلب روسى تبدو على ملامحه وحركاته الفهلوه يقبل نحونا محييا ومتوددا ويسألنا هل أنتم هنود؟ قلنا لا نحن مصريون. فتكلم معنا بعربية ركيكة بضع كلمات ثم سألنا إن كان لدينا شيء نريد بيعة فشرحنا له ظروفنا فأخذنا فى تاكسى ومعنا إحدى حقائبنا وهناك فى مكان نائى بعيدا عن المدنية بعدة أميال توقف التاكسى ودفع هو الحساب ودخلنا منزلا ريفيا

عرفنا فيه بأمه وتحت تكعيبة عنب وجدنا شابتين جميلتين جالستين وأمام كل منهما طشت غسيل وقد كشفت كل منهما عن فخذيها وعرفنا بأن إحداهما إختـه والأخرى زوجته. وإستدعاهما للفرجة وفتحنا الشنطه وتفرجوا على كل شيء وإعجبوا بكل شيء ولكنهم لم يشتروا شيئا وأسقط فى أيدينا وأصبنا بخيبة أمل شديده بعد أن أفهمنا هـذا الفهلوى أن مشكلتنا قد إنتهت. وقد رجعنا بخفى حنين كما يقول المثل العربى حيث أكتشفنا أن الشابتين الجميلتين قد سرقتا منا بعض الأشياء فحمدنا الله على أن الجمل لم يضع بما حمل.

وبعد رجوعنا أخذنا نحوم حول الميناء وحتى يهرب جلال مما نحن فيه من ضيق فقد تعرف على شابه جميلة فى حاله سكر بين وقد جاء الفرج على يديها فإشترت بلوزه من جلال بمبلغ ٦٠ روبل. حجزنا منهم تذكرتين بالقطار إلى مدينه منى فودى عاصمة القوقاز ومعناها مدينه المياه المعدنيه. وعندما وصلنا إلى مدينة مينى فودى قابلنا أحد الزملاء البولنديين اليهود وكان معه والده وقررنا دخول السينما حتى يحين موعد القطار المتجه إلى إسطراخان. وعرضت الجريدة الناطقة زيارة الرئيس جمال عبدالناصر وعائلته للإتحاد السوفيتى للعلاج فى إحدى مدن جمهوريه جورجيا. وأثناء الإستراحه حدث الإحتمال شبه المستحيل ذلك أن إحدى زميلات المعهد كانت مع خطيبها فى السينما وعندما لمحتنا رقصت فرحا مثل الصعيدى الذى عثر على أقاربه وسلمت علينا بحرارة شديده وأكدت علينا أنها لابد أن ترانا بعد إنتهاء الفيلم. ثم تعلقت بنا وبكرم حاتمى شديد يفوق كل ماقيل عن الكرم الشرقاوى والكرم الصعيدى أصرت على أن نتعشى عندهم. وتعللنا بجميع الحجج وبميعاد القطار ولكن مع من ؟؟ مع جالا. لقد خفت إن رفضنا العزومه أن تموت جالا من الحزن كما خفت عليها إن قبلنا العزومة أن تصاب بلوثه من الفرح. هذه هى جالا الشابة المرحة الجميله كما عرفتها عن قرب كانت مسرفة أشد الإسراف فى الضحك والمرح والكلام الجميل ولكنى لم أكن أعتقد أنه يوجد فتاه بهذا الكرم. حتى أن حماسها وحيويتها وفرحها ورجاءها وتوسلاتها وحزنها لم يتركوا لنا أى خيار وكل ذلك قد جعل دور خطيبها ثانويا وهامشيا فى العزومه بالرغم من أنه زميل دراسة. وبسرعه وحيوية ونشاط إتصلت تليفونيا بوالدتها مديرة الجوازات فى المدينه أبلغتها أنه يوجد لديها ضيوف من مصر وبولندا وأنها سوف تتعشى معهم فى بيت خطيبها. وذهبنا إلى البيت الريفى الجميل وتم ذبح الأرانب وتجهيز العشاء بسرعه فائقة وأمضينا وقتا جميلا بفضل كرم وحيويه ومرح جالا. وبعد ذلك أصروا على توديعنا إلى محطه السكه الحديد وساعدونا فى حمل أمتعتنا إلى القطار.

توقف القطار بالقرب من مدينه إسطراخان وتم إنزال جميع الركاب والتفتيش على شهادات التطعيم التى يحملونها لأن إسطراخان فى هذا الوقت كانت محاصرة بالدبابات لوجود أشتباه فى حاله كوليرا وممنوع الخروج منها إلا بعد الفحوصات الطبيه والتطعيم كما أنه ممنوع الدخول إليها إلا لمن يحمل شهادة تطعيم ثم جاء قطار آخر نقلنا إلى إسطراخان. وقد أعجبنى جدية الروسى فى التعامل مع هذه الأمراض المعدية الخطيرة.

***

إنقلاب عسكرى فاشل فى السودان

كنت أقضى فترة التدريب العملى فى صيف سنه ١٩٧١ فى أكبر شركة لحفظ وتصنيع الأسماك فى مدينة إسطراخان. وفى احد الأيام قالت لنا كبيرة مهندسى الشركة والمشرفة على التدريب لايوجد تدريب اليوم لأنه سوف تعقد مؤتمرات فى جميع الهيئات والمصانع فى الإتحاد السوفيتى للتنديد بالرئيس السودانى اللواء جعفر النميرى. وطبعا عرفنا السبب، فقد قام فى السودان إنقلاب عسكرى ضد الرئيس جعفر النميرى ووضعوه فى السجن، وأثناء رجوع مدبرى الإنقلاب بقيادة هاشم العطا من لندن أجبر العقيد معمر القذافى قائد الثورة الليبية طائرة مدبرى الإنقلاب بالهبوط فى ليبيا وتم القبض عليهم وتسليمهم للرئيس جعفر النميرى الذى أمر بإعدامهم فورا.

وكان أول الذين أعدموا الشفيع وهاشم العطا وكان الشفيع حاصلا على جائزه لينين للسلام من الإتحاد السوفيتى. وقد هرع القادة السوفييت مستنجدين بالرئيس أنور السادات لإنقاذ رأس الشفيع من الإعدام وعندما إتصل الرئيس السادات بالرئيس النميرى كان الإعدام قد تم وقضى الآمر. ومن ثم فقد جن جنون القادة السوفييت، إذ كيف يعدم الشفيع الحاصل على جائزة لينين للسلام. ومن ثم فقد عقدت المؤتمرات فى جميع أنحاء الإتحاد السوفيتى للتنديد بالرئيس جعفر النميرى وإستنكار أحكام الإعدام التى أمر بها الرئيس النميرى ونفذت فورا فى قادة الإنقلاب. هكذا كان الإهتمام بالسياسة العالمية فى الإتحاد السوفيتى. ويذكرنى ذلك ببعض المناوشات التى حدثت على الحدود الصينيه الروسيه سنه ١٩٧٠ وكيف أن الروس ضخموا منها وعقدوا المؤتمرات لفتح باب التطوع للقتال وكيف

أنهم عبأوا الراى العام لدرجة أن كل مواطن سوفيتى أصبح مقتنعا أن غزو الصين للإتحاد السوفيتى هو حدث واقع لامحالة.

* * *

وفاة الرئيس عبد الناصر

مساء يوم ٢٨ سبتمبر سنه ١٩٧٠ أجلس مع الشيخ هاشم بجوار جهاز الراديو لسماع نشره الأخبار من إذاعة القاهرة، حيث كان جهاز الراديو هو الصلة الوحيده التى تربطنا يوميا بأمنا الحبيبه مصر. وقد بلغت الأحداث ذروة المأساة فى أيلول الأسود حيث إندلع القتال الدامى العنيف بين الجيش الأردنى ورجال منظمة التحرير الفلسطينية وكان من الواضح أن الأردن قد عقد العزم على سحق الفلسطينين والقضاء الكامل على المنظمة واستخدم الأردن الدبابات فى أبشع هجوم على كل ماهو فلسطينى.

وبذل الرئيس عبد الناصر جهدا جبارا ومخلصا للسيطرة على الأحداث، وإنقاذ الفلسطينين المقيمين فى الاردن من الدمار والفناء.

وقد كلل الله جهد الرئيس رحمه الله بالنجاح فى عقد مؤتمر قمه عربى بالقاهره تعهد فيه الملك حسين بايقاف عمليات قتل الفلسطينين ووضع ضمانات لحمايتهم وكنا نتلهف بقلق إلى سماع أنباء الوفاء بتعهد الملك حسين حتى نطمئن على إخواننا الفلسطينين الذين توالت عليهم النكبات من الأعداء والاخوه والاصدقاء ولكن إذاعه القاهره إستمرت فى إذاعه القرآن الكريم باستمرار ولفتره طويله : ثم فجأة سمعنا صوت الرئيس السادات ينعى إلى الآمه العربية والعالم أجمع وفاة أعظم الرجال وأشجع الرجال الرئيس جمال عبد الناصر. وتجمع الطلبة العرب والمصريون والكل فى حالة ذهول بل إن بعض الزملاء كادوا أن يفقدوا عقولهم، وبكينا الرئيس الأب والامل والوطن والحلم.

وأرسل لنا مدير المعهد مجموعة من الزملاء الروس الذين يجيدون الرسم. لتكبير صور الرئيس عبد الناصر وسهرنا مع الزملاء الروس للصباح فى رسم صور كبيرة للرئيس.

ولم تعلن الاذاعة الروسية أو التليفزيون الروسى أى أنباء عن وفاة الرئيس بالرغم من إعلان جميع الإذاعات الاجنبية فى العالم لهذا النبأ الحزين وقد أجتمع مجلس السوفيت الأعلى يوم ٢٩ سبتمبر وأصدر بيانا فى الساعة الثانيه ظهرا نعـى فيـه إلـى الشـعب السوفيتى وجميع شعوب العالم وفاة بطل من أبطال الإتحاد السوفيتى وقائد الأمه العربيـه وزعيم التحرر الوطنى فى العالم الرئيس جمال عبدالناصر.

وحزن الروس رجالا ونساءا على وفاه الزعيم وأقمنا صلاه الغـائب علـى روح الرئيس فى أحد مساجد التتار بمدينه أسطراخان وقد شارك الزملاء المسيحيون فى صـلاه الغائب.

وفى يوم ٣٠ سبتمبر أقيم فى جميع الهيئات والمصانع والمدارس والجامعات فـى جميع أنحاء الإتحاد السوفيتى مؤتمرات لتأبين الرئيس عبدالنـاصر وتاريخـه الوطنـى، ومأثرة وكفاحه فى سبيل التحرر والقضاء على الإستعمار.

***

زياره الرئيس السادات لموسكو

بعد وفاه الرئيس عبدالناصر رحمه الله، كان الروس يتوقعون أن يتولـى السـيد / على صبرى رئاسة مصر، وتناقش معنا الاساتذه والطلبه الروس فـى ذلـك صراحـة، ومعنى ذلك أن هذا كان هو إتجاه الرأى العام فى الإتحاد السوفيتى حيث أن الروس كـانوا يعتقدون أن للسيد / على صبرى إتجاه إشتراكى واضـح. وكـان رأينـا نحـن الطلبـة المصريون أن الرئيس السادات له تاريخ كفاح وطنى عريق قبل أن تقوم الثـورة، وأنـه مارس الكفاح المسلح ضد الإنجليز وأعوانهم. وتعرض فى سبيل ذلك للإعتقال والفصـل من الخدمة. وأنه يكفينا أن يتولى رئاسة مصر رجل وطنى يكون هدفه الأول هو مصلحـة مصر. وقابل الروس إنتخاب الرئيس السادات رئيسا لمصر ببرود وعدم رضا. وتوقعنا أن تعاون الروس مع الرئيس السادات لن يكون بالكيفية التى كانت أيام الرئيس عبد الناصر

وزار الرئيس السادات موسكو فى أوائل سنه ١٩٧١ وقبل ثورة التصحيـح التـى أطاح فيها الرئيس بغالبية الموالين للروس فى ١٥ مايو من نفس العام.

ولم تكن الزيارة ناجحة بالقدر الكافى ولم يلبى الروس اغلب الطلبات التى قدمها الرئيس والخاصة بالمعدات العسكرية. وكان الروس يتعاملون مع الرئيس السادات بحذر وخوف وتوجس.

وكان الطلبه المصريون الدارسون بموسكو وكذلك الذين جاءوا إلى موسكو بمناسبة زيارة الرئيس السادات كانوا جميعا يطمعون فى مقابلة الرئيس والإجتماع به. ولم تكن مشغوليات الرئيس السادات تسمح بمثل هذا اللقاء، فأناب عنه الأستاذ / لطفى الخولى المفكر الماركسى وكان معه السيد / عبد المحسن أبو النور الذى شغل عدة مراكز هامه فى الدوله والإتحاد الاشتراكى آنذاك.

وفى الندوة أثار الدارسون مرة أخرى موضوع مقالات الأستاذ / محمد حسنين هيكل الداعية إلى اليأس وإستحاله عبور الجيش المصرى لقناة السويس، وهنا علق السيد / عبد المحسن أبو النور قائلا بغيظ شديد " لوكان فى مقدورنا التخلص من هيكل لتخلصنا منه ". وإصطف الطلبة العرب والمصريون فى مطار موسكو لتحيه الرئيس السادات وتوديعه وقد صافحهم واحدا واحدا، وطمأنهم أن الأحوال بخير والحمد لله.

* * *

عميد الطلبة الأجانب الهايف

فى صباح الأحد من أحد أيام شتاء ١٩٧٠ دخل حجرتى الزميل على عبدالمنعم وهو الآن دكتور مهندس وصاحب مجموعة شركات ناجحه زاده الله من نعيمه وفتح الله عليه. دخل قائلا بطريقته الساخرة الظريفه صباح الخير وقد أصابنى الهلع الشديد عندما نظرت إلى وجهه ورايته مليئا بالقطن والبلاستر وقلت له على الفور لقد كنت سهرانا فى الروستوران مع الزميل نصر، قال نعم وحكى لى أنه بعد السهرة والاكل والشرب والرقص إشتبكوا فى الشارع مع مجموعه من الروس السكارى وتكاثر عليهم الروس وأشبعوهم ضربا. ثم جاءت عربة الشرطة فهرب الروس. وتم أخذ على ونصر فى العربه وجلس على مستكينا من تاثير الضرب أما نصر فقد كان هائجا فأشبعه العساكر الروس ضربا داخل العربة من ذلك النوع من الضرب المؤلم الذى لايترك أثرا. وإستمر نصر

هائجا فى مكتب مأمور القسم، وشتم المأمور وروسيا والروس بأحط الشتائم وضرب المأمور بكف على قفاه فإنسكبت دوايه الحبر على الدفاتر والمحاضر. فما كان من العساكر الروس إلا أن أحاطوا به وأوسعوه ضربا من ذلك النوع إياه. وتم إحالته نصر وعلى إلى النيابه وأصبحت لهم قضية. وأبلغت النيابة إدارة المعهد وتم التهديد بالفصل والطرد. وأخبرنا عميد الطلبه الاجانب بموعد إجتماع وكيل النيابة مع الطلبة المصريين لبحث هذه المشكلة وكان هذا العميد إستاذا للتاريخ طويل وهايف روتينى إلى أقصى درجة يزيد المشاكل تعقيدا ولايحل شيئا.

وبدأ وكيل النيابة الكلام فعدد المخالفات التى قام بها على ونصر مثل الإعتداء على المواطنين الروس والسب وضرب المأمور أثناء تأدية عمله وسكب الحبر على السجلات والمحاضر وإضاعة معالمهم ثم ختم كلامه بأن عقوبة هذه المخالفات السجن والطرد من الإتحاد السوفيتى.

وتساءل العميد الهايف، هل هناك من يريد التعقيب ؟ فرفعت يدى، ففرح وإستبشر خيرا ظانا بأننى سوف أعتذر نيابه عن الطلبة المصريين، وبذلك يظهر العميد أمام وكيل النيابة فى صورة الرجل القوى المسيطر على دفة الأمور فيما يتعلق بالطلبه الأجانب. وقد خاب ظنه لأنى كنت إشتاط غضبا وقرفا من الموقف. وتساءلت هل تم إثبات الجروح والكدمات التى كانت بوجه على وهل تم عمل تقرير طبى بذلك ؟ وأين الروس الذين قاموا بضرب على ونصر ؟ هل تم القبض عليهم ؟ هل تم التحقيق معهم ؟ ولم أستطع أن أدافع عن نصر لأنه عصبى ومن السهل أن يدخل فى خناقة أما على فقد دافعت عنه وعن أخلاقه وسلوكياته وأدبه. وأهاجت كلماتى باقى الزملاء فهمهموا وزمجروا وصلحوا مطالبين العميد ووكيل النيابة بالإجابة على تساؤلاتى.

وأصبح العميد مهزوزا فى موقف لايحسد عليه. وقال أنا لا أقصد أن يكون التعقيب بمثل هذا الكلام الذى قيل. وهنا وقف الزميل هشام الشريعى وكان عالما بنفسيه الروس وبهيافة العميد، وقال هشام بتهكم واضح، أنتم تريدون منا الإعتذار عما حدث، هانحن نعتذر وعفى الله عما سلف، فقال العميد بحماس وقد أستشعر حلاوة الإنتصار هذا هو الكلام المعقول الذى كان مفروضا أن يقال من البداية. وبذلك أنهى هشام المشكله بذكائه. وحفظت القضية، وتم الإكتفاء بتوجيه إنذار نهائى لنصر وعلى.

* * *

جزيرة مصطفى عامر

تقع مدينه إسطراخان على نهر الفولجا أشهر الأنهار فى روسيا ويصب هذا النهر فى بحر قزوين وهو بحر مشترك بين روسيا وإيران ويمتاز نهر الفولجا بالأسماك التى يستخرج منها الكافيار الروسى الشهير وتسمى أسماك الأسترينا وبذلك تميزت مدينه إسطراخان بصيد الأسماك وبمصانع حفظ وتصنيع الأسماك والكافيار ويصدر كافيار المصانع إلى الخارج أما أهالى إسطراخان فيقومون بإستخراج الكافيار وهو عبارة عن بيض أسماك الإسترينا ويضيفون إليه الملح والخل ويحفظونه وتصبح موائدهم عامرة بالكافيار فى أعياد الميلاد والأعياد الرسمية وتكثر غابات الأشجار على جانبى نهر الفولجا كما يوجد به مجموعة كبيره من الجزر. وقد تم إستغلال هذا النهر فى السياحة فتكثر به البواخر السياحية تعبر هذا النهر فى رحلات جميله وممتعه.

وقد كانت جزر هذا النهر وغاباته مرتعا جميلا للطلبه المصريين يلعبون فيها ويمرحون ومعهم صديقاتهم الروسيات. وكان بعضهم ينصب الخيام فى هذه الجزر وتمتد إقامتهم فيها صيفا لأسابيع وشهور. وسميت الجزر على أسمائهم وكانت أشهر جزيرتين هما جزيره مصطفى عامر وجزيره طارق الشال. وكان الزملاء يزورون كلا منهم فى جزيرته حاملين لهم الشاى والسكر والسجائر والفودكا. ويقيمون معهم يوما أو بضعة أيام يلعبون ويمرحون ويستمتعون بصيد السمك وشيه وأكله.

وفى الأجازه الصيفية تهل على إسطراخان أفواج من الطالبات الروسيات من مدن آخرى للتدريب العملى فى المصانع ويتم التعارف وتكوين الصداقات. والنظام المتبع فى روسيا هو أن كل طالب وطالبه لابد أن يقضى فتره التدريب العملى فى مدينه أخرى غير المدينه التى يدرس بها ففى ذلك تدريب للإعتماد على النفس والتعرف على المدن الآخرى. وقد تعارفت وزميلان آخران على ثلاثه طالبات من لينينجراد. وأنا من أشد المعجبين بمدينه لينينجراد حيث أنها مدينه عريقة ذات تاريخ حضارى عظيم فى العلم والفن والموسيقى وسكانها أكثر تقدما وحضارة ورقيا. وقررنا أن نقضى يومى السبت والأحد فى إحدى الغابات على شاطىء نهر الفولجا وأخذنا معنا كل مايلزمنا من خيام صغيره وطعام وشراب وبالليل قمنا بجمع الحطب من الغابه وأشعلنا النار وجهزنا شربة السمك واللحمه المشوية والسلاطة وتعشينا عشاء دسما شهيا. وكانت الليلة رومانسية وحالمه فيها النكته والقفشة والجدل الثقافى والسياسى الممتع. وفى الصباح سبحنا فى نهر

الفولجا وإستمتعنا بمائه الدافيء الصافي وسألت إحدى الجميلات وكانت تسبح بجانبي وكانت وديعة كحمامه الأيك هيفاء كالبان يلتف النسيم بها كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي. سألتها مالي أرى صديقكي غاضبا مكشرا ؟ قالت بعدين سوف أحكي لك. وفهمت دون أن تحكي لي فلم يكن صاحبنا حالما ولارومانسيا وإنما كان زير نساء لم يقل لها كما قال شوقي في حمامه الأيك ولكنه طاردها كذئب بشرى ولما لم تحقق له غرضه الدنيء قلبها غم على الجميع وقرر أن نقطع الرحله فورا ونعود من حيث أتينا. وأثناء سيرنا للوصول إلى محطه ركوب بواخر النزهه والأتوبيس النهرى وجدنا على الشاطيء إمرآتين ورجلين في منتصف العمر ومعهم شاب نحيل وشابة غضة جميلة وكانوا يجهزون الطعام ويرسو بجانبهم لنش خاص بهم. فالقينا عليهم السلام فعزموا علينا فقبلنا العزومه ليس طمعا في أكلهم الشهي ولكن طمعا في أن يأخذونا معهم باللنش حتى لانتكبد مشقة الطريق إلى محطة الأوتوبيس النهرى. وبعد أن جلسنا قال أحدهم هل معكم شيء يشرب ؟ قلنا معنا نبيذ جزائرى خفيف. قال إذن ليس معكم شيء. قال صديقنا زير النساء معي لتر كحول أبيض قالوا جميعا في وقت واحد هذا هو الكلام الجميل. قال الشاب النحيل ذو النظاره السمكية أنا صحفي وهذه السنيورة الجميلة خطيبتي وأنا لا أشرب الكحول إلا مركزا ولا أحب أن يكون مخلوطا بالماء أو بأى شيء. وحتى يتأكد من تركيز الكحول فقد ملأ كأسا وأشعل فيها النار فأشتعلت فأطفأها وشرب الكأس ثم شرب الرجلان الأخران وبعدها بلحظات وجدنا أن هذا الشاب الصحفي قد إنتابته حاله سكر شديد فقام وأخذ جردلا مملوءا بالماء وسكبه فوق خطيبته الجميله السنيورة. وحتى يفيق من سكره قرر الرجلان الأخران حمله والقياه في النهر فغطس ولم يظهر له أثر وأخذ الرجلان ينظران إلى المكان الذى القياه فيه ويضحكان بسرور شديد. وهنا أسرعت المرآتان لإنتشاله وهو في شبه غيبوبة. وقررنا الرحيل معهم، وعندما أصبح اللنش في وسط النهر ألقى أحد الرجلين بنفسه في النهر ثم تبعه الرجل الآخر الموجود على عجلة القياده. وتأكدت أننا غارقون لامحاله بسبب ركوبنا مع هؤلاء السكارى ولم ينقذ الموقف إلا إحدى المرآتين وكانت تجيد القيادة. ثم صعد الرجلان إلى اللنش وما أن رأوا أفخاذ الفتيات بلحمهن الغض الأبيض حتى جن جنونهم وأسرعوا للجلوس بجوارهن وأخذوا في التحسيس عليهن وهنا قامت زوجاتهم بضربهم ضربا مبرحا وإبعادهم عن الفتيات وإبتعدوا من الضرب وهم يكيلون أقبح الشتائم لزوجاتهم. وحمدت الله بعد أن قادت إحدى المرآتين اللنش ووصلنا إلى محطة الوصول بسلام. وهذه هي ضريبه مخالطة السكارى.

* * *

الفاتنة والزنجى

كانت طالبه روسية فاتنه الجمال حريرية الشعر غراء هيفاء مصقول عوارضـــها كما قال الشاعر العربى القديم وكانت تسكن معنا فى بيت مشترك للطلبة والطالبات. وأمـا هو فكان عبدا حبشيا فارع الطول واسع الثقافة خفيف الظل يدعى مايكل أما هى فكـانت تدعى مارينا. وقد وقعت مارينا صبابة فى عشق مايكل وكانت دائما فــى صحبتـه فــى المطعم وفى السينما وفى قاعه المذاكرة. ويمكن القول أن مارينا لم تترك مــايكل لحظـة واحدة وكان من النادر أن توجد مارينا بدون مايكل أو أن يتواجد مايكل بدون مارينا. وفى إحدى الليالى جاءنا فى الحجرة صديق روسى ممتقع الوجه ضيق الصدر يكــاد يتفجـر غضبا. قلت له مالك أيها الرفيق وما الذى يحزنك ويشقيك ؟ قال بغيظ شديد هذه العـاهرة ألا يوجد فى مدينة إسطراخان كلها شاب روسى يعجبها عدا هذا الزنجى العبـد الحبشـى الأسود. قلت له أتقصد مارينا الفاتنه الجميلة ثم يا أيها الرفيق يعرف الجميع منذ زمـن أن هذه الفاتنه تلازم مايكل كظله وتحبه بعنف وتموت فيه صبابة فما هو الجديد الذى أقلقـك وأغاظك وضايقك إلى هذا الحد ؟ قال ما أغاظنى هو أننى كنت أصعد درجات السلم فــى الظلام الدامس وإذ بالنور يضىء فجأة فأرى هذه العاهرة تقبل هذا العبد الأســود علــى بسطة السلم. ثم قال بأسى آلا يوجد رجل روسى يعجب هـذه العـاهرة ومـاهو الشــىء الموجود فى هذا الزنجى ولا يوجد فى الرجال الروس. قلت له يا أيها الرفيق إن النــاس فيما يعشقون مذاهب كما يقول المثل العربى. ثم إنه بالتأكيد يوجد فى مايكل ميزات كثـيره جعلت مارينا تعجب به وتفضله على جميع الشباب الروس فهو مثقف وواســع الإطـلاع ومهندم وأنيق فى ملبسه.

ونكاية فى هذا الرفيق وزيادة فى مضايقته قلت له إن هذا العبد الذى تحتقره فيــه ميزة آخرى لاتوجد فى الرجال الروس لوجربتها أنت نفسك ماسلوت هـذا العبـد أبـدا. وقهقهت أنا والشيخ هاشم قهقهة عاليه أثارت حفيظته فلعن أفريقيا والإفريقييــن وخـرج غاضبا من حجرتنا تودعه ضحكاتنا العاليه. وللحقيقة فإن الروس عنصريون ومتعصبـون وكانوا يصفون أى واحدة روسية تتزوج من أجنبى بأنها عاهرة.

وقد كان لنا زميله دراسة قمورة وحلوة وكان لها صديق روسى تتارى مسلم وكان أجمل منها وأحلى وكنت أعلم أنها تحبه حبا شديدا. وجاءتنى يوما وعلى وجهها الحــزن

والأسى والخوف من معايره زملائها وزميلاتها لها وقالت لى ألا تعرف لقد قررت أن أتزوج هذا التتارى المسلم الذى يدين بدينكم. قلت لها ولماذا تقولينها بهذا الأسى وأنتى تحبينة وهو يحبك وأنتم أحباء منذ الطفوله ؟ قالت أنت تعلم كم سوف أعانى من عنصرية الروس.

* * *

الغجر فى روسيا

لم يستطيع الروس كما لم تستطع قوانينهم الصارمه إخضاع الغجر الذين يعيشون على أرض الأتحاد السوفيتى لأى تقاليد أو أعراف إلا تقاليد وأعراف الغجر أنفسهم.

فهم لايسجلون أبناءهم فى سجلات المواليد الرسميه ولايدخلون المدارس الحكوميه النظامية ولا يدخلون الجيش ولايستقرون فى مكان ثابت بل هم قوم يحبون الإنتقال الدائم والترحال المستمر وهم رجال ونساء ذوى طبع حامى. يحترف نساؤهم التسول وهن ذوى عيون واسعة جميله يلبسن فى أنوفهن حلقان معدنيه كبيره وجلاليبهن مزركشة ذات الوان صارخة زاهية. رآيتهم أول مرة فى مدينه إسطراخان، إذا أخذتنا مدرسه الروسى وهى فى نفس الوقت المشرفة على متابعة دراستنا. أخذتنا فى جوله للتعرف على المدينة إسطراخان. وفجأه أهل علينا جمع من نساء الغجر وأخذوا يقولون أعطنى روبل ياباشا أعطنى روبل يابيه. وكلمه باشا وبية غير موجودة فى روسيا ولا أدرى من أين عرفها هؤلاء الغجر. فما كان من مدرسه الروسى إلا أن شخطت فيهن وأمرتهن بالإبتعاد. فلم يزدهن ذلك إلا عنادا وإصرارا وأخذن يلتصقن بنا مصرين على أخذ النقود. فما كان من مدرسة الروسى إلا أن هددتهم بالإبتعاد أو إستدعاء البوليس فما كان من أحداهن إلا أن قالت لها خلى البوليس............. ونطقت كلمه من أقبح الشتائم. فبهتت مدرسة الروسى وأحمر وجهها خجلا من هذه الشتيمه القبيحة وإرتبكت ولم تدرى كيف تتصرف. وأنقذنا نحن الموقف وأعطيناهن ما طلبن فذهبن إلى حال سبيلهن. وطيبنا خاطر مدرسة الروسى وقلنا لها نحن نعلم أن الغجر منتشرون فى جميع دول العالم وأن هذا هو سلوكهم فى أى مكان.

وفى إحدى المرات كان الوقت صيفا جلست على إحدى الآرائك الخشبية فى حديقه عامه بمدينه فولجاجراد وجاءتنى شابه غجرية جميلة وأصرت على أن ترى لى البخت وتضرب الودع. وأمسكت بكفى وبدأت تضرب الودع وتقول وتحكى وأنا أنظر إلى عينيها الواسعتين الجميلتين، وللمصادفة فقد قالت لى أشياء كثيره حقيقية. وأنا طبعا شديد الإيمان بالله ولا أصدق قارئى الكف أو ضاربى الودع ولكنى لم أستطع الهروب من هذه الغجرية وأخيرا هجمت علينا مدرسة الروسى بعد أن سحبت منى الغجرية خمسة روبلات. فطردتها مدرسة الروسى وقالت لى كم دفعت لها ؟ قلت لها روبل واحد فقط. قالت يجب أن يتم الحجر عليك لإسرافك. قلت فى نفسى لو أنها علمت أن الغجرية أخذت منى خمسة روبلات لحكمت علي بالإعدام.

***

الإحتفال بثورة اليمن

يعتبر الروس أن الثورة البلشفية التى قامت فى روسيا سنة ١٩١٧ هى أعظم الثورات وأم الثورات فى العالم ، وأن جميع الثورات التى قامت بعد ذلك فى العالم أجمع هى ثورات وليدة للثورة الروسية الأم ، ومن ثم فإن الروس حزبا وحكومة وشعبا كانوا حريصين على الإحتفال بذكرى كل ثورة حدثت فى العالم.

وفى سبتمبر من كل عام تحل ذكرى ثورة اليمن وإنتفاضة شعبة ليطيح بقرون من الظلم والطغيات والتخلف ،

وفى سبتمبر ١٩٦٨ لم يكن فى معهد اسطراخاف إلا طالبا يمنيا واحدا إسمة أحمد وكان معروفا بأحمد اليمنى ثم أطلقنا علية بعد ذلك أحمد قارورة ،

وقد كان هو السبب فى حمل هذا اللقب ، فقد كان محبا لشرب الفودكا بحجة أنها تبعث فى جسده النشوة والدفء والنشاط فى برد روسيا القارس ، وكان يضع زجاجة الفودكا فى جيب البالطو الداخلى ، وعندما كنا نسأله ما هذا يا أحمد ؟ يقول هذه قارورة يا أخى ومن ثم فقد أطلقنا علية أحمد قارورة ، ولم يغضب أحمد من هذا اللقب، فقد كان بطبعه ذواقا للنكتة والمزاح ،

وكان أحمد رجلا شجاعا لايعرف النفاق ويجاهر برأية بكـل صراحـة ولايقبـل الإهانة ولايفرط فى حقه ولايعمل حسابا للعواقب عندما يثأر لكرامته ‥ جادلته إحـدى الطالبات الروسيات وكان يعد طعام الغذاء بالمطبخ وأمرته أن يرفع الزبالة الملقاة علـى أرضية المطبخ ٠ وتجادل معها أحمد بالعقل والمنطق أنه ليس صاحب هذة الزبالة وأشـتد النقاش بينهما فما كان منها إلا أن قالت له أنت خنزير ثم تركته وذهبـت الـى حجرتـها فذهب وراءها أحمد وقال لها : إعتذرى لى فرفضت فكرر لها ذلك ثلاث مرات فرفضـت فما كان من أحمد إلا أن صفعها على وجهها ٠ وهنا قامت قيامة الروس وأعتبروا أن ذلك إمتهان لكرامه الشعب السوفيتى أجمع ٠ وتم تهديد أحمد بالطرد من الإتحاد السـوفيتى ٠ ووقف أحمد شامخا صلبا وتقبل الأمر ببساطة شديدة لم يرجو أحدا ولم يذل نفسه لأحـد ٠ وقال للروس والله لاتلزمنى الإقامه فى بلدكم ولايهمنى أن أحصل على أعلى شهادة مـن بلدكم ولكن كرامتى فوق كل شيء ٠ وقد أدى هذا الموقف الرجولى من أحمد الى تراجـع الروس عن طرده ٠ ٠ وأكتفوا فقط بتوجيه إنذار نهائى له ٠ وبالرغم من ذلك فإن أحمـد لم يحتمل الحياه فى روسيا ورجع الى اليمن ولم يكمل دراسته وهذا ماكان من أمر أحمـد قارورة ٠ ونرجع الإن الى الإحتفال بذكرى ثورة اليمن ٠ فقد أرسلت لى إدارة المعـهد زميلتين جميلتين نشيطتين للإتفاق على الترتيبات اللآزمة للإحتفال بثورة اليمـن ٠ وقـد تطرق الحديث إلى تكلفة الإحتفال ٠ وقلت لهم إن الجانب المصرى هو الذى سيقوم بكـل شيىء لأن ثورة اليمن تمثل حدثا عزيزا لكل المصريين ٠ ولما نقلت الزميلتان ماتم مـن إتفاق الى مدير المعهد ٠ أمر بكل شهامه أن يقوم الجانب الروسى بكل ترتيبات الإحتفـال وكان الإحتفال جميلا ٠ تكلمت فيه نيابه عن أحمد ٠ لأنه لم يكن أجاد اللغة الروسية بعد ٠ وأستعرضت فى كلمتى أحوال اليمن قبل الثورة ثم النقلة الحضارية التى إنتقل اليها اليمـن بعد الثورة وهنأت أحمد بعيد الثورة كما هنأه الروس فى كلماتهم التى ألقوها ووعد الروس بالوقوف الى جانب ثورة اليمن والمساعدة فى تطويرة عسكريا ومدنيا ٠

ولقد كان الإحتفال بثورة اليمن ونحن طلبه فى روسيا دليـلا علـى أن التضـامن العربى ليس شعارا فقط ولكنة حقيقة تجرى فى دم كل عربى وعلى جميع المستويات ٠

* * *

حكايتى مع الأدب والموسيقى
فى مصر وروسيا

قضيت أكثر أيام طفولتى فى بيت جدى لأمى وكان البيت يقع وسط حديقة تبلغ مساحتها حوالى ثلاث أفدنة بها أشجار الفواكة التى تشتهر بها ساحل سليم وهى أشجار المانجو والبرتقال واليوسفى والليمون كما كان بها تكعيبة عنب جميلة .. وكذلك ساقية نشرب منها فى الصيف ماءا رائقا باردا زلالا . ويحف بالحديقة النخيل من جميع الجهات ويجرى فى وسطها جدول ماء . وكان منظر النخيل الباسقات والأشجار الخضر والأعناب والماء يبعث على التأمل ويريح النفس ويشحذ الخيال .

وكان جدى لأمى أزهريا طيبا كريما ومتسامحا لم يحترف عملا غير إهتمامه بحديقته هذه .وكانت تدر عليه دخلا سنويا يكفيه وأسرته ويجعله فى بحبوبه من العيش .

وكان جدى يقص على وأنا لم أتعد الرابعة من عمرى قصص القرآن الكريم بطريقة سهلة وبسيطة ومحببة الى النفس . وكنت أجد متعه ما بعدها متعه فى الإستماع الى قصة سيدنا يوسف وما رآه فى المنام وكيد إخوته له وإلقائه فى الجب وكيف راودته إمراة العزيز عن نفسه بعد أن شغفها حبا . وصمود سيدنا يوسف لكيد إمرأة العزيز ونسوة المدينة، وتفضيله للسجن على إرتكاب المعصية و تضرعه الى الله أن يصرف عنه كيدهن فى هذا التعبير القرآنى الرائع " ربى السجن أحب الى مما يدعوننى اليه . وإلا تصرف عنى كيدهن أصبو اليهن وأكن من الجاهلين " . وكيف أن الله سبحانه وتعالى علمه تأويل الأحاديث وتفسير الأحلام . وكيف أن سيدنا يوسف عليه السلام كان يدعو الى وحدانيه الله حتى وهو فى السجن . وكيف أن الله نصره عندما إتقى وصبر وأن الله لايضيع أجر المحسنين .

وقد حكى لى جدى قصه سيدنا موسى وكيف أوحى الله الى أمه أن تلقيه فى اليم . ثم ربط على قلبها حتى لاتبدى به . وكيف رده الله الى أمه فى هذا التعبير القرآنى البليغ " فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولاتحزن ولتعلم أن وعد الله حق " .. ثم قصة سيدنا سليمان والنملة والهدهد وعفريت الجن والذى عنده علم من الكتاب والملكه بلقيس ووصف الهدهد لها . وإستنكار الهدهد أن تعبد هذه الملكه الجميله الحكيمه التى أوتيت من كل شىء . كيف تعبد هى وقومها الشمس من دون الله فى هذا التعبير القرآنى العظيم

على لسان الهدهد " إنى وجدت إمرأه تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم • وجدتها

وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون • الله لاإله إلا هو رب العرش العظيم "

وبفضل جدى وما كان يقص على من قصص القرآن وسيره الأنبياء والصالحين تذوقت التعبير الجميل والإيمان الفطرى بالله •

وبعد أن تعلمت القراءة فى المدرسة الأولية بدأت أقرأ كل ماتقع عليه عيناى فى مكتبه جدى وكانت أغلبها كتب دينية وكتاب كليله ودمنه وكتب الطب القديمة مثل كتاب القانون لإبن سيناء •

أما فى ليالى الشتاء فكان خالى يجمعنا فى حجرته بعد العشاء أنا وجدى وجدتى وزوجته حيث ينبعث الدفء من إناء من الفخار به فحم خشب مشتعل وهذا الإناء يسمى " الماجور " • ثم يبدأ خالى فى قراءه بعض الفصول من كتاب ألف ليله وليله وطبعا قصص ألف ليله وليله هى قصص من الخيال تتحدث عن الحب والعشق والأمانة والغدر والخيانة والنساء وحياة الفقر والغنى والأكواخ والقصور وبساط الريح•

ويستمر خالى فى القراءة ونحن نستمع بشغف شديد ونتعاطف مع الأمين ونستنكر غدر الخسيس •ومانزال على هذا الحال حتى يداعب النعاس جفوننا فنذهب لننام •

هذا ما كان من حال القصص والأدب معى فى هذة الحديقة الجميلة وهذا الجو الخيالى الرائع •

أما بدايه إستماعى للفنون من موسيقى وغناء فكان على يد خالى الذى يعيش فى القاهرة وكان يأتى لزيارة الأسرة فى الصيف • ويحضر معه دائما فونوغراف ومجموعه كبيرة من الإسطوانات بها أغانى لأم كلثوم وعبدالوهاب ومنيره المهديه والشيخ سلامه حجازى والشيخ سيد درويش ووجدتنى فى هذه السن الصغيرة منجزبا للإستماع الى الموسيقى وهذة الأغانى • حتى أننى من شده شوقى للإستماع للموسيقى والأغانى كانت أكبر أمنيه لى أن يكون لدى فونوغراف ولم تتحقق هذه الأمنيه إلا بعد سفرى الى روسيا

وبجانب ذلك كانت تقام ليالى الأذكار التى يشدوا فيها المنشدون بقصائد فى مديح الرسول على أنغام الرق وأذكر أن أحد المنشدين كان أسمه الشيخ أبوضيف كان يردد

طوال الليل عبارة " أنا بليت من الزمان بأربع إبليس ونفسى والدنيا والهوى " ثم يتأوه ويقول آه أنا بليت ، وكانت طريقه هذا الشيخ فى إنشادة لهذة الجمله تدل على أن بصدر هذا الشيخ حمل ثقيل وسر خطير لايستطيع أن يكتمه كما أنه لايستطيع أن يبوح به وهل هذا الحمل عشق كبير أم ذنب عظيم ؟ الله أعلم بسرك وحالك يامولانا الشيخ أبوضيف ،

وعندما تقدمت فى السن وبلوت الحياه بخيرها وشرها أيقنت أن سبب بلاء الإنسان هو إبليس والنفس والدنيا والهوى ، وقلت إن معك حق ياعمنا الشيخ أبوضيف عندما كنت تتأوه وتقول " آه أنا بليت " ،

وعندما أنتظمت فى الدراسة بمدرسة ساحل سليم الإبتدائية إنتقلت للإقامة فى منزلنا القريب من المدرسة وأبتعدت عن حديقة جدى الجميله وجوها الرائع وفى ساحل سليم كنت أسترق السمع إلى الأغانى المنبعثه من راديو " قهوة محروس " وهى قهوة قريبه من منزلنا كانت تستمر مفتوحه الى منتصف الليل فى الليالى العادية ، أما فى ليله الخميس من أول كل شهر فكانت تستمر مفتوحة الى إنتهاء حفلة سيده الغناء العربى أم كلثوم وقد تعارف الشعب المصرى على تسميتها " الست " والست تعبير لعظمة صوت أم كلثوم وقوتة وتعبيرة وجماله وروعته وأنه لايصل الى مكانتها أى سيده فى العالم ، وترامى الى مسامعى من راديو قهوة محروس صوت الست فى روائعها رباعيات الخيام ونهج البردة وولد الهدى وسلوا قلبى وذكريات وقصة الأمس وثورة الشك والنيل والليله عيد وشمس الأصيل وهلت ليالى القمر وهجرتك ورق الحبيب ،

ومنذ أن كنت صغيرا وإلىّ الآن فإن صوت أم كلثوم يجعلنى محلقا طائرا فى السماء ولا أشعر لنفسى بأى وجود على الأرض ،

وأتذكر أنه عندما كنت فى السنة الأولى بالمدرسة الإبتدائية عام ١٩٤٩ أقامت المدرسة حفلا رائعا دعى اليه عبدالمجيد باشا ابراهيم وزير الأشغال فى ذلك الوقت والمعروف عنه أنه من عشاق سماع أم كلثوم وصاحب العبارة الشهيره " نحمد الله أن خلقنا فى عهد به أم كلثوم " ، وغنى فى هذا الحفل أحد طلبه السنة الرابعه وهو على عبدالرحمن غنى أغنية أم كلثوم " سلوا قلبى " وكان صوت على جميلا رائعا وبعد إنتهاء الأغنية صعد عبدالمجيد باشا ابراهيم الى المسرح وأعطى على عشرة جنيهات تعادل ألف جنية بفلوس هذة الأيام وكذلك أهدى له قماش بدلة فاخر وتم تفصيل البدلة على حساب الباشا ، ووعد على بأنه سوف يدخله معهد الموسيقى على حسابه الخاص بعد حصوله على الشهادة الإبتدائية ، ولكن على فضل العمل بالشهادة الإبتدائية فعينه الباشا فى مديرية أسيوط التعليمية ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما وصلت الى الثانوية العامة تم السماح لى بالسهر خارج المنزل ولكن تحت رقابة شديدة من أولاد عمى الأكبر منى سنا ٠ وقد تم السماح لى بالسهر خارج البيت الى الساعة الثالثة صباحا يوم واحد فقط فى الشهر هو يوم الخميس الذى تقام فيه حفلة أم كلثوم ٠

وفى هذة السن كان القلب خاليا رائقا والخيال خصبا والآمال عريضة ٠وفى ليلة حفلة الست كنا نجتمع مجموعة من الأصدقاء فى قهوة " عبده عبدالحافظ " وكانت عبارة عن مبنى حوائطة من الطوب الأحمر والسقف من جريد النخيل وكانت هذة القهوة فى ليله حفلة الست تجمع شتى فئات الناس بساحل سليم ويجمع الكل عامل مشترك واحد هو عشقهم لسماع الست وفى هذة الليلة لاتجد أحدا فى هذة القهوة يلعب طاولة أو ضمنة أو كتشينة ولكن الجميع جاءوا من أجل سماع الست فقط وكانت هذة الليلة اللتى تجمع العشاق هى ليلة الست ٠وعند بداية الحفلة كنت أتمايل طربا مع المقدمة الموسيقية ولكم كنت رائعا وعبقريا وفنانا وعظيما يارياض السنباطى رحمك الله ٠ والمقدمة الموسيقية لرياض السنباطى تجعلنى أدخل فى حالة سلطنة تامة حتى إذا بدأت الست تشدو بصوتها الجميل أكون قد وصلت إلى قمة النشوى ٠ وأستمر على هذة الحالة مطلقا لخيالى العنان يحلق كيف يشاء دون رقيب أو حسيب ٠ إلى نهاية الحفل ٠

وفى الأيام التى تلى الحفل نتكلم عن الأغنية الجديدة كيف كانت الكلمات ؟ وكيف كان اللحن ؟

وفى النهاية نصل الى النتيجة التالية التى وصل اليها جميع عشاق الست " أنتى رائعة ياست حتى لو قلت، ريان يافجل " ٠٠ هذا ماكان لى مع "الست " فى ساحل سليم ٠٠ فلما أنتقلت الى القاهرة عرفت قدماى قهوة التوفيقية وكنت أسمع عنها قبل ذلك ٠ وتوجد قهوة التوفيقية فى شارع عرابى فى وسط البلد ٠ وكنت أذهب الى قهوة التوفيقية كل يوم خميس وأصعد الى الدور الثالث حيث جميع الرواد من عشاق الست ٠ وأجلس فى هدوء حيث يخيم السكون على المكان والأضواء خافتة وينبعث صوت الست جميلا شجيا من جهاز تسجيل من النوع ذو البكرات حيث لم يكن الكاسيت قد ظهر بعد ٠ وأتذكر أن أول مرة ذهبت فيها إلى قهوة التوفيقية كانت الست تشدو برائعتها " ذكريات " والكل فى حالة سلطنة ونشوى وهيام ٠ وعند إنتهاء كل وصلة تضاء الأنوار لمدة عشرة دقائق يطلب فيها العشاق مايريدون من شاى وخلافة من مشروبات ٠ ثم تخفت الأنوار وتشدو الست بوصلة أخرى يرجع فيها العشاق الى ماكانوا عليه من سلطنة ونشوى وهيام٠

وكان طلبة الصيدلة يقضون السنة الإعدادية فى كلية العلوم جامعة القاهرة . وكان يوجد فى شارع بين السرايات أمام الجامعة قهوة بلدى بها راديو . وبالصدفة البحتة أكتشفنا أن إذاعة القاهرة تذيع كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع رائعة الست " رق الحبيب ". فى الفترة من الثانية عشرة الى الواحدة ظهرا . فداومت مع عشاق الست من الزملاء على الجلوس فى هذة القهوة فى نفس الميعاد كل يوم ثلاثاء .

وأعتقد أن واضع برامج الإذاعة فى ذلك الحين كان من العشاق وذواقة للفن الرفيع وأراد أن يمتع الناس بالكلام الجميل واللحن الرائع والصوت العذب الشجى . وأغنية " رق الحبيب " تجعلنى طائرا محلقا فى جو من السعادة والسرور . وأنا أدعو كل من ينشد لحظات من السعادة أن يستمع الى " رق الحبيب " حتى يهيم مع الهائمين عند سماع عبارة " أنعم علية بالوصال " وجمال وروعة شدو الست فى كلمة " الوصال ".

ولما سؤل الفنان العبقرى العابد القابع فى صومعتة رياض السنباطى عن أحب أغانى أم كلثوم الى قلبه أجاب " إنها أغنية رق الحبيب " لحن القصبجي وهذة شهادة من فنان أصيل وعظيم لفنان أصيل وعظيم.

وفى أحد الأيام كنت معزوما عند أهل بيت تتسم علاقتى بهم بالبساطة وعدم الكلفة وعندما وضع طعام الغذاء وإذ بالست تشدو من الراديو بأغنية " رق الحبيب " فإنتابتنى حالة السعادة والسلطنة وتركت المائدة وآويت الى ركن بعيد . فقالوا لى هل لهذة الدرجة أنت فى حالة حب وهيام ؟ قلت لهم نعم أنا فى حالة حب وهيام بالكلمات واللحن والصوت العذب الشجى .

ولما سافرت الى روسيا بدأت أرتاد دار الأوبرا وصالات الموسيقى وأشهد عروض البالية بمدينة كييف . وبدأت أتذوق سماع الموسيقى الأجنبية والموسيقى الكلاسيكية .ولكن لم يزل عشقى وهيامى بصوت الست يسكن قلبى . وفى شهر نوفمبر ١٩٦٦ وكنت فى مدينة كييف جاء يوم الخميس ميعاد حفلة الست . وأتفقنا والزملاء على السهر لسماع الست وعدم الذهاب الى الدراسة يوم الجمعة بالرغم من عدم إقتناعى بالإمتناع عن الدراسة يوم الجمعة لكنى لم أذهب الى الكلية التحضيرية إرضاء لرغبة الزملاء . وهنا فقد حزنت أستاذتنا مدرسة اللغه الروسية وغضبت غضبا شديدا لهذا التصرف غير المسئول ولما ذهبنا الى الكلية يوم السبت وألقينا عليها التحية لم ترد السلام وإذا كان للموسيقار الروسى العظيم تشايكوفسكى بالية باسم الجمال الناعس فإن استاذتنا فى هذا اليوم كانت هى الجمال الغاضب . وأنا من النوع الذى ينقلب حالة عندما يرى الجمال غاضبا أو حزينا . وتمنيت أن أصالحها بالطريقة المصرية الظريفة قائلا " مين

مزعل الجميل ؟ ماتعملش فى نفسك كدة ياقمر • النبى تبسم " لكن إذا كانت أستاذتنا جـلدة وحازمة فى الأحوال العادية •• فكيف تكون فى حالة الغضب •

وذهبت أستاذتنا الى المكتبة وأحضرت مجموعة كتب بها تمارين علـى إسـتخدام قواعد اللغة الروسية وحددت لكل منا مجموعة كبيرة من التمارين وقالت : كل واحد منكم يحل هذة التمارين • ثم أردفت قائلة : هذا آخر يوم لى معكم ولن أقوم بالتدريس لكم لأنكم مجموعة غير جادة وغير ملتزمة •

ولايمكن أن تكونوا قد جئتم من مصر لسماع الأغانى طوال الليل ثم تمتنعون عـن الحضور الى الدراسة وللعلم فإن استاذتنا هذة كانت راقصة بالية فى فرقة بالية جامعـة كييف، وكانت عاشقة للموسيقى، ولكل كان شعارها أن لكل شيء وقتة المعلـوم • وأنـة لايمكن لأى شيء أن يطغى على جدية الدراسة وتحصيل العلم •

وجلست أستاذتنا صامته مقطبة الجبين • وحاول شريف بن الدكتور /رمزى ستينو وكان الدكتور / رمزى استينو وزيرا للتموين ونائب لرئيس الوزراء فى ذلـك الوقـت، وحاول شريف أن يكون لطيفا معها وحدثها باللغة الفرنسية التى يجيدهـا كمـا تجيدهـا أستاذتنا، فردت عليه بطريقة جافة باللغة الروسية " إحنا مش فى حديقة أطفال " • وبمـا أن تربية شريف تربية راقية ولم يتعود على المعاملة الجافة فقد أعتبر أن ما قالتة الأستاذه هو شتيمة وإهانة ما بعدها إهانة • ووجه شريف كلامة لى قائلا أنـا لوسـبت روسـيا ورجعت مصر يبقى السبب الست دى •

وفعلا فإن شريف قد ترك روسيا ورجع الى مصر والتحق بكلية الهندسة جامعـة القاهرة وهو الآن دكتور مهندس وأستاذ بهندسة القاهرة •

ولكن رجوع شريف من روسيا لم يكن بسبب هذة الإستاذة • بل انها حاولت معـه كثيرا لتقنعة بالإستمرار فى الدراسة بروسيا • ولكن كانت هناك عوامل كثيرة أدت الـى رجوعة من روسيا • وأول هذة العوامل أنه لم يستطع التأقلم على عدم رفاهية الحياة فـى روسيا كما أن والدته كانت أسبوعيا ترسل له خطاب تغريه فيه أنه اذا ترك الدراسة فـى روسيا ورجع منها فسوف تشترى له سيارة • خاصة به • وذلك بعكس والده الذى كلمـه مرتين تليفونيا وفى كل مرة كان يحثه على البقاء فى روسيا وإستكمال دراسته بها •

المهم أن أستاذتنا كانت تعلم أننا مازلنا فى بدايه تعلم اللغة الروسية وأننا لن نفـهم كل ماتريد أن تقوله • ولذلك بحثت عن عمنا أبورياض الذى يجيد اللغه العربية بجميـع لهجاتها بطلاقة، ولم تجد أبو رياض • فجاءت بمترجمة تجيد الإنجليزية، ونقلت المترجمة

على لسانها أنها لن تقوم بالتدريس لنا لأننا غير جادين وتصرفنا بالأمس كالأطفال ولم نحضر إلى الدراسة ·

وهنا أعتبر الزملاء أن تعبير كالأطفال إهانة كبيرة وإحتدم النقاش والجدال والزملاء يعترضون على الإهانة والمترجمة تنقل إليها الإعتراض، وهى تشرح وجهه نظرها فى الموضوع والمترجمة تنقل لنا كلامها · وتفسره وطال النقاش والجدال · ولما كنت أنا أكبرهم سنا وأكثرهم خبره بالحياة،

حتى أنها كانت تقول لى أنت أبوهم ومسئول عنهم فى كل شيء · ومن ثم فقد رأيت أنه من الواجب أن أنهى هذا الجدال الذى لا فائدة منه · وقلت للمترجمة أن أستاذتنا تعلم تماما أننا نحترمها ونجلها ونريدها أن تبقى معنا وتقوم بالتدريس لنا وأنه سيكون شيئا محزنا لنا إذا رفضت ذلك، وأن هذا الخطأ الذى أقدمنا عليه لن يتكرر مرة أخرى ·

ونقلت اليها المترجمه حديثى، وهنا فقط ظهر على وجهها الهدوء وزالت عنه علامات الغضب · ونقلت عنها المترجمه قولها " قد تكون الأم أحيانا قاسية على أطفالها ولكن ذلك فى سبيل مصلحتهم "

مرة أخرى أستاذتنا الجميلة ذات الأربع والعشرون ربيعا تعتبر نفسها أمنا وتعتبرنا أطفالها، مقبول منك هذا التعبير هذة المرة يا أستاذتنا ولن نعتبره إهانة ·

وبذلك أنتهت مشكلتنا مع إستاذتنا الشابة الجميلة الإنسانة الجادة المحترمة ·

***

عميد الفكر والأدب
الدكتور / طه حسين

لقد أثر الدكتور طه حسين فى نفسى وفكرى ووجدانى وإرتبطت بفكرة وجدانيا وأنا تلميذ صغير فى المرحلة الإبتدائية فقد سمعت عبارته الشهيرة " العلم كالماء والهواء " عبارة بليغة تحمل كل معانى الثورة على ظلمات الجهل · يريد الدكتور طه حسين باشا أن يقول لجميع المصريين فى عبارتة هذه المعجزة والمعبرة إن من يريد أن يكون مستنيرا فعلية بالعلم ومن يريد أن يكون إنسانا راقيا فعلية بالعلم ومن يريد أن يكون

عبقريا فعلية بالعلم ومن يريد أن يكون مخترعا فعليه بالعلم ومن يريد أن يكون فقيها فعلية بالعلم ومن يريد أن يكون قويا فعليه بالعلم ٠ ويريد الدكتور طه حسين أن يقول للحكومات أتيحوا فرص العلم لجميع طبقات الشعب فإذا منعتم فرص العلم عن فئة من الناس أزهقتم أرواحهم كمنعكم عنهم الماء والهواء ٠وجميع الشعوب والأمم التى هبت من منيتها وأستيقظت من رقدة العدم كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقى فى رائعته " نهج البردة " جميع هذة الأمم التى تقدمت ونهضت وسيطرت على العالم طبقت شعار الدكتور طه حسين " العلم كالماء والهواء " والعلم الذى يقصده الدكتور طه حسين هو تحصيل العلم وتطبيقة فى الحياه وألا يكون الهدف هو الحصول على شهادة بدون تحصيل علم حقيقى أو عن طريق التزوير والغش الجماعى كما يحدث الآن ٠ فإذا منح أحد الجاهلين شهادة تقول أن فلان بن فلان المولود فى التاريخ الفلانى ومن البلده الفلانيه حائز على الشهاده الفلانية فى تصميم وبناء المحطات الفضائية ثم تم إعتماد هذة الشهاده بجميع الأختام المعروفة وذيلت كذلك بخاتم النسر ٠ فلن يصبح هذا الجاهل عالم فضاء بحمله هذة الشهادة حتى ولو ظل يحملها إلى أن تقوم الساعة ٠

إن عبارة " العلم كالماء والهواء " هى تعبير عن وجوب إستمرار الإنسان فى ملازمة العلم والتعليم من المهد الى اللحد ٠ والعلماء والمفكرون والمبدعون والمخترعون يؤمنون بأن التوقف عن التجديد والتطوير هو نوع من الإنتحار ٠ فما بالنا بالتوقف عن التعليم ٠

عرفت الدكتور / طه حسين اشتراكيا ومصلحا إجتماعيا بقرارة الإنسانى مجانية التعليم وهو أول قرار يصدرة عندما تولى وزارة المعارف ٠ وقد أصدر قرارة هذا لمصلحة الطبقة الفقيرة وغير القادرة من الشعب المصرى ٠ ضاربا عرض الحائط بكل ردود فعل الملك فاروق وإمتعاضه من هذا القرار ٠

لقد كان الدكتور طه حسين ثائرا ولكنها ثورة الفكر وليسمح لى القارىء العزيز أن أستعيد العبارات البليغة لأستاذنا المفكر والفيلسوف العظيم الدكتور زكى نجيب محمود فى تعريفه لثورة الفكر " ليست ثورة الفكر كثورة السياسة فيها قعقعة الدبابات، وهزيم الطائرات، وهتاف يثير غبار الطريق، وصياح يهز أمواج الصوت والصورة فى أجهزة الإذاعة لكن ثورة الفكر يغلب أن تجيء كقطرات الماء تنصب على الجلمود الأصم فتحسبها واهنه بلا أثر، وإذ بالأيام تمضى فإذا الجلمود الأصم قد تفسخ وأرهف السمع ليتلقى الرسالة والعجب هو أن ثورات الفكر بصوتها الخافت الهادىء، هى التى تحرك

النفوس على مدى الزمن القصير أو الطويل، لتثور بذلك الهتاف والقعقعة والهزيم فى دنيا السياسة والإجتماع.

والدكتور طه حسين هو صاحب فكر راقى وهو الذى أصدر قانونا يمنع ضرب التلاميذ فى المدارس، وذلك عندما تولى وزارة المعارف وهو صاحب العبارة المشهورة " لو علمت أن مدرسا ضرب تلميذا لفصلت هذا المدرس من الخدمه فى الحال " إن ضوب التلاميذ ياحضرات السادة يخلق إنسانا جبانا مترددا خائفا • ولايمكن لإنسان بهذه الصفات أن يكون مقداما أو مجددا أو مخترعا • لأن الريادة والإقدام والتجديد والإختراع لاتأتى الإ من شجاع غير هياب، ومتحمل للمسئوليه • ولا تأتى من إنسان يقول لرئيسه أحلامك أوامر يافندم، وشخبط أولاد حضرتك فى كراريس المدرسة هى حكم تتزكى بها عقولنا ونفوسنا •

إن الضرب فى المدراس ياسادة يخلق مواطنا مقهورا مهزوما من داخلة • وأذكر وأنا فى المدرسة الأولية أن مدرس الدين كان يضرب التلاميذ بقسوة شديدة وبدون رحمه حتى أن أحد التلاميذ كان يقول لنا أنه يتمنى أن لايكون مسلما حتى يرتاح من هذا العذاب• وعندما نما الى علم المدرس مايقوله تلميذه، لم يراجع نفسه ويغير طريقته ولكنه زاد من قسوته عليه وعلينا • وهذا مدرس دين يفتن التلاميذ فى دينهم بقسوته وغلظته وجبروته، وكم من أمثاله الكثير •

عرفت الدكتور طه حسين ثائرا على الجهل والعجز والتخلف فى تحفتة العظيمة " الأيام " لقد تحدى الدكتور طه حسين عجزة وإعاقته وقهر الصعب وطوع المستحيل، وذلك بالعلم والتعلم والإصرار على العلم والتعلم • وكنت أحس فى كتاب " الأيام " أن العميد يقول لنا تعلموا وأقهروا ظروفكم الصعبه بالعلم وكونوا ذوى إرادة حديدية لأن تحصيل العلم يحتاج الى صبر وإلى إرادة قويه •

وعندما كنا فى الثانوية العامة كانت القصة المقررة علينا هى قصة " شجرة البؤس " للدكتور طه حسين وفى هذة القصة يدفع الأستاذ العميد الشباب دفعا لطلب العلم وقهر الظروف الصعبة وعدم الإستكانة والإستسلام والعجز، وتغيير مافرضتة المقادير على الإنسان بالعلم وعن طريق العلم • ويقول لنا إن العلم لايورث كما أن الجهل لايورث • والعلم والتعلم هما مسئوليه الإنسان الشخصية • وعلى الإنسان أن يكون جادا فى العنايه بالعلم لايحفل بما يجد فيه من مشقة • ولايفتر أمام ما يعترضه فيه من عقبة • وأن يجد لذة فى تذليل المشقات والعقبات والقدرة على إجتيازها تدفعه إلى العمل وتحثه على

المضى فيه ، كما أن العلم لايعرف الكلمة الأخيرة فى مسأله من مسائله وإنما حقائقة كلها إضافيه موقوته لها قيمتها حتى ينكشف البحث عما يزيل هذة القيمة أو بغيرها ،

ويدعو الأستاذ العميد إلى عقل يعرف كيف يفكر وكيف ينتقل من قضيه الى قضيه، ومن مقدمة الى نتيجه، وكيف يضع الأشياء كلها بعد ذلك فى نصابها معتدلا أحسن إعتدال لايعرف التقصير ولا يعرف الإسراف ،ولقد أعجبنى الأستاذ / العميد فى دعوته إلى تكوين عقل يعرف كيف يفكر ، فنحن نعيش فى مجتمعات لاتطيق العقل الذى يحلول أن يفكر ،

وأذكر أننى عندما كنت فى الثانويه العامة ، دخل علينا الفصل مفتش الكيمياء ومن ضمن الأسئلة التى سألها هذا السؤال :كيف تتم نظافه مهبط النحاس قبل عملية التحليل الكهربى ؟ ولقد أشار إلى بإصبعه قائلا : إنت ، قلت له : تتم عملية التنظيف بواسطه صنفرة ، قال بتهكم أنتيل إقعد هتعرفها السنة الجاية ، ولما لم يعرف أى أحد أى إجابه أخرى ، أجاب سيادته تتم عمليه النظافة بواسطه حامض النيتريك المخفف الساخن، وبعد ذلك بيومين جاءنى أحد الزملاء ومعه كتاب الوزارة فى الكيمياء قائلا لى: إن إجابتك كانت صحيحة وها هى مكتوبه فى كتاب الوزراة قلت فى نفسى : ويحك ياسياده المفتش : لماذا سخرت منى أمام زملائى ؟ هل لأنى فكرت فى طريقه غير الطريقة التى تحفظها سيادتك ؟

ولكم أبكانى الأستاذ العميد وأسال مدامعى كلما قرأت له كتابيه العظيمين " الوعد الحق " و " على هامش السيرة " أسلوبه العذب الجذل موسيقاه الداخليه الجميله تصويره الحسى الرقيق لعمليه تعذيب سميه وعمار بن ياسر على يد كفار مكة ذوى القلوب القاسية كالحجارة بل الأشد قسوة ،

ثم تصويره الرقيق الرائع لعمليه ضرب الأقداح ثم فى كل مرة تطلع الأقداح على الشاب جميل الطلعة عبدالله بن عبدالمطلب لكى يذبح برا بقسم أبيه الذى أقسم إن رزقه الله بعشرة من الولد ليذبحن منهم واحدا قربانا وفداء ،

قرأت كتاب " الأم " للأديب الروسى العظيم ماكسيم جوركى ويتناول هذا الكتاب نفس الموضوعات التى يتناولها كتاب الدكتور طه حسين " المعذبون فى الأرض " حيث يتناول كلا الكتابين معاناه الطبقات الفقيرة ويدعو كل كتاب إلى العدالة الإجتماعية بطريقتة الخاصة ، كما قرأت " طفولتى " لماكسيم جوركى وهو شبيه بكتاب " الأيام " للأستاذ العميد لكن الدكتور طه حسين دائما فوق المقارنة ودائما فوق المنافسة والدكتور طه

حسين مؤرخ رشيق العبارة، جذاب الأسلوب، ومحلل إجتماعى وسياسى بـــارع • وأنـــا أنصح كل من يريد استقرارا فى الحكم أن يقرأ كتابيه العظيمين " الفتنة الكبرى عثمان " و " الفتنه الكبرى على وبنوه " حتى يعلم علم اليقين أسباب الفتن والثـــورات والإنتفاضـــات كىيتلآفى تلك الأسباب ويرفع الظلم عن المظلومين ويسعى الى تحقيق العدل الإجتمـــاعى حتى يعم الرخاء والإستقرار •

قرأت فى مطلع شبابى للأستاذ نجيب محفوظ " بدايه ونهايـــه" وبيـــن القصريـــن وثرثرة على النيل ••••الخ وروايات الأستاذ نجيب دراما مأساويه قاسية علـــى نفســـى وتصيبنى بإكتئاب شديد فجميع أبطال روايات الأستاذ نجيب من القتلة والسفلة والســـفاحين والأنذال والمستضعفين وفى النهايه يدمر الأستاذ نجيب أبطال رواياته تدميرا بشعا • وأنـــا لا أنسى أبدا أبطال " بدايه ونهايه " كيف سحقهم وأبادهم الأستاذ نجيب حتـــى الأخ الـــذى دخل الكليه الحربيه وتخرج ضابطا وتوقعنا أن يكون على يدية خير وسعادة الأسره جعلـــة الأستاذ نجيب ينتحر بطريقة مأساوية •

وأنا إلى الآن لا أستطيع أن أشاهد فيلم " بدايه ونهايـــة " وعندمـــا يعـــرض فـــى التليفزيون أسرع مبتعدا، حتى لا أصاب بالغم والنكد والإكتئاب •

شاهدت فى روسيا فيلم " القاهرة ٣٠ " بطولة الفنانة الشاملة المصريـــة الأصيلـــه سعاد حسنى مع الفنان أحمد مظهر والفنان حمدى أحمد وكان الفيلم مدبلج وناطق باللغـــه الروسية وبالرغم من أنه فيلم مأساوى مثل جميع روايات الأستاذ نجيب محفوظ إلا أننـــى شاهدته ثلاثة مرات فى ثلاثه أيام متتالية، وذلك ليس حبا فى مشاهدة المأساة ولكن أعجبت بطريقة تقليد الأصوات حتى أننى صدقت أن سعاد حسنى وأحمد مظهر وحمـــدى أحمـــد يتكلمون اللغة الروسية • وفى آخر مرة شاهدت الفيلم بصحبة زميلـــه روســـية • وبعـــد الخروج من السينما، قالت لى الزميله هل يمكن أن يحدث ذلـــك فـــى القـــاهرة ؟ أنـــا لا أصدق؟• قلت لها وأنا فى منتهى الخجل : هذا خيال المؤلف وخيال المخرج ••

وعجبا أيما عجب لبعض المشايخ والجماعات لمهاجمتهم الدكتـــور طـــه حســـين وإتهامه بالكفر والإلحاد إقرأوا ياحضرات السادة كتب الأستاذ العميـــد " علـــى هـــامش السيرة، الوعد الحق، ومرآة الإسلام، والشيخان " حتى تعلموا دفاعه عن الأسلام ودعوتـــه له •

فى أحدى الإمسيات كنت أستمع مع صديقى الشيخ هاشم الى إذاعة القاهرة، وكانت هى الصلة الوحيده بمصرنا الحبيبة، كنا نستمع إلى أغنية لسيده الغناء العربى أم كلثـــوم •

وبعد نهاية الأغنية قالت المذيعة : لقد أستمعنا سيداتى وسادتى من أم كلثوم إلــى قصيــدة النيل وهنا صاح الشيخ هاشم وكانت له إهتمامات بالشعر، وصاح قائلا : إنها من تـــأليف حافظ ابراهيم ٠ وقلت له يامولانا الشيخ إن لقب حافظ أبراهيم هو فعلا شاعر النيل ولكــن قصيدة النيل هى من شعر أمير الشعراء أحمد شوقى، وجادلنى الشيخ هاشم طويلا مصـروا على أنها شعر حافظ ابراهيم ٠ وأخيرا قلت له إستمع الى هذين البيتين يامولانا :

ألقت اليك بنفسها ونفيسها ٠:٠ وأتتك شيقة حواها الشيق ٠

خلعت عليك حيائها وحياتها ٠:٠ وهل أعز من هذين شيىء يخلع ٠

وقلت له يامولانا مع حبى لحافظ ابراهيم وكلماته الطنانة الرنانة فإنه لايسـتطيع أن يأتى بمثل هذين البيتين وإن هذا الشعر لايقوله غير أمير الشعراء فهو فوق المقارنة وفوق المنافسة ٠

كنت أعرف أن الدكتور طه حسين قد هاجم فى شبابه الشاعر أحمد شوقى هجومـا قاسيا ٠ وقد ألمتنى قسوه الأستاذ العميد على أمير الشــعراء لأن هنــاك قصــائد كثـيرة لايستطيع أن ينظمها إلا أمير الشعراء أحمد شوقى، مثل ولد الهدى، سلوا قلبـــى، ونـــهج البردة، وسلوا كؤوس الطلا ٠ وغيرها وغيرها الكثير

***

الفونوغراف - الأوبرا - الكلاسيك - البالية

لست أدرى لماذا وأنا أستعد للكتابة فى هذا الموضوع تلح على خيالى، وتفــرض نفسها على فرضا أغنية الست " ياللى كان يشجيك أنينى :٠ فى البكاء وأنت معاية " وأنـــا الآن سعيد كل السعادة بهذا الإلحاح وذلك الفرض الذى تلح به وتفرضة أغنية ياللى كـــان يشجيك أنينى ٠ ليس بجانبى جهاز راديو ولا جهاز تسجيل ولا أستمع إلى الأغنية حقيقـة، ولكننى أحس بها وتملأ خيالى وأسرح وأهيم فى دنيا الخيال وأتسلطن أى أحس بأنى أسعد من أى سلطان فى العالم، سعادة أيما سعادة، وسلطنة ما بعدها سلطنة ٠ ألم أقل لكم أننـــى من عشاق الكلمة الجميلة واللحن الجميل والنغم الحلو والصوت الساحر وآة ثـــم آه مـــن الصوت الساحر، فأنا أعشق الإستماع إلى الكلام من الصوت الساحر ٠ ولايهم أن يشـــدو

الصوت الساحر بأغانى ، لكن يكفينى أن أستمتع بالإستماع إلى الصوت الجميل متكلما ، بل لا أكون مغاليا إن قلت إنى أعشق الصوت الجميل حتى لو كان شاتما ،

وأذكر عندما كنت إؤدى إمتحانات الثانوية العامة بمدينة أسيوط وكانت لجان الثانوية العامة على أيامنا لاتعقد إلا فى المحافظات ولا تعقد أبدا فى القرى أو المراكز . كنت أسكن فى بيت فى مدينة أسيوط يترامى إلى مسامعى من بيت مجاور له صوت شابه تنادى على صبى قائلة " ياواد ياحسن يا إبن العرص" ولكن كان صوتها ساحرا وجميلا بالرغم من سوء أدبها وكان يطربنى صوتها بالرغم من عبارتها البذيئة ، ولماذا نذهب بعيدا، ألم تكن الفنانة تحية كاريوكا فى شبابها تكيل دائما سيلا من الشتائم فى أفلامها، ولكنها كانت ظريفة دائما ودمها خفيف وصوتها جميل ومدلع حتى فى الشتائم وكان لها عشاقها ومريديها ، ويسحرنى صوت سيدة الشاشة العربية فاتن حمامه وكذلك صوت الفنانة القديرة نجلاء فتحى والسوبرانو عفاف راضى غناءا وحديثا ، ألم يقل أمير الشعراء متغزلا فى صوت محبوبتة الجميل فى قصيدتة الرائعة " سلوا كؤوس الطلا " التى شدت بها الست ،:

حديثها السحر ،، إلا أنه نغم

جرت على فم ،، داوود فغناها

هذة كانت ومازالت حكايتى مع الأصوات الجميلة الساحرة وسلطانها على نفسى ،

بعد أن أستمعت الى الموسيقى والأغانى الجميلة من الفونوغراف الذى كان يحضرة خالى معه من القاهرة أصبحت إحدى أمنياتى وأنا صبى صغير أن يكون لى فونوغراف مثله ، ولكن لم تتحقق لى هذة الأمنية إلا بعد أن سافرت إلى روسيا ،

وقد هرع زملائى إلى شراء المعدات الكهربائية من مكانس وماكينات خياطة وخلاطات وخلافة ،، أما أنا فقد جاءتنى الفرصة لتحقيق أمنيتى وأول شيىء أشترية هو بيك أب ، ومجموعة أسطوانات أخترتها إختيارا عشوائيا لأننى لم أكن أعرف اللغة الروسية ولم أستطع أن أقرأ مدلول هذة الإسطوانات ، كما لم أستطع أن أطلب شيئا محددا لأن البائعات لايتحدثن إلا اللغة الروسية ،

وكان البيك أب رخيص الثمن لايتجاوز سعرة إثنى عشر جنيها مصريا ، كما أن ثمن الإسطوانة الواحدة فى حدود خمسين قرشا مصريا ،

ولقد فرحت بالبيك آب والأسطوانات أيما فرح وسعدت بهم أيما سعادة • وكان مسجلا على غالبية الأسطوانات أغانى روسية موسيقاها جميلة وبصوت مغنيات أجمل ولم أكن أفهم شيئا من معانى هذة الأغانى ولكننى كنت أستمتع بالموسيقى والأصوات • وشيئا فشيئا مع التدرج فى تعلم اللغة الروسية بدأت أفهم معانى كلمات هذة الأغانى • وكان من ضمن هذة الأغانى أغنية جميلة تستعطف فيها الحبيبة حبيبها قائلة : طب حتى قوللى أسمك ايه ؟ وكان من ضمن هذة الأسطوانات أسطوانة بها أغانى باللغة الإنجليزية تؤديها كريستين كيللر وهى بطله الفضيحة المدويه مع وزير البحرية البريطانى بروميفو فى عهد رئيس الوزراء ماكميلان وقد أدت هذة الفضيحة إلى إستقالة وزير البحرية كما أدت إلى إستقالة حكومة ماكميلان •

تقول كريستين فى هذة الأسطوانة بطريقة مبتذلة أنا إسمى كريستين :• أمال إنت أسمك أيه ؟ مصاحبة كلامها بتأوهات وشهقات وتنهدات خليعة للغاية • ورويدا رويدا بدأت أرتاد دار الأوبرا بمدينة كييف وأستمع إلى روائع الموسيقى فى أكبر صالة عزف للموسيقى كما كنت أشاهد عروض البالية على مسرح البالية بمدينة كييف • وكل ذلك بفضل وبمصاحبة أستاذة لغة روسية رائعة الجمال، وغاية فى الرقة • وكذلك بمصاحبة بعض الزملاء الذين لهم مثل هذة الإهتمامات وقليل ما هم •

حقا إنها لم تكن إستاذتى، ولكن كان لها إهتمام كبير بالفنون والموسيقى والمسرح• وكانت هذة الأستاذة متزوجة من طبيب يعمل على إحدى السفن التجارية التى تجوب أعالى البحار ومن ثم فقد كان لديها وقت لإرتياد المسارح وصالات الموسيقى ودار الأوبرا ومشاهدة عروض البالية كل يوم سبت من كل أسبوع •

وكانت تقرأ لنا خطابات زوجها التى يرسلها إليها • وفى إحدى المرات أرسل لها خطاب يقول فية إن سفينتة عبرت قناة السويس • ولكم فرحنا عندما سمعنا إسم قناة السويس • ألم أقل لكم أن الوطن غالى، وأن أى شيء يذكرنا بمصرنا العزيزة يسعدنا ويفرحنا •

كل ذلك طبعا كان فى شتاء ١٩٦٧ وقبل حرب يونيو وإغلاق القناة • وبعد أن شاهدت ما شاهدت وسمعت ماسمعت، وسعدت أيما سعادة، وأستمتعت أيما أستمتاع • قلت لنفسى لقد فتحت لك ليلة القدر يا أيها الصعيدى • فبعد أن كنت تسمع المواويل، والإنشاد الدينى فى الأذكار والطبل البلدى والمزمار • ها أنت تستمتع بمؤلفات أعمالك تشايكوفسكى وبتهوفن، وخاتشاتوريان، وكورساكوف، ورحمانينوف،وموتزار •

وبفضل هذة الأستاذة الجميلة الرقيقة العاشقة للفنون بدأت أستمتع بهذة الفنون وأتذوقها ، ماعدا الأوبرا فإنها أخذت منى وقتا حتى بدأت أستسيغها ، ولكن أوبرا عايدة دخلت قلبى ووجدانى من أول مرة ، ولقد تسلطن عمنا فردى فتعبقر فأبدع فأجاد فأمتعنا بهذة الأوبرا الجميلة الفريدة ،

ولقد حزنت حزنا شديدا عندما أحترقت دار أوبرا القاهرة ، فقد كانت دار للفن الراقى لايرتادة إلا المتحضرون ذوى الذوق الرفيع وليست مسرحا هزليا يتم فيه شرب البيرة وقزقزة اللب ، والله يرحمك يا إسماعيل باشا ياخديوى مصر فعلى يديك عرفت مصر هذة الفنون الراقية وفى عهدك أفتتحت دار الأوبرا المصرية ، ولكن هذا حظك فقد غرر بك المرابون، وأضاعك النصابون المقامرون والمغامرون ، وعندما يذكر إسم أوبرا عايدة، فحدث بلا ملل، روعة وجمال الموسيقى، وعظمة وجمال عايدة، رقة وحسن ووفاء جوارى عايدة، فداء وشجاعة وتضحية عاشق عايدة، والجو الفرعونى المصرى البهيج الذى جرت فية أحداث عايدة ،

وعندما أقيم مهرجان أوبرا عايدة بمدينة الأقصر آتى إليها عاشقوا مصر والأبرا من كل فج عميق ،وفى إحدى المرات كنت أستمع للموسيقى فى غرفة الزميل على مخلوف رحمه الله ، وعجبت وأنا أستمع للمقدمة الموسيقية لمسلسل ألف ليلة وليلة ولكن موسيقى فقط بدون أصوات الكورس التى تردد : ألف ليلة وليلة ..... ألف ليلة وليلة ،

فقلت لعلى : إن هذة الموسيقى مقدمة مسلسل ألف ليلة وليلة قال لى فعلا ولكن هذة الأسطوانة هى إحدى ثلاث إسطوانات لبالية شهرزاد تأليف الموسيقار الروسى العظيم كورساكوف ، فهل تم لطش وسرقة مقدمة شهرزاد وأضيف إليها ترديد الكورس لجملة ألف ليلة وليلة :، ألف ليلة وليلة ؟ لوحدث هذا فإن ذلك هو عدم أمانة وتزوير وسرقة علنى ، وأقول للقارىء العزيز للأمانة إن المقدمة الموسيقية لألف ليلة هى من موسيقى بالية شهرزاد للموسيقار الروسى كورساكوف وليست من تأليف أى موسيقى مصرى ، وتنقلنا موسيقى بالية شهرزاد إلى عصر هارون الرشيد وإلى سحر الشرق وليالى المدام وجوارية الحسان ، ولما أنتقلت إلى مدينة اسطراخان وهى مدينة صغيرة تقع على نهر الفولجا ولكنها لاتضارع مدينة كييف فى رقيها وحضارتها ، فلم يكن بها دارا للأوبرا ولا مسرحا للبالية ولكن كان بها قاعة كبيرة للموسيقى تأتى إليها فرق زائرة من جميع أنحاء الإتحاد السوفيتى ومن بلدان أوربا الشرقية لإقامة العروض الفنية الراقية وكذلك عروض الفنون الشعبية ، تعرفت أثناء إرتيادى لقاعة الموسيقى على زميلتين، شابتين، جميلتين،

تدرسان فى نفس المعهد ولكن فى كلية أخرى . والظريف أن هاتين الفتاتين كانتا دائما بصحبة بعضهما البعض ولاتترك إحداهما الأخرى، ولم أجد إحداهما تمشى بمفردها أبدا. جمعنى بهاتين الفتاتين حب الموسيقى . وصارت بينى وبينهما علاقة صداقة فريدة وعجيبة . لاألتقى بهما إلا لأدعوهما إلى حفلة موسيقية . ولايلتقيان بى إلا لدعوتى إلى حفلة موسيقية . ونجلس متجاورين فى القاعة نستمتع بسماع الأغانى والموسيقى وفى الإستراحة نشرب مشروبا دافئا مع تناول بعض الحلوى . ثم نستأنف الجلوس والإستمتاع وبعد إنتهاء الحفل أودعهما ثم يذهب كل منا إلى حال سبيلة . ودام بنا هذا الحال إلى أن تخرجت ورجعت إلى مصر . وكلما تذكرت حالى مع هاتين الفتاتين أقول إن لعشاق الفن حقا أحوال عجيبة .

وأنا فى السنة الرابعة بكلية الميكانيكا علمت أستاذة للفسلفة بالمعهد عن مدى إهتمامى وحبى للموسيقى، فتحدثت معى فى الحضور لزيارتى هى وإبنتها طالبة الطب التى لها نفس الإهتمامات الموسيقية . وحضرت الأستاذة بصحبة إبنتها . وأسمعتهما مقتطفات مما عندى من موسيقى كلاسيك .وأهديت إليهما بعض السيمفونيات، كما أهدتنى هى بعض الكتيبات التى بها تعريف وشرح للسيمفونيات والباليهات .

فكرت فى الإلتحاق بمعهد الكونسارفتوار بالقسم المسائى ولكن صعوبة الدراسة بكلية الميكانيكا حالت دون تحقيق هذة الرغبة .

وفى ليلة من ليالى الأنس إستمعت فى قاعة الموسيقى إلى فرقة زائرة جاءت من مدينة فولجا جراد وأستمعت الى سوبرانو رائعة عزفت نغما وتقاسيما بحنجرتها جعلتنى أدخل فى حالة السلطنة وأقول الله أعد . وتسلطن جميع رواد الحفل من الروس وصفقوا طويلا مرددين : أعد ... أعد وأعادت السوبرانو التقاسيم وتسلطن الجميع . وبعد إنتهاء الحفل وعودتى إلى غرفتى تلازمنى حالة السلطنة . حكيت للزملاء ماكان منى ومن السوبرانو فظنوا أنى مسطول وشارب جردل من خليط الفودكا والكونياك،قلت والله ما أنا بشارب، ولكنها سكرة الفن وشدة الوجد والهيام .

وما زالت تنتابنى سكرة الفن هذة وأنا أستمع واستمتع بصوت الفنانة الساحرة ماجدة الرومى . فهى جميلة الشكل حلوة الصوت والتعبير والآداء . أحبها الجمهور المصرى ايما حب، واستمتع بها أيما إستمتاع وصفق لها أيما تصفقيق وتعلق بها وبفنها الراقى أيما تعلق .

يطربنى صوت الشيخ مصطفى اسماعيل فهو صوت جميل كله نغم • والشيخ مصطفى ذواقة لمعنى الكلمة وصاحب مدرسة فى الجملة القصيرة ويعطيها حقها بصوتة الساحر ولحنة الشجى وسواء ماكان تيلوة الشيخ مصطفى ترتيلا أو تجويدا فهو طرب فى طرب •

ويجعلنى الشيخ مصطفى فى حالة سلطنة وهيام تفوق حالة السلطنة والهيام التى تصاحبنى وأنا أستمع إلى الست • ومنذ حوالى ثلاثين سنة وكنت أيامها مازلت أدرس فى روسيا • أستمعت إلى برنامج إذاعى أعتقد أنة برنامج " سهرة مع مستمع " وكان ضيف هذا البرنامج هو الشيخ مصطفى اسماعيل رحمه الله، وتكلم الشيخ مصطفى بإستفاضة عن الموسيقى وعن الألحان والتلحين، وكان حديثة هو حديث العالم بأسرار هذة الفنون • ثم قال الشيخ مصطفى إن لحن أغنية ياظالمنى التى تغنيها الست هو لحن أخذة رياض السنباطى من طريقة آداء الآذان التى يؤذن بها الشيخ مصطفى اسماعيل • هذا طبعا كلام الشيخ مصطفى ولنترك الحكم للقارىء العزيز •

صوت الشيخ محمد رفعت هو صوت من الجنة • وهو صوت حينما أسمعة أشعر أننى فى رحمة الله ومعيتة • ويضفى على نفسى الشيخ رفعت حالة من السكون والهدوء والطمأنينة • ويذكرنى صوت الشيخ رفعت دائما بشهر رمضان وليالى شهر رمضان •

الشيخ عبدالباسط عبدالصمد بلبل يغرد، وصاحب نفس طويل، وله طريقته الحلوة فى قراءة القرآن الكريم، وعندما يقرأ الشيخ عبدالباسط عبدالصمد فإنة يستولى على آذان السامعين وقلوبهم وعقولهم • وتسمع كلمات الإعجاب من الناس راجين ومتوسلين الإعادة من الشيخ عبدالباسط عبدالصمد • ولكم أمتعتنا ياشيخ عبدالباسط بصوتك العذب الجميل، رحمك الله رحمه واسعة وأسكنك فسيح جناته •

يبكينى فى خشوع صوت الشيخ أبوالعنين شعيشع، فهو صوت معبر يجعلنى أعيش أحداث القصص القرآنى، كأنى أشاهدها وأتمثلها وأحس بها •

فى بداية الستينات وعندما كنت أدرس الصيدلة بجامعة القاهرة، وكانت هذة الفترة تمثل فترة الشباب، حيث الطموحات واسعة والآمال عريضة، والبال خال، والمزاج رائق • كان لى شلة فى هذة الفترة من زملاء الكلية ولهم إهتمامات فنية وأدبية وأذكر منهم الزميل حنفى شاكر وكان لحنفى محاولات فى كتابة الشعر •

وقد تنبأ حنفى بما سوف يكون علية حال البنات والبنين فى الأجيال القادمة وأذكر لة بيتا يقول فية :

بكرة تيجى الكلية ببنطلون وبلوزة ٠٠٠٠ وزميلتك تقعد على القهوة وتشد فى الجوزة ٠

ولقد تحققت نبوءة حنفى ٠ وأصبح الشباب يلبسون بنطلونات البنات وعليها بلوزات الستات ٠ أما البنات فإنهن يرتدن المقاهى والبارات ويشددن الشيشة والجوزة ويشربن جميع أنواع المخدرات والمكيفات

وجميع أفراد الشلة كانوا من الظرفاء وكنا جميعا لانطيق الغلاسة ولا الغلساء ومن ضمن الشلة كان الزميل خوفو من السودان والزميل سلمان الفارسى من السعودية ٠ وكانت الشلة تضم المسلمين والأقباط، وكنا لانجد حرجا فى الدخول معهم الى الكنيسة والإستماع إلى موعظة، وكذلك هم كانوا لايجدون حرجا فى زيارة سيدنا الحسين ٠

وكنا قبل الأعياد نكتب على السبورة الموجودة بمدرج المحاضرات فى القصر العينى القديم " سوف تكون السهرة الليلة فى قهوة الفيشاوى الساعة التاسعة مساءا والدعوة عامة " ٠

ونتجمع فى قهوة الفيشاوى نمرح ونلعب ونهرج ونشرب الشاى وندخن الشيشة كنوع من الدلع والإنطلاق والحرية فى ليلة العيد ٠ويتجمع فى قهوة الفيشاوى شلل كثيرة فى ليلة العيد تأتى للمرح والتهريج والترويح عن النفس فى ليالى العيد المفترجة ٠

وكانت الحياة فى الستينات بسيطة ورخيصة، والشعب المصرى عاشق للنكته والقفشة والقافية ٠ وفى ليلة العيد فى قهوة الفيشاوى تجد إثنين من الشباب كل واحد منهم واقف على كرسى أمام الأخر، وهم يتبادلون القافية، وينضم إلى كل واحد منهم شلة تشجعة وتصفق له، وليس مهما أن يعرف أفراد الشلة بعضهم بعضا أو يعرفون الشخص الذى يشجعونة أو يصفقون له، ولكنه المرح والتهريج ومهما كانت القافية ساخرة ولاذعة فهناك الضحك والسعادة، فلا نكد ولازعل فى ليلة العيد ٠ ويستمر الحال على هذا المنوال فى ليلة العيد حتى آذان الفجر، فنصلى الفجر فى سيدنا الحسين ثم نرجع الى مساكننا لنستسلم لنوم طويل ٠ وبمناسبة ولع الشعب المصرى بالقفشة، أذكر

أننى كنت أشاهد أحد أفلام اسبوع الفيلم الهندى بسينما كايرو فى حفلة العاشرة، وبدأ عرض الفيلم والسينما فى حالة سكون والمشاهدون فى حالة استمتاع ٠ وإذا بإحدى السيدات تقف وتكيل للجالس خلفها سيلا من أقذع الشتائم وتكهرب جو السينما، وإذ بأحد الظرفاء يصيح فى آخر الصالة معلهش ياست زى أخوكى ٠وضج المشاهدون بالضحك وغيرت السيدة مكانها وعاد السكون إلى السينما، فهذة قفشة ظريفة حلت مشكلة كبيرة ٠

اليوجا والسيمفونيات

عندما سافرت إلى روسيا كنت أصحب معى كتابين فى اليوجا • واليوجا علم هندى قديم • يعتمد على ممارسة تمرينات رياضية خاصة تفيد جميع أعضاء الجسم وتحافظ على الصحة والقوة والشباب • كما تحافظ على هدوء النفس وطمأنينتها • فهذة التمرينات تفيد الكبد والجهاز الهضمى والقلب والدورة الدموية وتساعد الغدد الصماء على القيام بوظائفها الحيوية الهامة • كما تفيد التمرينات فى علاج مرض السكر وإرتفاع ضغط الدم • ولما كنت من هذا النوع من الناس الذى يعيش على أعصابه ويعانى من القلق والأرق والتوتر • وكل ذلك لأننى كنت أنشد المثالية فى حياتى وفى سلوك الغير • وجميع الأمور بالنسبة لى واضحة فالخطأ واضح والصواب واضح والحلال بين والحوام بين، وجميع الناس يعلمون حقائق كل هذة الأمور • أما سلوك الناس فتحدده مصالحهم الذاتية، وفائدتهم الشخصية فقط • وبما أننا نعيش وسط هؤلاء الناس فلابد أن نتعامل معهم سواء أردنا أم أبينا • ويصطدم الإنسان يوميا فى معاملاته بالكذب والضلال والغش والخديعة والغدر والخسة والدناءة والتلفيق والتدليس والوشاية والدسيسة والوقيعة • فمن أين تأتى الطمأنينة ويأتى السلام النفسى • ومما لاشك فيه فإن أمراض المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان ويتعايش معه تؤثر فيه، وهذة الأمراض تطحن الفرد بالمشكلات، وتقض مضجعه بالمنغصات ولايمكن لأى كائن من كان أن يقول إن هناك فردا يتمتع بالطمأنينة والسلام النفسى وهو يعيش فى مجتمع مبتلى بتلك الأمراض، حتى لو كان هذا الفرد من الصالحين والرهبان والقديسين • ويفرز المجتمع المريض، المرضى النفسيين والمجانين والبلطجيه ومدمنوا المخدرات والشواذ والسفاحين • وبفضل الله ورعايته، لم أحاول أن ألجا إلى المهدئات والمنومات حتى فى أشد وأقسى حالات الإحباط • وهدانى الله لقراءة القران والتأمل فى عبره وقصصه وعندما يشتد بى الضيق وتغلق فى وجهى المنافذ والأبواب ألجا إلى كتاب الله فهو هدى ونور وأدعو الله مفرج الكروب، وأتمثل قول لقمان لإبنه وهو يعظه كما جاء فى القرآن الكريم " وأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور " وكثيرا ما لجأت إلى كتب التصوف التى كانت فى حوزه والدى رحمه الله، وأهرع إلى قراءة كتب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى رحمه الله وهو أكبر قوة عقلية وفكريه كما وصفه الأستاذ العقاد رحمه الله وأقرأ فى أبواب الصبر والتعلم، ورويدا رويدا تسرى إلى نفسى السكينة وإلى إرادتى القوة وأمسك زمام أمرى وأشد الرحال إلى الكفاح

من جديد ٠وبجانب القرآن الكريم وكتب التصوف فقد أفادتني ممارسة تمرينات اليوجا كثيرا، وأدخلت علىصحتي وأعصابي تحسنا ملحوظا ٠

ولم أكن أطمع بممارسة تمرينات اليوجا أن أصل بنفسي إلى حالة اليوجي المعجزة الذي يستطيع أن يوقف قلبه، ويتحكم في ضغط دمه كما يريد، ويصوم شهرا عن الطعام والشراب ٠ لا ٠ لم تكن حاله اليوجي المعجزة هي هدفي ٠ ولكن كان هدفي أن أكون سويا ومعتدلا ٠ وغير عليل ٠٠٠٠كفانا الله وإياكم شر الأمراض ٠ وأنا من النوع الذي يحب إن وجد في شيء خيرا، أن يعرضه على المعارف والأصدقاء لعلهم يجدون فيه خيرا كما وجدت ٠ ومن ثم فقد عرضت على زملائي كتابي اليوجا اللذين معي ٠ واستعارهما أحد الزملاء واعدا بقراءتهما وإعادتهما إلي ٠ وقد أعارهما هذا الزميل إلى زميل أخر مع وعد منه بإعادتهما، ثم أعارهما الثاني إلى زميل ثالث ورابع وهكذا ٠٠٠ وطالت مدة الإستعارة، وبدأت أسأل عن هذة الكتب التي أعتز بها أيما إعتزاز ٠ وبدأت أسأل فين الكتب ياسمير ؟ ٠٠٠ لقد استعارهما مني أمين فين الكتب يا أمين ؟ لقد أخذهما مني بنيامين ٠٠ فين الكتب يا بنيامين ؟ ٠٠ أسأل عنهم أخوك شيرين ٠ فين الكتب ياشيرين ٠٠؟ بيقرأهم فاسيلي بتروفيتش كوهين ٠وعندما وصلنا إلى فاسيلي بتروفتش كوهين أيقنت أن الكتب قد ضاعت بلا رجعه، فكيف يقرأ كوهين اليهودي الروسي كتبا في اليوجا باللغه العربية ٠ وطبعا لم يكن أحدمن الزملاء يدعى أمين ولابنيامين ولا شيرين، إنما ذلك معناه أن الكتب ذهبت من يد الى يد حتى أختفت للأبد ٠

وأسفت لضياع هذين الكتابين فأنا من أشد المعجبين بفلسفه اليوجا ٠ وفي صيف سنه ١٩٧٠ كنت في إجازة بالقاهرة ووجدت إحدى المكتبات في شارع شريف تعرض كتابا بعنوان " اليوجا طريق الصحة والسعادة والشباب" وأندفعت لشرائه وكأنني عثرت على كنز وكان ثمن الكتاب زهيدا ، الثمن ٣٥ قرشا وهذا الثمن لايشترى ساندوتش طعمية الآن ٠فأسعار الكتب الآن نار كما يقول المثل المصري ٠ وهذة الأسعار الباهظة ليست في متناول الطبقات الفقيرة الكادحة ٠

وللحق فإن مهرجان القراءة للجميع تحت رعاية السيدة / المهذبة الراقية الواعية سوزان مبارك هو من أرقى المشروعات الثقافية والحضارية التي شهدتها مصر في نهاية القرن العشرين ٠ ولقد أشتريت من مكتبه الأسرة روايه " أيام عصيبة " وهي من إبداعات الأديب الإنجليزي العالمي تشارلز ديكنز، بمبلغ خمسون قرشا وهذا المبلغ زهيد جدا وفي متناول الجميع ٠ وسوف يذكر لك الشعب المصري ياسيدتي إهتمامك ورعايتك لهذا المشروع الإنساني الحضاري ويدعو لك الله بدوام الصحة والعافية والسعادة ٠ وكتاب

نـ حـا " طريق الصحة والسعادة والشباب من تأليف " أباباتت " السفير الهندى بالقاهرة فى ذلك الوقت مع مقدمه رائعة بقلم الدكتور حسن عباس زكى ، وزير الإقتصاد المصرى السابق يقول فيها : هذا الكتاب يقدم للقارىء العربى نظام لتربية الجسم والحفاظ عليه ووقايته من العلل والأمراض، ليظل صاحبه مقبلا على الحياه راضيا بها، مستمتعا بما فيها، قادرا على العمل والإنتاج، مبتهجا فى غير إبتئاس، مؤديا رسالته فى غير تبرم أوضيق ، ويتمثل هذا النظام فى تمرينات متعددة وصالحة لكل الأعمار، وتؤدى دون الحاجة إلى مساعدة، وفى أى مكان، وبغير مجهود أو وقت كبير، وتتدرج هذة التمرينات بمن يمارسها تدرجا من شأنه إتصال الأول بالثانى وهكذا ، حتى التمرين العاشرة، ولكل تمرين منها أثرة فى جهاز من أجهزة الجسم، وكلها مجتمعه تشحن الجسم بطاقات تجدد خلاياه وتمنحه القدرة الكافيه على مواصله العمل، والإحساس ببهجة الحياة وجمالها، حيث تكون التمارين وحدة واحدة يسرى مفعولها إلى سائر أجزاء البدن ، فسلامة الجسم هى المفتاح إلى سلامه التفكير، وإلى تقويم الخلق، وتفتح الأفكار وأتساع الأذهان وتهذيب المشاعر والأحاسيس ، أما المعتلون جسميا فهم أقرب إلى الإنحراف ونظرتهم إلى الحيله مشوبة بالضجر والتبرم والتشاؤم، ويعيشون فى عزلة وانطواء وسرعان ما يفقدون القدرة على الألتحام والمشاركة فى تحمل المسئوليات ويعجزون عن الخلق والإبتكار ،

ولعل من أسباب إرتداد الشرق وتقهقرة وجمودة عن السير بنهضته إلى غاياتها هو تقاعس أهله عن العنايه بالثروة البشرية ، ومن هنا يجب أن نبنى طاقاتنا البشرية على أساس متين من صحة الجسم ، فهذا البناء يساعدنا فى مداومة العمل وزيادة الإنتاج ،

قرأت كتاب اليوجا وبدأت أمارس التمارين الموجودة به تدريجيا ، ومنذ البداية فقد كان لهذة التمارين فعل السحر، فقد أحسست بالنشاط يتدفق إلى جسمى والهدوء ينساب إلى نفسى ووجدتنى أصبح صبورا على تحصيل العلم، جلدا على تصميم ورسم المشروعات، قادرا على الوقوف والرسم لمدة أربعه ساعات متوالية دون كلل أو ملل ،

أما مشروع التخرج فقدكان له إستعداد خاص، فبجانب ممارسة تمرينات اليوجا التى تقوى العمود الفقرى وتنشط الذاكرة، كان لابد من الوصول إلى حالة المزاج الرائق، وسماع الموسيقى هو الشىء الوحيد الذى يصل بى إلى هذا المزاج الرائق ، إستعدادا للبدء فى تصميم ورسم مشروع التخرج، فقد أشتريت بيك أب جديد ومجموعه من إسطوانات السيمفونيات والباليهات والأوبرات ، وبدأت أعمل فى المشروع وأنا أستمتع بابداعات بحيرة البجع، وكسارة البندق، والجمال الناعس لعمنا الموسيقار الروسى العبقرى تشايكوفسكى، وكذلك الإستمتاع بشهرزاد لعاشق الشرق وليالى ألف ليله وليله لعمنا

الموسيقار الروسى الحالم كورساكوف وكذلك الإستمتاع بالسيمفونية الخامسة والتاسعة للموسيقار المعجزة عمنا بيتهوفن . أما عن عايدة فحدث بلا ملل عن عمنا فردى عاشق الحضارة الفرعونية ولقد كان لليوجا والموسيقى فعل السحر فى إنهائى لمشروع التخرج وأنا مستريح الجسم مطمئن النفس .

وأنا إلى الآن مازلت مدمنا للموسيقى الجميلة والأصوات الحلوة وأتعاطاها يوميا .

* * *

خش يا إبن الكلب

ونحن فى المدرسة الإبتدائية وفى هذه السن الصغيرة كان أغلب التلاميذ ريفيين سذج . وكان أغلب أولياء الأمور من الفقراء الغلابة . فلم يكن فى البيوت جهاز راديو أو أى صحف . ويمكن أن يكون فى القرية جهاز راديو واحد فى بيت العمدة إذا كان هذا العمدة غنيا أو من عائلة كبيرة . ومن ثم فقد أنحصرت إهتمامات التلاميذ على المقررات الدراسية ولا أكثر من ذلك .

وأتذكر أنه فى إحدى المرات وجهت المدرسة دعوة إلى محمد علبه أحد موظفى المستشفى الأميرى بساحل سليم وكان لمحمد علبه إهتمامات موسيقية ويجيد العزف على العود .وخرجنا من الفصل ودخلنا غرفه الناظر محمد قراعه رحمه الله ووجدنا محمد علبه جالسا ممسكا بالعود . وقال تحبوا تسمعوا إيه، ولم ينطق منا أحد، ثم أردف يقول أنا هاأسمعكم " القمح الليله " ثم عزف قطعة موسيقية جميلة . بعدها غادرنا غرفة الناظر ليدخلها تلاميذ فصل آخر ليستمعوا إلى مقطوعة أخرى . وفى طريقنا إلى الفصل علق أحد التلاميذ : قال القمح الليله ما لنا إحنا إذا كان القمح الليله ولا التبن الليله، طبعا القمح الليلة معزوفة جميلة للموسيقار محمد عبدالوهاب . كان الناظر مشكورا يريد أن يعرف التلاميذ أن فى الحياه أشياء أخرى كثيرة غير المقررات الدراسية، ويجب علينا أن نهتم بهذة الأشياء ومنها الموسيقى التى تساهم فى خلق الذوق الرفيع والإحساس الرقيق . ولكن الناظر ومحمد علبه كانوا فى وادى والتلاميذ فى وادى آخر .

كنا فى السنة الثالثة الإبتدائية وهى تعادل السنة الأولى الإعدادية الآن ودخل علينا الفصل جرانت أفندى مدرس اللغة الإنجليزية فى حصة إضافية . وكان جرانت أفندى

واسع الثقافة له ميول شيوعية هو وبديع أفندى وسعيد أفندى وكانوا دائما يحرضوننا علـى القيام بالإضرابات وكان هذا الكلام فى سنة ١٩٥١ م.

وأراد جرانت أفندى أن تكون هذة الحصة هى حصة للثقافة فسأل مين حافظ شـعر يا أولاد ؟ قال بعض التلاميذ فى وقت واحد غايث يا أفندى . قال جرانت أفندى .. قـوم ياغايث وكان غايث من قرية مجاورة لساحل سليم تسمى الشامية . وكان والـد غـايث يعمل جمالا أى عنده جمل يحمل عليه الغلال وأكياس القطن وحطب القطن وبوص الـذرة من الحقول البعيده ويذهب بالجمل إلى شتى القرى وكان إيجار الجمل وأبو غايث لايزيـد عن ريال واحد للمسافة البعيدة التى قد تصل إلى عشرة كيلو مترات .

وكان أبو غايث يصحب فى بعض الأحيان إبنه غايث معه ولكى يقـوم أبو غـايث بالتسليه والترويح عن نفسه وعن غايث وعن الجمل . كان يردد كثيرا من المواويـل . ومن طول ملازمه غايث لابيه وللجمل فقد حفظ عن أبيه بعض هذة المواويل .

وعندما قام غايث وكان يلبس بنطلون قصير كاكى ولصق ظهره للحائط . وتوقـع جرانت أفندى أن يسمع من غايث شعرا لحافظ ابراهيم وأمير الشعراء أحمـد شـوقى . ولكن غايث صاح بصوته المحشرج العالى وبنغمة الموال :

البنت قالت لأبوها .: ولا إختشت منه

توب الحيا داب .: والنهد بان منه

وإن كنت ناوى على السفر يابا .: خاف لحسن غيرك يلمه

فصفعه جرانت أفندى على قفاه قائلا : خش يا إبن الكلب ثم ضربه بشلوت مرددا: خش يا إبن الكلب ماذا كنت تتوقع ياجرانت أفندى من غايث وأبو غايث ؟ هل كنت تتوقـع أن يمشى أبو غايث وراء الجمل تلك المسافات الطويله مرددا قصائد لأبى فراس الحمدانى وصفى الدين الحلى وحافظ وشوقى وأنا الى الأن كلما تذكرت جرانـت أفنـدى وغـايث والبنت الى قالت لأبوها، وخش يا إبن الكلب أغشى على نفسى من الضحك .

وللعلم فإن الموال من الفنون الجميلة وأنا أحب الإستماع إلى الموال . وأنا أعشـق سماع الموال من الفنان محمد عبدالمطلب والفنان العراقى ناظم الغزالى والفنانه السكندرية بدارة السيد . وقد أستمعت وأنا فى روسيا إلى بدراة السيد من إسطوانة كانت عند أحـد الزملاء المصريين وأستمعت إليها فى موال أسمه فوق شواشى الـدرة، وطلعـت فـوق السطوح أنده على طيرى، لقيت طيرى لايف على غيرى . وأعجبت جدا بصوت بـدارة

غنى الجميل ، وكنت أقول للزملاء أنا لوكنت سمعت بدارة قبل ذلك لكنت الآن من مجاذيبها ألف وراها جميع الموالد للإستمتاع بصوتها ،

* * *

" والله العظيم حرام يعلموا فرنساوى فى الصعيد "

لقد أنشأ خليل باشا إبراهيم مدرسة ثانوية بساحل سليم سنة ١٩٤٨ ، وقد تميزت المدرسة بمساحة شاسعة ، ولم تقتطع مساحة المدرسة من أرض زراعية أو صالحة للزراعة، ولكن خليل باشا بحسن تدبيرة إختار أرضا بور، كانت عبارة عن بركة، تمتلىء بالماء فى موسم فيضانات النيل، ويتكاثر بها البعوض المسبب للأمراض ،،

وتم ردم البركة وإقامة المدرسه عليها ، وصممت المدرسه تصميما معماريا عصريا ، فبطول سور المدرسة وبعرض خمسة أمتار توجد حديقة مزروعة بأجمل أنواع الورود والزهور والمدرسة مكونة من دورين، الفصول واسعة، وجميع الفصول تطل على الحديقة الجميلة ، ويوجد بالمدرسة سكن لطلبه الداخلية من الأجانب والمصريين، كما يوجد بها حوش واسع مزروع بالنجيل، ويوجد بها كذلك ملاعب قانونية لكرة القدم، والسلة، والطائرة، كما يوجد بها صالة لتنس الطاولة، ومسرح، ومطعم مجهز، لتحضير الوجبات المطهية لطلبة الداخلية ، وقد تم إختيار المطعم بحيث يفصلة عن الفصول هذا الحوش الواسع ، وبما أن ساحل سليم تقع على الجهة الشرقية من ضفة النيل، ولاتقع على شريط السكة الحديد، فقد كان الوصول إليها عن طريق مدينة أبوتيج فية نوع من المعاناه وخاصة موسم الفيضانات وكان ذلك طبعا قبل بناء السد العالى ،

أما الوصول لساحل سليم عن طريق أسيوط فهو طريق ممهد ومرصوف وسهل ، وقد تم تعيين الأستاذ سعد زغلول خريج كلية التجارة جامعة الإسكندرية والضابط الإحتياطى الشاب جميل الصورة الوسيم، مدرسا للغة الفرنسية بمدرسة ساحل سليم الثانوية عام ١٩٥٥ ،

ومن حظ الأستاذ سعد أنه نزل من القطار من محطة أبوتيج، ولكى يصل إلى ساحل سليم فقد أستأجر عربة حنطور أوصلته إلى شاطىء الفرع الغربى من النيل، ثم

ركب مركبا شراعيا أوصلته إلى الشاطىء الشرقى من فرع النيل الغربى ثم حمله أحد الأدميين من المركب إلى اليابسة، ثم ركب حمارا سار به لمدة نصف ساعة فى الجزيرة حتى وصل الى الشاطىء الغربى لفرع النيل الشرقى، ثم حملة أحد الأدميين ليركب مركبا شراعيا آخر ، أوصلة إلى الشاطىء الشرقى لفرع النيل الشرقى لساحل سليم ، ثم سار فى شارع محمد محمود باشا، الذى تحيط به حدائق الفاكهة بأشجارها الخضراء وظلالها الوارفة، حتى وصل إلى المدرسة الثانوية ،

ومن الواضح أن الأستاذ / سعد صدم من متاعب الرحلة وهو السكندرى الأصل وخريج جامعة الإسكندرية ،وعندما دخل الفصل وبدأ يعرفنا بنفسه قال : سعد زغلول محمد السباعى بكالريوس تجارة جامعة الإسكندرية ثم أردف قائلا بتهكم : وجاى أدرس فرنساوى بمدرسه ساحل سليم الثانوية ،

وبالرغم من ذلك فإن الأستاذ عندما نقل بعد ذلك بثلاث سنوات إلى مدينة الإسكندرية غادر ساحل سليم وهو يبكى للحفاوة التى أحاطة بها الطلبة وأهالى ساحل سليم طوال فترة إقامته ،

وكان الأستاذ سعد لطيفا وخفيف الظل وجعل لحصص اللغة الفرنسية جاذبية وطرافة ، وكان معظم الطلبة لم يروا أو يركبوا قطارا، كما لم يدخل معظمهم السينما فى حياته ،

ومن ثم فقد كان من الصعب أن يتصور الطلبة معنى كلمة سوارية، وماتينية، وبنوار وبلكون، وفوتية، وبوجاما ،

وفى إحدى المرات صحب الأستاذ سعد معه الطلبة إلى حجرة الناظر ليريهم شكل الكرسى الفوتية، وفى أحد الدروس قرأ أحد الطلبة جملة شاك ماتان ومعناها كل يوم قرأها هكذا بصوت عالى وبطريقة مضحكة : شاكوو مالتينا فقال الأستاذ معلقا : إية ،، إية ياروح أمك ،

وفى إحدى الدروس الأخرى جاءت كلمة بوجاما ، وتوقع الأستاذ سعد أن يعرف الطلبة معناها من طريقة نطقها، لأنها تستخدم فى مدن مصر ولها نفس النطق تقريبا، وهى كلمة بيجامة ، وسأل حوالى ٢٥ طالبا وأختارهم متعمدا من الأرياف المجاورة لساحل سليم، ولما لم يعرف أحد منهم معنى كلمة بوجاما، قال الأستاذ سعد ساخرا : والله العظيم حرام يعلموا فرنساوى فى الصعيد ،

* * *

فانتماس " الرجل الشبح "

جيرمان لوبيتش أستاذ الهندسة الوصفية والرسم الهندسي ، يهودي فارع الطول متين البنيان، أصلع الرأس، لايوجد برأسه شعرة واحدة سوداء أو بيضاء، ولذلك كنت أطلق عليه " أصلع نوتردام " على وزن " أحدب نوتردام " .

أما الطلبة الروس فكانوا يطلقون عليه فانتماس ومعناها " الرجل الشبح " . ومن المعروف أن الهندسة الوصفية من المواد التي يصدم بصعوبتها طلبة الهندسة عندما يضعون أقدامهم على عتبة الكلية، لأن هذة المادة تدرس في أول سنة بكلية الهندسة . والهندسة الوصفية من المواد الأساسية والهامة للمهندسين ولدراسي الهندسة وبجانب أنها مادة تعتمد على أسس وقواعد إلى أنها مادة تعتمد أعتمادا كبيرا على التصور والتخيل .

وقد أشار المرحوم الدكتور / على حسن وقد كان رئيسا لقسم الهندسة الميكانيكية بكلية الهندسة بجامعة القاهرة وأستاذا للهندسة الوصفية بجامعتي القاهرة وأسيوط، أشار في مقدمة كتابه إلى أنه لم يفهم الهندسة الوصفية إلا آخر العام وهو طالب بمدرسة الهندسة الملكية . وذلك حتى يطمئن الطلبة إلى أن هذا العلم يحتاج إلى وقت غير قصير للفهم والإستيعاب .

وكان الرفيق جيرمان لوبيتش أستاذا ورئيسا لقسم الهندسة الوصفية والرسم الهندسي، بكلية الميكانيكا، وكلية محركات السفن، وكلية معدات الصيد وكلية تصنيع الأسماك، وكلية الإقتصاد بمعهد اسطراخان .

والأستاذ جيرمان لوبتيش أستاذ خفيف الظل ضاحك وساخر دائما وذلك بجانب جديته الشديدة في علمه وفي تقييمة لقدرات وإستعدادات الطلبة .

وعندما كان يخطيء أحد المصريين في حل تمرين أو في رسم لوحة كان يقول : إذا قمت بعمل تصميم لمنتج في أحد مصانعكم بمصر وكان هناك خطأ في الرسم الدال على المنتج، فسوف يكون هناك خطأ في المنتج، وساعتها سوف يسألك الرئيس عبدالناصر من الذي علمك الهندسة الوصفية والرسم الهندسي، وعندما تقول له : الذي علمني جيرمان لوبيتش، فسوف يغضب مني الرئيس جمال عبدالناصر . وكنا نضحك من قوله هذا ولكننا كنا نقدر له حرصة على جدية التعلم .

وكان مقرر الهندسة الوصفية مكثفا وينتهى بنهاية الترم الأول • وينـــص نظـام التعليم فى الإتحاد السوفيتى أن الطالب الروسى الذى يرسب فى أول سنة فى الـترم الأول ولو حتى فى علم واحد يتم فصله من الكلية ويجند بالجيش، ثم بعد إنتهاء خدمــة الجيـش يلحق بالتعليم العالى بالنظام المسائى • أو نظام الإنتساب، وتزيد مدة الدراسة بمقدار عـام فى هذين النظامين عن مدة الدراسة الصباحية • أما إذا كانت طالبة ورسبت فى إحــدى المواد فى الترم الأول فإنها تفصل من الكلية • وتلتحق بعمل، وبعد ذلك تلتحق بالنظـام المسائى أو نظام الإنتساب •

ومن ذلك تعلم أن التعليم العالى فى الإتحاد السوفيتى متاح للجادين فقط، وبـالرغم من جدية الأستاذ جيرمان لوبتيش وحرصة الشديد على أن يستوعب الطلبة مقرر الهندسـة الوصفية إستيعابا جيدا، إلا أنه كان إنسانا رقيق القلب، ولا يتسبب فى فصـل طـالب أو طالبه ولكن بشرط عقد ميثاق شرف مع الطلبة والطالبات الذين لـم يجتـازوا إمتحـان الهندسة الوصفية بنجاح •

وميثاق الشرف هذا هو أن يضع أسماء هؤلاء الطلبة والطالبـات فـى كشـوف الناجحين التى تسلم إلى ادارة الكلية، ولكن لايسجل مادة الهندسة الوصفية فى سجل إجتياز الإمتحانات الذى يخص كل طالب وطالبة • وبذلك لايتم فصل الطلبة والطالبـات، وفـى نفس الوقت لايقيد فى السجل الذى يحتفظ به كل طالب مايفيد تأديته للإمتحان بنجاح •

مما سبق يتضح رقه وإنســانية ورحمــة الأسـتاذ جيرمـان لوبتيـش بالطلبـة والطالبات •ولكن ماسوف يأتى هو الجد كل الجد فلا شفقة ولا رحمــة ولا تسـيب عنـد الرفيق جيرمان لوبتيش فى تحصيل العلم والإستيعاب يعطى العم جيرمان مائــة تمريـن هندسة وصفية لكل طالب وطالبة من الذين لم يجتازوا الإمتحان قائلا لهم : يا أصدقــائى كل واحد منكم يحل المائة تمرين الخاصة به فى إجازة نصف السنة والذى سـيحل هـذة التمارين حلا صحيحا سا أعقد له إمتحانا ليجتاز هذة المادة • ويـدوخ الطلبـه وتـدوخ الطالبات مائة دوخة لحل هذة التمارين المائة • ثم يأتى إلية الطلبة والطالبـات هاشـين باشين فرحين مهللين بحل المائة تمرين، ظانين ظن الخير بأن العم جيرمان سوف يعفـو عنهم بعدما أضاع عليهم التمتع بأجازة نصف السنة • لكن هـدف العـم جيرمـان هـو إستيعاب كل طالب وطالبة لمقرر الهندسة الوصفية إستيعابا كاملا لاريب فيه • ويعطـى الأستاذ فى موعد الإستشارة للهندسة الوصفية وكان ذلك يتم كل يوم إثنين من كل أسـبوع بعد ميعاد الدراسة، ويعطى خمسة تمارين جديدة لكل طالب وطالبة على أن يتم الحل أمام الأستاذ وليس فى المنزل •والتمرينات صعبة وتحتاج وقتا وتصورا وتخيلا • ويبدأ الطلبة

فى اليمس المشوب بالغضب مرددين لعنه الله عليك يا أيها الشبح، الله يخرب بيتك ياشبح نكب. أجرى لأمك ال.. يا ابن ال...

أما الطالبات فيذرفن الدمع الغزير ومنهن من تشهق بالبكاء بصوت عالى .. ومنهن من تفقد أعصابها، وتخرج عن أنوثتها وتشتم بالأسلوب البذىء الذى يشتم به الطلبة . ولكن الأستاذ قاسى القلب فيما يخص العلم، ولا يرحم دموع الطالبات، ولا شيفاتهن، ولايهمة غضب الطلبة ووصفهم له بالشبح . وكان هذا الوصف يترامى الى سامعه فى أحيان كثيرة .

ويستمر الحال على هذا المنوال كل يوم إثنين من كل أسبوع حتى نهاية العام . وفى نهاية العام يكون الأستاذ قد تأكد وأستيقن أن الطلبه والطالبات قد أستوعبوا الهندسة الوصفية وعرفوها كما يعرفون آبائهم، ويسجل لكل واحد منهم فى سجله الخاص أنه إجتاز إمتحان الهندسة الوصفية بنجاح بتقدير مقبول .

ولقد كان لزميلنا الشيخ سيد صولات وجولات مع أستاذنا الرفيق جيرمان لوبتيش. فقد كان الشيخ سيد من عزبة بجوار الزقازيق محافظة الشرقية . وكان جادا وذكيا وجلدا وصبورا ومحبا للعلم وعلى خلق كريم . ولما عقد إختبار شهرى فى الهندسة الوصفية فإن الشيخ سيد هو الطالب الوحيد الذى حصل على تقدير إمتياز ولم يحصل على هذا التقدير أى طالب روسى أو أجنبى غير الشيخ سيد .

وقد أطلق علية الطلبه الروس والمصريون غيظا وحسدا " فلاح الوصفية " .أما أستاذنا فقد لفت نظرة جدية وذكاء وعبقرية الزميل سيد . ومن هذة اللحظة فقد تبناه أستاذنا علميا . وأصبح يكلفة بعمل بحث سنوى فى الهندسة الوصفية . ويسافر الشيخ سيد إلى موسكو ولينينجراد وكييف ليلقى ويناقش بحثة فى مؤتمر بحوث الهندسة الوصفية الذى يعقد سنويا فى عاصمة من عواصم الإتحاد السوفيتى .

وكل ذلك يدل على أن أستاذنا بالرغم من أنه يهوديا ولكن لم يكن صهيونيا ولا عنصريا ولا متعصبا بل كان سمحا كريما ونبيلا، وبفضل تشجيعة للزميل سيد فقد حصل سيد على درجة الدكتوراة وهو الأن أستاذ فى الجامعة .

أستاذنا جيرمان لوبتيش كان ماهرا وحاذقا فى لعبة الشطرنج . وكان يقيم سنويا مهرجانا فى لعبة الشطرنج . يلاعب فيه مايقرب من خمسين لاعب من الطلبة الروس والأجانب فى آن واحد . أى يمر على الخمسين لاعب واحد تلو الأخر . ينقل نقلة على شطرنج اللاعب الأول. ثم نقلة مع الثانى، وهكذا . ولم يحدث أن هزمه أى لاعب .

ماعدا مرة واحدة فى إحدى السنوات فقد هزمة الطالب المصرى العبقرى سامح فريد وهو الآن أستاذ بكلية الهندسة ٠

* * *

مذبحة نظرية الماكينات

عندما كنت فى السنة الأولى بكلية الميكانيكا سمعت عن علم يــدرس فــى الســنة الثالثة بالكلية يسبب رعبا وهلعا شديدا للطلبة الروس والأجانب ٠ وهذا العلم أسمه نظريـة الآليات والماكينات ٠ وهذا العلم هو علم هام وأساسى لجميع الذين يعملون فــى مجــال تصميم الألات والمعدات الميكانيكية ٠ ومن صعوبة هذا العلم تعــارف الطلبــة الــروس والسوفيت والأجانب على تسميته " هنا تكمن مقبرتى " ٠

ومما زاد الطين بلة أن الأستاذ الذى كان يقوم بتدريس هذا العلم كان أستاذا شرسا، تكمن فى نفسه روح الإنتقام من الطلبة، وبإذلالهم تتحقق له السعادة الكاملة ٠

وتبلغ صفحات كتاب نظرية الماكينات ستمائة صفحة، وهــو مليــىء بالنظريــات والقوانين والبراهين والمسائل والتمارين ٠ وزيادة على ذلك يجب عمل مشروع فى هــذة المادة، تستخدم فية أعقد الحسابات والرسومات ٠ وكانت هذة المادة تدرس فى الترم الأول وتتم مناقشة المشاريع أولا، ثم بعد ذلك يدخل الطلبة على مقصلــة الإمتحــان ٠وكــانت سلوكيات وتعبيرات وجه هذا الأستاذ العكر تقول : أنا وحدى العارف بهذا العلــم، وأنــا مكتشفه وواضـع قوانينة وأسسة ٠ فكيف بكم أيها الجهلاء أن تجلسوا أمامى وتتحدثون فــى هذا العلم الذى لايعرف أسرارة إلا أنا ٠

ويتم تحديد يوم خاص بكل مجموعة من الطلبة يبلغ عددها خمسة عشــر طالبــا لمناقشة مشروع كل طالب على حده ٠ ويدخل الطالب صالة مناقشة المشروع متوتــرا، خائفا، هلعا ٠ ويقوم زملاء الطالب بتثبيت لوحات المشروع وعددها ثلاثة لوحات ٠ على الحوامل الخاصة بذلك، ووجه الطالب أصفر، وريقة ناشف فى عز برد روســيا، ويــداه مرتعشتان، ورجلاه لاتستطيعان حمله ٠

وينظر إليه الأستاذ مثل الأسد الذى ينظر إلى فأر، قائلا فى سره جاءت الفرصة لأكشف جهلكم أيها الحمقى ٠

وكانت اللجنه مكونه من هذا الأستاذ رئيسا وأحد المساعدين الرجال ومساعدتان من السيدات ٠ ويقوم الأستاذ من على كرسيه مستأسدا واضعا يديه خلف ظهره، وينظر شذرا فى رسومات المشروع ٠ ثم يأمر الطالب بفك دبابيس التثبيت من على اللوحات ٠ ويقلب الأستاذ كل لوحة على حدة ويقرب اللوحة من مصباح كهربائى قوى، وينظر فى اللوحة من الخلف ليتأكد أن اللوحه غير منسوخة من لوحة أخرى بواسطة المصباح الكهربائى ولوح الزجاج ٠ وعندما يتأكد من عدم نسخ اللوحات من لوحات أخرى يجلس مزمجرا متوعدا ٠ وتنهال الأسئلة على الطالب المذعور المسكين والطالب يجاوب، والأستاذ يزمجر متهما إياه بالجهل ٠ وبعد أربعون دقيقه من العذاب يصدر الأستاذ هذا الحكم : الطالب شرابوف مركوبوفيتش راسب فى المشروع ويعاد المشروع بالكامل وتستبدل معطيات المشروع الأول بمعطيات أخرى جديدة ٠ ثم يناقش طالب ثان ٠٠ وهكذا وتكون النتيجه النهائية طالب واحد ناجح بدرجة جيد، وطالب وطالبة ناجحون بدرجة مقبول ورسوب إثنا عشر طالبا وتكليفهم بإعادة المشروع٠

وفى المساء يمتلىء بيت الطلبة بالسكارى من الطلبة والطالبات ٠ الذين نجحوا فى حالة سكر بين إحتفالا بحكم البراءة ٠ والذين رسبوا فى حالة سكر بين لكى ينسوا قسوة حكم الإعدام ٠

ولا أنسى أحد الزملاء المصريين وما فعلة معه الأستاذ " عشماوى " أضطر زميلنا ٠ هذا أن يناقش مشروعه ثلاث مرات، وفى كل مرة كان الحكم : راسب ويعاد المشروع بالكامل بمعطيات جديدة ٠

وفى المرة الرابعة أدخلتة اللجنة صالة الحاسب الآلى بقسم الميكانيكا، وغلقت الأبواب، ولم يسمح لنا بالدخول معه لتشجيعه والشد من أزرة ٠ وبعد ساعتين من الجلد والتعذيب صدر هذا الحكم : الطالب عثمانوف محمدين راسب ويعيد السنة وزيادة على المشروع وكورس نظرية الماكينات يجب إعادة إمتحانه فى مقرر الميكانيكا مرة أخرى، بالرغم من أنه كان ناجحا فى مادة الميكانيكا فى السنة الثانية٠ ومن حسن حظى فقد نقل هذا الأستاذ المتوحش عندما وصلت السنة الثالثة وبالرغم من ذلك فقد أحتفلت إحتفالا كبيرا بالطريقة الروسية عندما نجحت فى مشروع وكذلك فى إمتحان نظرية الماكينات ٠

* * *

التفكير فى قطع الدراسة والعودة إلى الوطن

للشباب دائما شطحاته ومغامراته وخروج بعض تصرفاته فى بعض الأحيان عن قواعد القيم والأصول. ولقد تصرف ثلاثه من الزملاء تصرف فيه كثير من التهور وقلة الذوق . فأحدهم كان متزوجا من روسية وفى إحدى المرات إشتد الخلاف والنقاش بين زوجتة الروسية والسيدة المشرفة على بيت الطلبة، فما كان منه الا أن شتم المشرفة بأبشع أنواع السباب ثم بصق على وجهها .. وأعتبر الروس أن هذه إهانة كبرى لمواطنة من مواطنيهم قد وقعت على الشعب السوفيتى أجمع .

أما الآخر فقد كان فى حالة سكر بين وإعتدى على شابة روسية بالضرب وقطع البلوزة التى ترتديها .

وأما الثالث فقد أعتدى على زميله بشراسة ومعنى ذلك أن الإستهتار فى التصرفات قد زاد عن حده .

ومن ثم فقد أتخذ مدير المعهد فى نفسه قرارا بفصل هؤلاء الثلاثة . وكان ثالثهما على وشك الإنتهاء من الدراسة .ولم يبقى على تخرجه إلا شهر واحد . وأما الأول والثانى فباقى عام واحد على تخرجهما، وأجتمع جميع الزملاء لمناقشة هذا القرار الخطير وكيفية التصرف حيالة حرصا على مستقبل الزملاء الثلاثة . وأتفقنا على إختيار ثلاثة من الزملاء كان لهم قبول حسن عند الروس وبرياسة الزميل المرحوم على مخلوف وكان محاورا ومفاوضا على درجة كبيرة من الذكاء .

ورجع إلينا الزملاء تعلو وجوههم علامات البشر، وظننا أنهم رجعوا الينا منتصرين . وتحدث إلينا الزملاء الثلاثة ومازالت علامات البشر تكسو وجوههم قائلين : لقد وافق مدير المعهد على أن يعفو عن الزميل الأول والثالث إذا إتخذنا قرارا بفصل الزميل الثانى .

وهنا لم أحتمل وقاطعت الزملاء محتدا قبل أن يسترسلوا فى الإقناع بأن الإبقاء على إثنين مقابل طرد واحد صفقة رابحة . وقلت لهم : إن مدير المعهد لن يقدم على فصل الأول والثالث، لأن الأول متزوج من روسية وله منها ولد . ولن يحاول الروس أن يوقعوا زوجته وهى مواطنة روسية فى مشاكل . وسوف يعالجون المشكلة بطريقة

لاتصل إلى الفصل من المعهد والطرد من روسيا . وأما الثالث فلم يبقى على تخرجه إلا شهر واحد وفصلة وطرده من المعهد ستعتبرة وزراة التعليم العالى السوفيتية فشلا لمدير المعهد نفسه . ثم أردفت قائلا : أما الزميل الثانى فقد تجاوزت تصرفاته جميع الحدود ولن نستطيع أن نتوسط له أو ندافع عنه . ولكننا لن نأخذ قرارا جماعيا بفصله حتى لايستند مدير المعهد إلى ذلك، ويبلغ وزارة التعليم العالى، والسفارة المصرية، والمكتب الثقافى المصرى، أننا نحن زملاؤه الذين إتخذوا قرارا بفصله . وأنهيت كلامى قائلا : أنا ضد هذا القرار ولا أستطيع نفسيا المشاركة فيه، وسوف يقتلنى تأنيب ضميرى إذا شاركت فصل زميل " وضياع مستقبله " .

وإذا كان مدير المعهد جادا فى قرار الفصل فليصدر هو هذا القرار وليتحمل هو نفسه مسئوليته دون مشاركه منا .

وحمدت الله أن الزملاء إستجابوا لكلامى وأقتنعوا به بما فيهم المفاوضين الثلاثة . ثم دارت المناقشات والمشاورات بيننا للبحث عن حل بديل .

وأتفقنا على أن نذهب جميعا لمقابلة مدير المعهد فى مكتبه، وكنا أكثر من خمسة وثلاثون زميلا . ولكن لا لنقول له إننا أجمعنا وقررنا فصل الزميل الثانى، ولكن لنحاورة ونداورة ونرجوه أن يعطى الزملاء فرصة أخرى . وبقى أن نختار من الذى سوف يتحدث نيابة عن المجموعة . وأجمع الزملاء أن أتحدث نيابة عنهم، فرفضت ذلك بشدة وشرحت لهم سبب رفضى قائلا : إننى لو تحدثت بإسمكم، ولم يأخذ مدير المعهد بكلامى وأصدر قرارا بفصل أى من الزملاء، فسوف تلوموننى جميعا، متهمين إياى بعدم القدرة على الإقناع والتحاور والتفاوض . وأخيرا تم الإتفاق على أن يكون الزميل فوزى إسكندر هو المتحدث . حيث أن فوزى متزوج من روسية، وتجمعة بالروس علاقات طيبة .

ودخلنا مكتب مدير المعهد، وفور دخولنا سأل مدير المعهد . هل إتخذتم قرارا بفصل زميلكم الثانى .

ووقف الزميل فوزى إسكندر قائلا : سيادة المدير نحن نطمع فى كرمك أن تعطى الزملاء الثلاثة فرصة أخيرة، وهنا ثار المدير ثورة عارمة قائلا : إتفضلوا ليس لدى وقت أضيعه معكم . وخرجنا كما يقول المثل البلدى " قفانا يقمر عيش " . وزمجر الزملاء وهم خارجون، ولقد إنتابنى بعض الضيق من هذا الموقف . ولكن فى قرارة نفسى كنت مقتنعا، أن عدم إتخاذ قرار بفصل زميل هو عمل صائب .

وكانت المناقشات قد أرهقتني كما أنني لم أتناول طعام الغذاء، كما كان الموضوع بأكمله يدعو إلى التوتر وتعكير المزاج ٠

وفي أثناء سيري مع بعض الزملاء للتوجه لتناول طعام الغذاء في أحد المطاعم القريبة ٠ ناداني من الخلف أحد الزملاء ٠ وكان يتميز ببرود شديد، ولايهتم بأي أحد إلا بنفسه، فقلت له خيرا : قال : أعطني جواز سفرك : قلت لماذا ؟ قال : لأننا لن نسكت على إهانة كرامة مصر ولا بد أن نقطع دراستنا ونرجع بلدنا : قلت له ومن يستطيع أن يتعرض لكرامة مصر بالإهانة ٠ قال : مدير المعهد عندما طردنا فإنه أهان كرامة مصر ٠ قلت له: إن حب مدير المعهد لمصر والمصريين معروف للجميع ولا شك فيه أما الذي أهاننا فهم زملاؤنا الثلاثه، بتصرفاتهم غير المسئوله ٠

قال : لقد بدأت أجمع جوازات السفر فأعطني جواز سفرك ٠ قلت له : هذا لن يكون ٠

فلما ضايقني بإلحاحه وبروده شتمته ولعنته ولعنتُ الزملاء الثلاثة الذين تسببوا في المشكلة ووصفتهم بأبشع الصفات ٠وحذرت الزملاء الذين تسببوا في المشكله ونصحتهم ألا يعطوا جوازات سفرهم لهذا الزميل الأرعن الملعون ٠ وقلت لهم إذا أعطيتم جوازات سفركم لهذا الملعون فسوف تضيعون مستقبلكم بأنفسكم وأقتنع الزملاء الثلاثة بذلك ٠ وتناولت غذائي ورجعت إلى غرفتي لأستريح بعض الشيء٠ وطبعا لا تخلو أي مجموعه من المنافقين وضعاف النفوس ٠ ولما علم هؤلاء المنافقون بموقفي المتصلب لم يعارضوا ولكن وضعوا شروطا لتسليم جوازات سفرهم، وهو أنني يجب أن أسلم جواز سفري، ثم بعد ذلك يقومون هم بتسليم جوازات سفرهم ٠ وجاءني زميل آخر قائلا :

إن بعض الزملاء يقولون إنك لو سلمت جواز سفرك فسوف يسلمون جوازاتهم وهذا شرط أساسي بالنسبه لهم ٠ قلت له : يا أخي إن هؤلاء الزملاء منافقون وغير قادرين على الإعتراض صراحة ٠ ولن أسلم جواز سفري، ولن أشارك في عمل متسوع أهوج ٠ وآخرهم جاءني معيد من كلية العلوم جامعة الإسكندرية وكان يحضر لنيل شهادة الدكتوراه وكان حديث عهد بروسيا وبالزملاء ٠

جاءني قائلا : إن جواز سفرك يتوقف عليه تسليم باقي الجوازات، وأعدك أنه إذا بقي جواز واحد لم يسلم، فسوف أرد اليك جوازك ٠

قلت له : يادكتور عبدالغني إن المسألة مسألة مبدأ، وهذا الموضوع غير قابل للفصال وأنا لم أحضر إلى هنا وأعيش في ظروف هذه الغربة وهذا الجو القاسي في

درجة حرارة ٣٠ تحت الصفر ، وأبذل جهدا جبارا للتغلب على صعوبة الدراسة باللغــه الروسية كل ذلك لمدة خمسة سنوات، ولم يتبقى لى إلا عام لأنهى دراستي، ثم يأتى زميـل مستهتر، ليس لديه أى إحساس بالمسئولية تجاه نفسه وأهله وبلده، يأتى هذا الزميل فيجـد فى جيبه ثلاثة روبيلات، فيذهب ويشترى زجاجة فودكا، فيشربها ويسكر، ثم يأتى بأعمال المساطيل التى تسيء اليه والى الجميع ، وعندما يتعرض للتقويم والجزاء والعقاب علـى أفعاله المخزيه، يتعاطف البعض معه، ويدعون إلى عمل أخرق ،

وبصراحه يا دكتور عبدالغنى أنا لن أقطع دراستي وأضيع مستقبلى من أجل سكير مسطول ، ولقد أتخذت هذا القرار لمصلحتى ومصلحة جميع الزملاء بما فيهم المذنبـون الثلاثة ، ثم مررت على الزملاء الثلاثة أصحاب المشكلة وحذرتهم من الإندفاع وراء هذة الدعوة الرعناء، وقلت لهم : أذا سلمتم جوازات سفركم لهذا الطائش، فسـوف يفصلكـم الروس ويطردونكم فورا ويعتبرونكم المحرضين على هذا التمرد ، وطمأنتهم أنـه لـدى إحساس بأن مشكلتهم سوف تحل ولكن ليس بهذة الطريقه الحمقاء ، ومن ثم فلم يفلح هـذا الزميل الأخرق فى جمع جوازات السفر والزج بنا إلى مغامرة وخيمة العواقب ،

وفعلا فقد حدث ما أحسست به فبعد حوالى أسبوع هدأت العاصفة وسكت الغضـب الى حد ما ، وأجتمع بنا مدير المعهد فى بيته وعاتبنا قائلا : إنكم تعلمون كم أحب مصر والمصريين ، فلا يكون جزاء إعتزازى وحبى لكم أن تسببوا لى كثيرا من المشاكل، التى تثير غضبى ، فأعتذرنا له مكررين أنه لن يرى منا إلا كل خير، وعفا الله عما سلف ،

ثم أردف المدير قائلا : من يضمن حسن سير وسلوك زميلكم الثانى ويتابع معنـا جديته فى الدراسة، فأشار جميع الزملاء إلى ، فقال المدير هل تضمنه وتصبح مسـئولا عنه ؟ قلت نعم أضمنه وأنا مسئول عن تصرفاته ومتابعه جديته فى الدراسه ،

قال المدير : وأنا أثق فى كلامك ، قلت : شكرا لسـيادتكم علـى حسـن ظنكـم بى ،وحمدت الله أن الموضوع قد أنتهى على خير بدون إستخدام أى أساليب خرقاء ، وقد أكمل الزملاء الثلاثة دراستهم بنجاح ومنهم من حصل على شـهادة الدكتـوراه وأصبـح أستاذا فى الجامعة ،

* * *

الأديان في الإتحاد السوفييتي

إختفى الدين المسيحي تماما من الإتحاد السوفييتي بالرغم من أن روسيا كانت قلعة المسيحية في العالم قبل قيام الثورة الروسية. ولا يجد المرء أحدا في الإتحاد الســـوفييتي يقول إنه مسيحي، بالرغم من أن سكان الاتحاد السوفييتي يحتفلون إحتفالا كبيرا بليلة رأس السنة. وكذلك يحتفلون إحتفالا كبيرا بسبت النور ويوزعون البيض الملون، وهناك لازمـة موجودة لدى جميع نساء الاتحاد السوفييتي في هذا اليوم، فعندما يقول أي شخص لأي فتاة أو أي سيدة "كل سنة وإنتي طيبة" لابد أن تقبله وتعطي له بيضة ملونة.

وفي أحد الأيام وبعد أن حضرنا مراسم دفن أحد الأساتذة اليهود ولم يقم أي أحـــد بإجراء أي طقوس دينية قبل عملية الدفن. لأن الجميع ملاحدة وكل ما قـــاموا بـــه هـــو الخطب الجوفاء التي تعني أن الحزب لن ينسى خدمات هذا الأستاذ وأن عليه أن ينام قرير العين هانيها.

وأثناء رجوعنا من المقابر سمعنا أصوات ترانيم فعرفنا أن هناك قداس يقـــام فـــي أحد الكنائس الصغيرة الموجودة بوسط المقابر. فدفعنا حب الإستطلاع إلى دخول الكنيســـة فوجدنا قسيسا شابا في العقد الرابع من العمر. أما رواد الكنيسة فلم يكن فيهم أحـــد مـــن الشباب والكل فوق العقد السادس من العمر. أي مواليد قبل الثـــورة الروســـية. ولا أدرى لماذا أنهى القسيس القداس وإختفى بعد أن رآنا ندخل الكنيسة. أما اليهود فكان لهم وجـــود مؤثر في الاتحاد السوفييتي وكانوا يقولون إنهم يهود ولكنهم يحاولون إقناع الجميـــع بـــأن اليهودية قومية وليست دينا. ولم تكن لهم دور عبادة ولم نراهم يقيمون أي شعائر دينيـــة أو يحتفلون بأي أعياد خاصة بهم. وكان يراود معظمهم حلم الهجرة إلى إسرائيل.

أما المسلمون فلم تستطع الدولة السوفيتية سحقهم أو القضاء عليـــهم، حتـــى فـــي الجمهوريات غير الإسلامية مثل جمهورية روسيا التي يوجد فيها أقلية مسلمة.

ففي مدينة إسطراخان التي يتواجد بها عدد قليل من التتـــار المســـلمون. إحتفـــظ المسلمون بأسمائهم الإسلامية فكان من زملاء الدراسة التتار المسلمون رشيد ومنصـــور وفاطمة وعديلة. وكانوا يصومون رمضان ويحتفلون بالأعياد والمواسم. مثل عيد الفطـــر وعيد الأضحى وليلة النصف من شعبان وليلة القدر. وكان لهم جامع تقـــام فيـــه صـــلاة الجمعة ولكن قليل جدا من الشباب هم الذين يترددون على هذا الجامع.

وقد وضعت الدولة السوفيتية خطة محكمة للقضاء على الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي. فالمدارس الروسية تلقن الأطفال الإلحاد وتسخر من الأديان بالأناشيد والقصص. والأطفال في هذه السن ملزمون بالإنضمام إلى التنظيم المعروف بتنظيم الطلائع. وفي هذا التنظيم يرضع الأطفال مبادئ الألحاد والشيوعية. أما في المرحلة الجامعية فيلتزم جميع الطلاب بالانضمام إلى منظمة الشباب والمساهمة في الأنشطة المختلفة لهذة المنظمة وأولها الألحاد والسخرية والإستهزاء بجميع الأديان. ولا يستطيع أي شاب أن يكون له الحرية في عدم الإنضمام إلى منظمة الشباب.

فمنظمة الشباب هي المنفذ الوحيد إلى أبواب التعليم الجامعي كما أنها المنفذ الوحيد إلى أبواب العمل والشاب الذي تراوده نفسه بالمجاهرة بالدين يتم فصله من منظمة الشباب وبالتالي يتم طرده من التعليم ومن العمل. ولا يوجد قطاع خاص أو ملكية فردية في الاتحاد السوفييتي فكل الأعمال مملوكة للدولة وتديرها الدولة حتى دكان الحلاقة والصرماتي ومن ثم كان جميع الشباب بما فيهم الشباب المسلم، مرغم على منافقة الدولة وتنظيماتها الألحادية حتى يستطيع أن يتعلم ويعمل.

وكنا نقوم سنويا بتهريب عدد من المصاحف والويل لمن تضبطه السلطات السوفيتية بالجمرك ومعه مصحف. أولا يتم حرق المصاحف، وينذر بالطرد من الإتحاد السوفييتي إن كرر هذه المحاولة.

***

نظام التعليم في الاتحاد السوفييتي

يعتبر نظام التعليم في الاتحاد السوفيتي من أحسن نظم التعليم في العالم. فبعد عشر سنوات من دخول التلميذ المدرسة يتم حصوله على الثانوية العامة. فلا توجد هناك شهادة إبتدائية ولا شهادة اعدادية ولا شيء من هذه التعقيدات التي لا خير فيها ولا نفع منها. ولا يوجد هناك علمي وأدبي أو رياضة أو ثانوي زراعي أو صناعي أو تجاري ولكن الجميع يحصلون على شهادة واحدة عن طريق إمتحانات عادية تجريها كل مدرسة بمعرفتها ولا يوجد هناك بعبع إسمه الثانوية العامة، كما لا يعرف التلاميذ في الاتحاد السوفييتي أي شيء عما يسمى بالدروس الخصوصية. ويوجد هناك نظام شبيه بنظام فصول التقوية لكنه بالمجان وبلا مقابل.

وقد يسأل سائل وكيف يتم القبول بالجامعات والمعاهد العليا؟ هل عن طريق المجموع؟ هل عن طريق التنسيق؟ والإجابة أن القبول بالجامعات لا يتم عن طريق المجموع أو التنسيق ولكن عن طريق إمتحانات تعقدها كل كلية وكل معهد لكل من يريد الإلتحاق بهذه الكلية أو هذا المعهد. وهناك جامعات عريقة مثل جامعة موسكو أو جامعة كييف لا تقبل كلياتها إلا عباقرة ونوابغ الطلبة وفي هذه الجامعات العريقة يتنافس على المكان الواحد عشرة آلاف طالب. ولنا أن نتصور نوعية إمتحانات القبول التي تعقد في هذه الجامعات لاختيار عباقرة الإتحاد السوفييتي في شتى مجالات العلم.

أما في المعاهد العادية فيقل التنافس حتي يصل إلى ثلاثة طلاب على المكان الواحد. كما يوجد نظام المعاهد الفنية فوق المتوسطة وكذلك توجد الكليات والمعاهد العسكرية العالية وفوق المتوسطة. ولنأخذ مثالا على الدراسة بكلية الهندسة: فيوجد ثلاثة نظم للدراسة وهي نظام التفرغ الكامل للدراسة النهارية ومدة الدراسة خمس سنوات طبقا لهذا النظام. كما يوجد نظام الدراسة المسائية للطلبة الذين يعملون بالنهار ومدة الدراسة المسائية ستة سنوات. كما يوجد نظام الدراسة بالإنتساب وهي للذين يعملون في مدن وأماكن لا توجد بها كلية هندسة ومدة الدراسة في هذا النظام ستة سنوات. وقد يقول قائل كيف تكون الدراسة بكلية الهندسة وهي كلية عملية بنظام الإنتساب؟

والإجابة في غاية البساطة وهي أن كل طالب له الحق في أخذ أجازة من عمله لمدة شهرين بمرتب كامل ويقوم في هذه المدة بدخول المعامل وإجراء التجارب المقررة

وأداء الأمتحان في كل تجربة يقوم بها وعند الإنتهاء من أداء جميع التجارب والنجاح في إمتحانات العملي يسمح له بدخول الامتحانات النظرية. أما في كلية الطب فيوجد النظام النهاري والمسائي فقط ولا يوجد نظام الإنتساب وبهذه الطريقة يمكن لأي عامل أو فني أن يصبح مهندسا إذا جد وإجتهد، كما يمكن لأي ممرضة أن تصبح طبيبة إذا كانت لديها الرغبة في ذلك والقدرة على الكفاح لتحقيق هذا الأمل. وخاصة أن التعليم بالمجان والكتب والمراجع بأرخص الأثمان كما أن الدولة تعطي منحة مالية شهرية لكل من يحصل على جيد في جميع المواد. وعندما يستطيع العامل أن يصبح مهندسا والممرضة أن تصبح طبيبة، لا يملك اليأس النفوس، كما لا تمتلئ النفوس بالحقد والضغائن ومركبات النقص. ويتفرغ كل إنسان لتطوير حياته عن طريق العلم والعمل والجد والكفاح.

والإمتحانات شفوية ولا يوجد لجان ولا خيام ولا أرقام سرية. والإمتحانات الشفوية هي الوحيدة التي تدل دلالة حقيقية على مدى إستيعاب الطالب للمادة العلمية. وتكاد الواسطة والكوسة أن تكون معدومة. وقبل التخرج يعطي لكل طالب مشروع مستقل خاص به يعتمد بعد الإنتهاء منه من الإستاذ المشرف ثم رئيس القسم ثم تتم مراجعته بواسطة مهندس في أحد المصانع يراجعه ويقييم مدى إمكانية تطبيقه في الصناعة ثم بعد ذلك يناقش المشروع أمام لجنة من داخل الكلية ومن مهندسين من خارج الكلية.

* * *

مشروع التخرج

يوجد طوال سنوات الدراسة وبجانب المحاضرات النظرية والتجارب العملية نظام المشروعات التي يقوم بها الطلاب مثل مشروعات نظرية الماكينات، وأجزاء الماكينات، والأوناش وضواغط التبريد والثلاجات ومخازن التبريد ومصانع الثلج.

ويعطي لكل طالب مشروع مستقل خاص به ويقوم الطالب بإجراء العمليات الحسابية للمشروع وتصميم المشروع وتوقيعه على لوحات الرسم ثم مناقشته تفصيليا أمام لجنة من أساتذة.

وكل هذه المشروعات التي تعطي أثناء الدراسة تعطي الطالب القدرة والثقة في إمكانياته ولا تجعله خائفا أو مهزوزا عندما يواجه الحياة العملية بعد التخرج. أما مشروع التخرج فيعتبر مشروعا كاملا قابلا للتطبيق في الواقع وله جدوى إقتصادية وعائد مجزي.

وكان يشرف على مشروعي النهائي إستاذ روسي طيب القلب من الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية ضد الألمان وقد إصيب بشظية قنبلة في وجهه تركت أثرها على شكل فمه وجعلته حساسا للغاية وعصبيا في بعض الأحيان. ولكن طيبته الزائدة وكرمه الحاتمي كانا من أكبر ميزاته قابلني بعد رأس السنة ببشاشته المعهودة وبعد أن هنأني بالعيد ضحك قائلا هل تعلم أنني المشرف على مشروعك النهائي. فقلت له إن ذلك يشرفني فقال ضاحكا يشرفك أو لا يشرفك فأنا المشرف عليك ولا أحد غيري فضحكنا سويا لهذا التعليق الظريف وذهبت إليه في مكتبه لمعرفة موضوع المشروع ومعطياته وكان المشروع عبارة عن ثلاجة أسماك سعة ثلاثة آلاف طن بمدينة الإسكندرية وبجوارها مصنع ثلج ينتج ٢٥ طن ثلج يوميا. والفرق الوحيد في كون المشروع بمدينة الإسكندرية بجمهورية مصر العربية أو في أي مدينة أخرى بالاتحاد السوفييتي هو في درجة حرارة الجو والرطوبة النسبية وكذلك في أجور العمال عند حساب إقتصاديات المشروع وكذلك في سعر الكهرباء والمياه أي أن يكون المشروع ملائما لكل ظروف مصر.

ومن حق كل طالب أن يسافر إلى أي مدينة في الإتحاد السوفييتي لزيارة المصانع التي يرغب في زيارتها لجمع المعلومات التي تتعلق بمشروعه.

ولما كنت أعلم أنني بطئ في الرسم فقد فضلت أن أقضي هذا الشهر بمدينة إسطراخان التي أدرس بها وأجمع المعلومات التي تخص مشروعي من شركة أسماك ذات إمكانيات هائلة في مخازن التبريد ومصانع الثلج. وكنت أقوم في المساء بإجراء العمليات الحسابية التي تخص المشروع وعند إنتهاء شهر جمع المعلومات وعودة زملائي من البلاد التي سافروا إليها كنت قد أنهيت جميع العلميات الحسابية الخاصة بالمشروع. وبدأت في رسم المشروع وتوقيعه على لوحات.

وكانت اللائحة تنص على ألا تقل مذكرة العمليات الحسابية عن ١٢٠ صفحة فولسكاب ولا تزيد عن ١٥٠ صفحة وأن تكون بخط اليد وأن يتم تجليدها. وكذلك ألا يزيد

عدد لوحات الرسم عن ١٢ لوحة وألا يقل عددها عن ١٠ لوحات. وتتضمن الرسومات المعمارية ووضع المعدات وتوصيلات المياه والمجداري والتوصيلات الكهربائية ودوائر التحكم الآلي.

وكنت أذهب إلى الأستاذ المشرف كل أسبوع أطلعه على ما قمت بعمله، وأستمع إلى ملاحظاته، وبعد الإنتهاء من المشروع وإعتماده منه قمت بإعتماده من رئيس قسم التبريد. وكان مسلما وإسمه حسين عبد الرحمن عبد المانف وكان رجلا صارما وجادا ومتبحرا في علمه.

وقد أعطاني خطاب إلى أحد المهندسين العاملين بالمصانع والممارسين للحياة العملية لمراجعة المشروع وذهبت إليه في منزله وأخذ مني اللوحات والمذكرة الحسابية ووعدني أن أقابله في المصنع الذي يعمل به بعد خمسة أيام يكون خلالها قد أطلع على الحسابات والرسومات وكتب ملاحظاته وقيم المشروع.

وذهبت إليه بعد خمسة أيام وتناقشنا في الملاحظات التي أبداها وسجلها في تقريره وقد كتب في تقريره أنني أستحق على هذا المشروع لقب مهندس ميكانيكا بدرجة جيد جدا.

وتقدمت لمناقشة المشروع بعد ذلك بيومين. وفي يوم المناقشة جاءتني مدرسة الروسي في الساعة الثامنة صباحا فوجدتني مرتديا ملابسي بالكامل أنيقا ومهندما مستعدا للذهاب إلى قاعة المناقشة. ولكنني كنت قلقا بعض الشيء فأخذت استاذتي تشجعني وتشد من أزري. وساعدني الزملاء المصريون في تعليق لوحات الرسم الخاصة بالمشروع وقدمت المذكرة التي تحوى الرسالة إلى لجنة المناقشة وكانت اللجنة مكونة من ثلاثة عشر عضوا. منهم عضوان من المهندسين العاملين بالمصانع وباقي الأعضاء من الأساتذة.

وقد كنت موفقا في إجاباتي والحمد لله وبعد المناقشة هنأتني استاذتي واستأذنت للذهاب إلى منزلها لرعاية أولادها حيث أنها حضرت خصيصا للإطمئنان على سير المناقشة. وقالت لي: لقد إطمأن قلبي على أنك ستحمل لقب مهندس من اليوم ولكني لن أنتظر حتى إعلان التقديرات لأني تركت أولادي في الخامسة صباحا حتى أحضر المناقشة وأطمئن عليك.

فشكرتها وودعتها على أن نلتقي مرة أخرى قبل سفري إلى مصـــر وقــد أعلــن التقدير في الساعة الثالثة بعد الظهر وكان بدرجة جيد جدا.

ومما أسعدني أنه عند حفل تسليم الشهادات كان الأربعة الأوائل من المصريين لــم ينافسهم على هذه المراكز أي روسي أو أجنبي. وصفق الأساتذة والطلبة وأولياء الأمــور كثيرا وبحرارة لتفوق المصريين وجديتهم.

وعدت إلى بلدي ومعشوقتي مصر فعملت لمدة عام بالقاهرة. ثم تركتــها مختــارا للعمل بشركة عملاقة في أقاصي الصعيد هي "شركة مصر للألومنيوم" بنجع حمادي وكما يقول المثل من الصعيد وإلى الصعيد أعود.

وفي الثالث من أكتوبر سنة ١٩٧٣ وبينما نحن في موقع العمل بمجمع الألومنيــوم وجدنا أن كبير الخبراء الروس يطلب من المرحوم الدكتور مهندس/ يوســـف إســماعيل مفوض المجمع المساعدة في ترحيل نساء وأطفال خمسمائة خبير روسي يعملون في إنشاء المجمع حيث أنهم سينقلون بالطائرات الروسية إلى موسكو طبقا لأوامر حكومة الإتحـــاد السوفييتي ودهشنا من هذا الطلب.

وفي الساعة الثانية من السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ قام الجيش المصري البطل بأعظم إنتصار بعبوره قناة السويس وتحطيمه لخط بارليف ببســـالة وشــجاعة منقطعــة النظير. وبذلك قضىعلى اليأس وعلى الكآبة وأحيا الأمل في النفوس وكان فخــرا لكــل مصري ولكل عربي. وتحية لكل هؤلاء الأبطال الذين وضعوا أرواحـــهم علــى أكفــهم وانتصروا في أعظم ملحمة للشرف والكرام.

ورفعوا رأس كل مصري وكل عربي داخل الوطن العربي وخارجه.

* * *

لعنة المؤهل الروسى

روسيا هى الشيطان الأحمر من دخلها وتعلم فيها وحصل على شهادة منـــها فـــهو إبليس الملعون الذى فسق وباء بغضب وقد حرم عليه العمل بجامعة الأزهر وكذلك بجميع البنوك المصرية حكومية وإستثمارية وكذلك جميع شركات القطـــاع الخـــاص وشـــركات الإستثمار وأغلقت أمامه جميع أبواب الترقى إلى الإدارة العليا فى شركات القطاع العـــام مهما كانت إمكانياته الشخصية ومؤهلاته العلمية . فإذا كان حاصلا على البكـــالوريوس فلن يتزحزح عن الدرجة الأولى يخرج على المعاش ونهايته أن يتســـاوى مـــع راســـب الإعدادية .. أما حامل الدكتوراه من روسيا فياويله وياســـواد ليلـــه وســـأضرب مثـــالا بمبعوثى مؤسسة الثروة المائية فقد أرسلتهم الدولة فى منتصف الستينات للحصول علـــى البكالوريوس والدكتوراه من معاهد التقنية الروسية وفى تخصصات جديدة كانت مصر فى أشد الحاجة إليها للنهوض بالثروة السمكية وإمداد الشعب المصرى بغذاء صحـــى غنـــى بالبروتينات والفيتامينات ورخيص الثمن نسبيا، وحتى يتم تخفيض الضغط علـــى اللحـــوم التى لايقدر على شراؤها غالبية الشعب المصرى لإرتفاع أسعارها .

وكانت هذه التخصصات كالتالى : التبريد، محركات السفن، بناء السفن، معـــدات الصيد، المزارع السمكية، تصنيع الأسماك، الإقتصاد، الإليكترونات واللاسلكى .وهذه هى التخصصات اللازمة لتنمية الثروة السمكية سواء فى البحر أو البر .

فماذا حدث بعد أن أتم هؤلاء المبعوثون دراستهم وحصلوا على مؤهلاتهم وكـــانت مشروعات التخرج ورسالات الدكتوراه، مشروعات جادة وقابلة للتطبيق وتحمل كثيرا من الأفكار لتنمية الثروة السكمية والنهوض بها .

فماذا حدث بعد أن عاد هؤلاء المبعوثون وهم متفائلون وتراودهم الآمال لتطبيـــق كل ما رأوه ودرسوه وحصلوا عليه من خبرات .

تم توزيعهم على المؤسسة وشركاتها وهى شركة مصايد أعالى البحـــار ومقرهـــا الإسكندرية وشركة معدات الصيد ومقرها الإسكندرية، وشركة المصايد الشمالية ومقرهـــا الإسكندرية وشركة المصايد الجنوبية ومقرها أسوان وشركة تسويق الأســـماك ومقرهـــا القاهرة ولها فرعين فى الإسكندرية وإسوان. ولكن لم يسند إلى أى منهم أى عمل فعلـــى فلا أحد يرغب فيهم أو فى وجودهم ولايوجد عند المسئولين الشجاعة لتركهم لحال سبيلهم

للعمل فى بعض الأماكن الأخرى مثل الترسانة البحرية ومعهد أعالى البحار التابع لجامعة الإسكندرية ومجمع الحديد والصلب ومجمع الألومنيوم ٠ وعندما نقول للمسئولين مادمتم لاتريدوننا ولاتسندون لنا أى عمل فلماذا لاتتركونا نعمل فى أماكن أخرى ٠ يقولون لنا : إنكم مكلفون بالعمل لدينا لمدة سبعة سنوات ولن نعطيكم أى موافقة بالنقل إلى أماكن أخرى ٠ ومن يترك منكم العمل فسوف يقدم للمحاكمة ونطالبه بتسديد نفقات المنحه٠

ولما فاض بالعائدين الكيل لجأوا إلى جريدة أخبار اليوم وكان ذلك فى سنة ١٩٧١ وتبنت أخبار اليوم قضيتهم ونشرت عنهم تحقيقا صحفيا بعنوان جيش من الخبراء بدون عمل ٠

وهنا فقط تحرك رئيس مجلس إدارة مؤسسة الثروة المائية وأوهم جريدة أخبار اليوم بأنه سوف يحل مشكلة العائدين ويستفيد من خبرتهم ٠ وأجتمع بالعائدين وأستمع إلى شكواهم وشكل لجنة من عشرة منهم وكانوا هم الرؤوس التى حركت جريدة أخبار اليوم٠ وأوهمهم بأنه بالتعاون مع اللجنة سوف تحل جميع المشاكل ٠ ولكنه كان قد بيت النية على أن يشرد بهم شر مشرد وينكل بهم شر منكل حين تهدأ الحملة الصحفية لأخبار اليوم٠ وقد تحقق له ذلك فشتت جميعهم إلى أماكن نائية متفرقة لايوجد بها صحافة ولا إذاعة ولا أنسى ولا جنى ٠ بل ربما راودته مخيلة الإنتقام ليقطعن أيديهم وأرجلهم من خلاف وليصلبنهم فى جذوع النخل إن أستطاع إلى ذلك سبيلا ٠

الدكتور عادل راشد حاصل على الدكتوراه فى الإقتصاد من جامعة كييف تم توزيعه على شركة المصايد الجنوبية بمقر إدارة الشركة بالقاهرة ٠ رئيس الشركة كان ضابطا بفرق الموسيقى العسكرية بالجيش ورئيس شئون العاملين بالشركة لايحمل إلا الإبتدائية القديمة ٠ فهل تقبل إدارة الشركة هذه مرءوس حاصل على دكتوراه فى الإقتصاد يخاطبونه بلقب دكتور وهو يخاطب رئيس الشركة بلقب أستاذ ويخاطب رئيس شئون العاملين بلقب أفندى ٠ طبعا لايمكن أن يحدث هذا ٠ وهو عندما يتحدث معهم يرطن بعبارات روسية وأخرى إنجليزية ٠ وهم كما يقولون لايعرفون عن السمك إلا أن يؤكل مقليا أو مشويا أو ملوحة ٠

إعتبرت إدارة الشركة أن وجود الدكتور عادل راشد الحاصل على دكتوراه الإقتصاد من روسيا كارثة قد حلت بالشركة ٠ فإذا كان الزعيم الروسى لينين قد قاد الثورة البلشفية وأطاح بالنظام الإمبراطورى وأعلن عن قيام الدولة الإشتراكية وسيادة طبقة البروليتاريا٠ فإن هذا الدكتور الأحمر وتعبير الأحمر أستخدم فى مصر لوصف كل من يحمل أفكارا إشتراكية وكذلك أطلق هذا التعبير على كل من عاش فترة من الزمن فى روسيا٠

وقد أطلق الرئيس السادات يرحمه الله هذا التعبير عندما كان رئيسا لمجلة التحرير على زميله عضو مجلس قيادة الثورة البارز الوطنى والمصرى الأصيل نظيف اليد وعفيف اللسان الأستاذ خالد محيى الدين .

وكانت مقالة الرئيس السادات فى مجلة التحرير بعنوان " حاكموا هذا الصباغ الأحمر " . وقد أطلقت كلمة الأحمر على أى إنسان يحمل أفكارا ثورية لأنه إبان الحروب الأهلية الروسية كان الثوار يلبسون ملابس حمراء أما الموالون للإمبراطور فكانوا يلبسون ملابس بيضاء .

ومن ثم فقد أستخدم تعبير أحمر لوصف كل ثائر يحمل أفكارا إشتراكية .فوجود هذا الدكتور الأحمر كارثة لإدارة الشركة وأسناد أى عمل له سوف يفضح فبركة ميزانية الشركة وسوف يكشف السرقات والإختلاسات الموجودة وسوف يكون سببا فى الإطاحة بإدارة الشركة ودخولهم السجن .

وكان القرار لابد من تطفيش هذا الدكتور وإذلاله حتى يكره نفسه ويهرب بجلده ويقتنع تماما أنه ليس بالعلم وحده يعيش الإنسان وإنما بالفهلوة تبلغ ماتريد وبالكوسة يلين لك الحديد ولم يسند أى عمل لهذا الدكتور ولم يسأله أى أحد عن أى شيىء ويستوى عندهم أغاب أم حضر .

وبدأ صاحبنا يشعر بالإحباط والملل وبدأ يتغيب عن الحضور لمقر الشركة ولم يسأل أى أحد لماذا لم يحضر ؟ وإنتهى به المطاف إلى الحضور أول كل شهر فقط لإستلام راتبه ولم يسأل أحد لماذا كان مختفيا .ولم ينقذه من هذا الإحباط إلا كلية التجارة جامعة الزقازيق فقد إنضم إلى هيئة التدريس بها ووافقت الشركة على طلب إستقالته بسرعة عجيبة وعندما قابلته وهنأته على إنتقاله مدرسا بكلية التجارة قال لى : اسكت دول طلعوا دين أمى . قلت له : الحمد لله أن المشكلة إنتهت على خير .

هذا ماكان من أمر الزملاء الذين وصلوا مصر قبلى .

أما أنا فقد أنهيت دراستى فى آخر يونيو سنة ١٩٧٢ ورجعت إلى مصر وتسلمت عملى بشركة تسويق الأسماك فى يوليو عام ١٩٧٢ بإدارة الصيانة .

مدير الصيانة مهندس سمين الجسم أحمر الوجه أبيض الشعر فى الخمسين من عمره . يلبس بدلة كاملة وكرافته فى عز حر يوليو دائم الصراخ والصياح مغتاب ونمام عندما يجلس معنا يقول : عارف ياحبيبى ربنا بعتكم لإنقاذ حال هذه الشركة وحياة النبى ياحبيبى مافيه حد فى الشركة دى مؤهل وأكبر راس فى الشركة دى لايحمل إلا شهادة القرعة .

وعندما يجلس مع العاملين بالخبرة والذين لايحملون مؤهلات يقول لهم : قـــال ؟ عاملين مهندسين ومتخرجين من روسيا ؟ وحياة النبى ياحبيبى الواحد منهم حمار ملبسينه بدلة ، وهكذا لايترك كبيرا ولاصغيرا إلا وننتف ريشه ، وكان برأس صاحبنا مدير عام إدارى للنقل والصيانة ،، من عائلة سراج الدين الشهيرة وكان ضابطا بالجيش وأحيل إلى الإستيداع بعد قيام الثورة ، وللأمانة فقد كان رجلا جادا ومهذبا ويفهم فى عمليات النقل والصيانة وكان يجمعه ورئيسنا المهندس السمين حجرة واحدة ، ولم يكونا على إتفاق أو وفاق وعندما يتواجد المدير العام فى المكتب يتركه رئيسنا السمين فورا وينزل ليجلس معنا فى الورشة ، وكانت ورشة كبيرة لإصلاح جميع أنواع السيارات بما فيها سيارات الثلاجة التى تنقل الأسماك من الإسكندرية وأسوان، وكذلك لصيانة ثلاجات العرض الخاصة بحفظ الأسماك المجمدة ،ويقول لنا رئيسنا السمين مال العساكر ياولدى ومال الشغل الفنى ؟ عارف ياولدى الأفندى اللى عامل مدير عام اللى قاعد فوق ده ؟ يوم عبدالحكيم عامر ما أحاله إلى الإستيداع سلموه القرار مكتوبا على مشط كبريت ، ولأن القائد الذى تلقى أمر الإستيداع بالتليفون لم يكن أمامه ورقة ليكتب عليها ولم يمهله عبدالحكيم عامر حتى يأتى بورقة فكتب القرار على مشط كبريت ، وأهه ياولدى بلوة وتحدفت علينا ،

وكان رئيسنا السمين يتمتع بلسان زفر ودائم الشتيمة وسب الدين ، وكان يحلو لنا فى بعض الأحين أن ننكد عليه ونستثيره على وش الصبح ،

وكانت الورشة تقع أمام محطة المطرية فى شارع يوسف ، وفى يوم النكد الموعود نعمل على إيقاف ستة عربات ثلاجة مرصوصة على جانبى الشارع وهذا معناه أن هناك أعطالا كثيرة وأن الورشة لم تتسع للعربات المتعطلة ، وكما أن معناه أن كمية كبيرة من الأسماك لن يتم نقلها وسوف تتعرض للفساد ، وأن رئيس الشركة سوف يأخذ رئيسنا السمين على حنتور عينه كما يقول المثل المصرى الظريف وعندما ينزل رئيسنا السمين من عربته ويصدم بهذا الكم الهائل من العربات المتوقفة يصيح سابا ، يلعن دين السمك ودين العربيات ودين المهندسين وك ،،،، أم رئيس مجلس الإدارة ،وعندما يصل إلى أم رئيس مجلس الإدارة يضج جميع العاملين بالضحك ،

كان رئيسنا السمين يعود إلى منزله بمصر الجديدة يوميا من الساعة الثالثة مهما كانت مشاكل العمل، ماعدا يوم الخميس فإنه لايغادر الورشة إلا فى التاسعة مساءا ، وكنا لانستطيع أن نتركه وحيدا بالورشة ولابد من التواجد معه إلى التاسعة مساءا ، وكان هذا يضايقنا كثيرا فيوم الخميس يوم مفترج يريد كل منا أن يزور خطيبته ويصحبها إلى

السينما • وفى البداية لم نكن نعلم سر هذا التصرف ولكن إكتشفنا بعد ذلك أن له زوجة شابة جميلة وهو يريد أن يهرب من واجبه الأسبوعى بحجة أنه تأخر بسبب مشاكل العمل وخوفا من فساد السمك وخسارة الشركة وأنه متعب جدا ومرهق جدا ويريد أن ينام جدا• فى أحد الأيام كان يمر فى شارع يوسف أمام الورشة أحد الأشخاص حاملا شنطة يطلق عليها الخرج ومعلق هذا الخرج بحزام فى كتفه • وأخذ يوزع على الموجودين بالشارع إعلانات مكتوبة • والإعلان يدعو إلى شراء العنبر الذى يزيد من الطاقة الجنسية ويجعل العجوز شابا • وقرأ الإعلان أحد الميكانيكية الأذكياء الخبراء فى صيانة مواتير العربات وكان إسمه محمد عبدالله وصعد محمد بالإعلان إلى مكتب رئيسنا السمين • قائلا صباح الخير ياباشمهندس • فرد عليه رئيسنا قائلا : صباح الخير يامحمد عايز حاجة ياحبيبى • قال محمد عبدالله وقد وضع الإعلان أمام الباشمهندس والله ياباشمهندس فيه واحد بيوزع الإعلان ده فى الشارع • ثم ترك محمد عبدالله الإعلان وخرج فورا • وبعد دقيقة واحدة فتح الباشمهندس شباك مكتبه المطل على الشارع وصاح بأعلى صوته يامحمد عبدالله يامحمد عبدالله وبالرغم من أن محمد عبد الله كان يسمع صياح الباشمهندس لكنه لم يخرج من الورشة ولم يرد عليه وواصل الباشمهندس صياحه فى كل ميكانيكى يراه والنبى ياحبيبى تبعت لى محمد عبدالله ودخل الصبية والأسطوات الورشة للبحث عن محمد عبدالله وإرساله إلى الباشمهندس • وأخيرا ظهر محمد عبدالله فى الشارع ورفع وجهه إلى شباك المكتب قائلا أى خدمة ياباش مهندس : فقال رئيسنا وحياة النبى يامحمد ياحبيبى تبعت لى الواد اللى بيوزع الإعلان ده •أجاب محمد عبدالله حاضر يابشمهندس الواد هيكون عند سيادتك حالا •

وقبض محمد عبدالله ومعه إثنين من الميكانيكية على موزع الإعلان وأدخلوه على مكتب الباشمهندس وقال الباشمهندس بكام علبة العنبر ياحبيبى • وكان العنبر موضوعا فى علبة صفيح صغيرة لايزيد وزن العنبر الموجود بها عن ٥ جرام • وقال حامل العنبر بخمستاشر قرش ياباشا • قال الباشمهندس طب خير ياحبيبى آدى جنية وإدينى خمس علب وخلى باقى الجنية علشانك • قال الشاب مسرورا ألف شكر ياباشا ربنا يعمر بيتك ياباشا دا صنف أصلى ياباشا مايطلعش إلا للناس الحلوة اللى زى سيادتك • ولطش الشاب الجنية وأعطى الباشمهندس خمس علب عنبر وخرج يدعو للباشمهندس بالصحة وطول العمر • ولم يترك محمد عبدالله وشركاه الشاب يهنأ بباقى الجنيه وأخذوا منه ثلاث علب دون أن يدفعوا له شيئا • وطلب الباشمهندس من عم غلاب شاى بسرعة وقبل أن يصل

عم غلاب إلى البوفيه ضغط الباشمهندس على الجرس مستدعيا عم غلاب صائحـا فيـه موبخا إياه ومتهما إياه بأنه كسول وتأخر فى إحضار كوب الشاى ٠

وكان عم غلاب ساعيا نوبيا يعامل الجميع بالعدل ولايفرق فى معاملته بين كبـير وصغير ومدير وغفير ٠فإذا طلب الولد بليه الشاى قبل الباشمهندس فلابد أن يشرب بليـه الشاى أولا ثم بعد ذلك يحضر طلب الباشمهندس ٠ وبعد أن أحضر عم غـلاب الشـاى للباشمهندس وضع الباشمهندس قطعة من العنبر بحجم رأس عود الكبريت فى كوب الشاى كما تقول تعليمات الإعلان ٠ وقلبها بالمعلقة حتى ذابت فى الشاى ٠ وبعد خمس دقـائق كان الباشمهندس قد شرب كوب الشاى المذاب به العنبر ٠ ثم نزل مـن مكتبـه ودخـل الورشة وكانت الساعة فى حدود العاشرة صباحا وقال لى : وحياة النبى ياحبيبى إذا حـد سأل على قلله إنى وصلت إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة بشارع الثورة بمصر الجديدة٠ فقلت له بخبث وإذا سأل رئيس مجلس الإدارة شخصيا عن سيادتك ماذا أقول له ٠ وتغامز المتواجدون بالورشة وتبسموا دليلا على أن العنبر من الأصلى وقد آتـى بمفعولـه وأن الباشمهندس لاواصل إلى رئيس مجلس الإدارة ولايحزنزن وإنما على البيت عدل ٠

ولم يظهر الباشمهندس إلا تانى يوم وكان مضيىء الوجه منشرح الصدر ٠

هذا ماكان من لعنة المؤهل الروسى فى مصر ٠ أما فى الدول العربية من ممـالك وإمارات ومشايخ فينظرون إلى من تعلم فى روسيا على أنه ماركسى ولينيـن وكاسـترو وجيفارا وخالد بكداش وخالد محيى الدين وسوف يعمل على الإطاحة بالعائلات المالكة فى هذه الدول وتمكين الرعاع والصعاليك من الإستيلاء على ثروات النفط ٠

ومن ثم فقد حرمت على كل من يحمل مؤهـلا روسـيا دخـول جنـة الممـالك والإمارات والمشايخ النفطية٠

الدكتور بهاء بكالوريوس كلية الزراعة جامعة القاهرة ودكتوراه تكنولوجيا تصنيـع الأسماك من معهد التقنية للإقتصاد وتصنيع الأسماك من روسيا ١٩٧٠م٠

وعند رجوع الدكتور بهاء إلى مصر وجد أن مؤسسة الثروة المائيـة قـد عينتـه بالشركة المصرية لتسويق الأسماك موظفا بالدرجة الخامسة وأساس مرتبه الشهرى خمسة وثلاثون جنيها فقط لاغير ٠

وكان من حق الدكتور بهاء أن يصرف مبلغ ستة جنيهات شهريا بـدل دكتـوراه زيادة على مرتبه الأساسى ٠ ولكن الشركة ماطلت فى صرف هذا البدل وقالت لـه إدارة الشركة مامعناه نحن لسنا فى حاجة إلى هذه الدكتوراه لنعطيك بدلا عنها ٠

والشركة تبيع السمك مجمدا ومقليا ومشويا من قبل أن تأتينا بالدكتوراه ، ومـــاذا تضيفه هذه الدكتوراه من شى أو قلى السمك ، وأحسن لك أن تمشى تفرط رجليك لغايـــة سوق السمك بغمرة ، وأهه يعنى تشرب لك كباية شاى وتعميرة مع معلمين حلقة الســمك وكمان بالمرة تتعرف على مندوبى مصلحة الطب البيطرى ومفتش التموين والتغذية ،

ومن سوء حظ الدكتور بهاء أنه من أول يوم يحط رجله فى سوق السمك، وكـانت الشركة لها مدة طويلة لم تتفاهم مع مندوبى الطب البيطرى ومفتش التموين والتغذيـــة ، وأول ما وضع رجله عمنا بهاء فى حلقة السمك، كبست كل هذه الأجهزة علـــى حصـة السمك المنقولة من بحيرة ناصر والخاصة بشركة تسويق الأسماك، لأنها غير صالحـــة للإستهلاك الآدمى ،

وكان الدكتور بهاء راجع من روسيا حديثا وبدون شك فإنه قد تأثر بالنظافة الشديدة الموجودة فى كل مايخص صحة الإنسان فى روسيا ، فصحة الإنسان فى روسيا مقـــدس فلو ذهب أى إنسان إلى مطعم عام سوف يجد أن العاملات بالمطبخ مرتديات الزى المعقم النظيف وكل منهن تلبس فى يديها جاونتى معقم وتضع على رأسها بونيه أبيض معقم ويتم الكشف الطبى على الجميع دوريا كل شهرين للتأكد من الخلو من الأمراض ويتم غســـل الآوانى والأطباق بالماء المغلى الجارى والصابون السائل ،

ولايمكن لأى عاملة أن تلمس الخبز بيديها فى محلات بيع الخبز ولايمكن للمشترى أن يلمس الخبز بيديه ويأخذ مايعجبه ويترك مالا يعجبه ، ولكن ينتقل الخبز من البائعـــة إلى كيس المشترى بواسطة شوكة كبيرة،

ومسألة وصول غذاء غير صالح للإستهلاك إلى أى إنسان فـــى روســيا مســألة مستبعدة تماما ، ومن ثم فقد أيد الدكتور بهاء قرار اللجنة بـإعدام خمســة أطنـان مـن الأسماك غير الصالحة للإستخدام الآدمى التابعة لشركة تسويق الأسماك بسوق غمـــرة ، إنطلاقا مما تعلمه وعاشه فى روسيا وحرصا على صحة المستهلك . ولــم يكـن يـدرى الدكتور بهاء أن حصة الأسماك التى تصل يوميا من أسوان إلى سوق غمرة بالقاهرة هـى أسماك فاسدة ولاتصلح للإستهلاك الآدمى من يوم أن بدأت شركة تسويق الأسماك من نقل الأسماك من أسوان إلى القاهرة وسوف يستمر الحال كذلك إلى أن تقوم الساعة ،

وكأنما شركة التسويق لم تسمع أبدا عن التجميد السريع عند درجـــة حـرارة ٤٠ تحت الصفر ثم الحفظ عند درجة حرارة ١٨ تحت الصفر ،

ولكن الذى كان يحدث هو أن لنشات الصيد الخاصة بشركة المصايد تقوم بصيد الأسماك من بحيرة ناصر ويستمر اللنش فى الصيد فى البحيرة لمدة ثلاث أيام ويتم وضع ألواح الثلج على الأسماك ونحن نعلم أن الثلج لايعطى تبريد أقل من درجة صفر ٠ وهذه الدرجة غير كافية لوقف نمو البكتريا فى خلال هذه الثلاث أيام التى يستغرقها اللنش فى بحيرة ناصر تكون البكتريا قد تكاثرت ونمت وترعرت فى الأسماك ٠ ثم بعد ذلك تنقل الأسماك فى عربات مكشوفة لمسافة ستة عشر كيلو متر من ميناء بحيرة ناصر إلى ثلاجة شركة جركو بالقرب من محطة السكة الحديد بأسوان وذلك تحت حر أسوان الملتهب وشمسها المحرقة ٠ وتحفظ الأسماك فى ثلاجة شركة جركو عند درجة حرارة ثلاثة فوق الصفر وهذه الدرجة ملائمة تماما لنمو البكتريا ٠

وبعد ذلك تنقل الأسماك على طوايل خشبية ويرش على الأسماك ثلج مجروش وملح لتنتقل فى عربة ملحقة بالقطار المجرى إلى القاهرة لمدة ١٦ ساعة ٠ وهذه العربة معزولة فقط ولكنها ليست عربة ثلاجة أى لايوجد بها تبريد صناعى ٠

ويتم نقل الأسماك من ثلاجة شركة جركو فى عربات الثلاجة التابعة لشركة التسويق ٠ ولكن سائق العربة لايقوم بتشغيل معدات التبريد الخاصة بالثلاجة إلا عند مشارف القاهرة وذلك حتى لايزعجه صوت معدات التبريد طوال المسافة من إسوان إلى القاهرة ٠

وعندما تصل الأسماك إلى سوق غمرة تكون قد فسدت تماما وأصبحت غير صالحة للإستهلاك الآدمى ٠

وعندما علم رئيس مجلس إدارة شركة تسويق الأسماك بتوقيع الدكتور بهاء متضامنا مع اللجنة فى ضرورة إعدام الأسماك حتى هاج وأصدر أوامرة قائلا : الواد بهاء ده مايحطش رجله فى سوق غمرة تانى وينقل إلى إدارة التخطيط ويقوم بحساب المعدلات الشهرية لإستهلاك السيارات من الوقود ٠

ماهو وجه الشبه ياسيادة رئيس الشركة بين دكتوراه تكنولوجيا الأسماك والبنزين والسولار ٠ ليس هناك أى وجه للشبه ٠ ولكن الناس بتشترى السمك ده من سوق غمرة كل يوم ومبسوطه منه على الآخر وماحدش مات وماحدش إشتكى إنما الواد ده هيعمل لى فيها وطنى ويخرب بيت الشركة. يغور فى ستين داهيه. بلادكتوراه من روسيا، بلا كلام فاضى ٠

ولم ينقذ الدكتور بهاء وزميله الدكتور صلاح إلا إلتحاقهما أستاذين للصناعات الغذائية بكلية الزراعة جامعة أسيوط ٠

***

ياسلام على الزلابية يا أولاد

لابد من تعريف ما هي الزلابية قبل الدخول في الموضوع؟

فالزلابية أكلة مصرية تعتبر من الحلويات لذيذة المذاق طرية القوام حلوة الطعم. تعتبر إفطارا شهيا لسكان الأحياء الشعبية، وتقدم كذلك للتحلية بعد الإفطار في شهر رمضان الكريم. وتصنع من عجينة دقيق القمح والسكر وتقلى في السمن. أما سكان الأحياء الراقية فلهم حلويات أخرى لها مواصفات وأسماء أخرى. مثل التورتة والجاتوه والمارلون جلاسيه.. وغيرها كثير. وأنا لم أذق المارلون جلاسيه طول حياتي ولا حتى في ليلة زفافي.

وعبارة "لم أذقها ولا حتى في ليلة زفافي" لها حكاية ظريفة حدثت في بلدتنا ساحل سليم منذ أربعين عاما. فقد كان هناك مدرسا شيخا أزهريا معمما، رجلا طيبا تتسم تصرفاته دائما بالورع والتقوى.

وكان الوقت صيفا، وهذا الوقت من السنة أجازة للطلبة والمدرسين. وقد تسلم مولانا الراتب الشهري لأحد زملائه المغتربين عن البلدة. وكان هناك زميل آخر ينتظر مولانا في مندرة إحدى العائلات القريبة من جامع الدراوشة بالبلدة، ليأخذ منه الراتب ويرسله إلى صاحبه. وبعد أن صلى مولانا فريضة العشاء، دخل المندرة فوجد بها مجموعة من الموظفين فالقى عليهم السلام، فوقفوا جميعا إحتراما له وآخذ يصافحهم فردا فردا. وقبل أن يتم مصافحة الجميع، إذ بكبسة مباحث من مركز البدارى بقيادة ضابط مباحث المركز تقتحم المندرة، وتصادر دخان المعسل والفحم والجوزة وتقتاد الجميع ومنهم هذا الشيخ البائس بتهمة تدخين الحشيش. وأصاب الشيخ الهلع فليس من أجل ذلك دخل المندرة. وتوسل إلى الضابط محاولا أن يوضح له أنه لم يكن موجودا بالمندرة وإنما دخلها قبل هجوم القوة بثواني معدودة.

ولإقناع ضابط المباحث ببراءته توسل إليه ورجاه قائلا:

" والله يا سعادة البيه لم أذقها ولا حتى في ليلة زفافي ".

فدفعه الضابط بعنف قائلا "أركب البوكس يا راجل يا هزوء يا إبن الكلب". وعندما ذهب نائب مجلس الأمة عن دائرة مركز البدارى إلى وكيل النيابة راجيا منه أن يفرج عن هؤلاء الموظفين حتى لا يضيع مستقبلهم، قال له وكيل النيابة:

"دول فيهم واحد شيخ من السطل مش قادر يقف على رجليه". الشيخ لم يكن مسطولا يا سيادة وكيل النيابة ولكنه الخوف من الفضيحة وضياع المستقبل. وقد أصبحت هذه إحدى النوادر الطريفة في ساحل سليم، فكان الصبية عندما يجدوا أحد أبناء هذا الشيخ يصيحون مرددين: "والله يا سعادة البيه لم أذقها ولا حتى في ليلة زفافي" ثم يقهقهون بصوت عالي.

أما صاحبنا صاحب عبارة "ياسلام على الزلابية يا أولاد" فعلى الباخرة التي أقلتنا من الإسكندرية إلى روسيا تعرفنا عليه فهو زميلنا في المنحة الدراسية إلى روسيا وعلى سطح الباخرة استعرض نفسه تماما وحاول أن يلقى في روعنا أنه مركز قوة لا يستهان به وأنه واسطة كبار البلد وحكامها ولكن كانت طريقته هي طريقة الأفندية أولاد البلد عندما يقولون "إحنا بتوع كله، إحنا اللي مقطعين السمكة وديلها وإحنا اللي دهنا الهوا دوكو". يقولون ذلك للجميع حتى يثبتوا أنهم مفتحين ولن يضحك عليهم أحد أو يغلبهم أحد.

وبعد أن حصل صاحبنا على مؤهله المتوسط جند بالجيش وأثناء فترة تجنيده، أعلنت مؤسسة الثروة المائية عن المنحة إلى روسيا. وكان صاحبنا من سكان حي الحلمية الجديدة بالقاهرة، وهو حي يتوسط أحياء السيدة زينب والدرب الأحمر والقلعة. وكان من أبناء الحلمية شخصية كبيرة ومركز من مراكز القوى في مصر في الستينات يعمل له ألف حساب، وقد كان مديرا لمكتب المشير عبد الحكيم عامر وأحد رجاله المقربين إليه، وقد شغل منصب وزير الحربية قبل النكسة بشهور، ثم تم محاكمته بعد النكسة بتهمة التآمر مع قادة الجيش الموالين للمشير عامر للإستيلاء على الحكم. وكانت هذه الشخصية المرموقة لها أيادي بيضاء على أهالي الحلمية الجديدة ويقدم دائما لهم كل ما يستطيعه من مساعدات. ومن علامات الإنسان الأصيل في مصر تقديمه العون والمساعدة لابناء بلدته وأبناء حيه "أبناء حتته كما يقول التعبير المصري". ولجأ صاحبنا إلى هذه الشخصية المرموقة وحصل على إعفاء من الخدمة العسكرية وسافر إلى روسيا، وحكى صاحبنا حكايته بعد أن صعدنا إلى الباخرة الروسية من ميناء الإسكندرية، وبعد أن أنهى حكايته أخذ يردد جملة "يا إبني إحنا بتوع التكتكه وإحنا بتوع السكسة". ولقد فهمت فورا معنى التكتكه وهي مأخوذة من المصطلح الإنجليزي تاكتيك أي يضع خطة وغالبا ما يستخدم هذا المصطلح في التحركات العسكرية.

أما كلمة "سكسكه" فلم أعرها إهتماما ولم أسأل عنها وقلت في نفس إنها من أخوات تكتكه، ولكن الآن وأنا أكتب قصة صاحبنا هذا أتذكر أن هناك مصطلح يستخدم في بلدنا في الصعيد وهو الفعل من "سكسكه" ويقال: "سكسك" أي رجع إلى الخلف والمضارع منها

"يسكسك" أي يرجع للوراء. قلت في نفسي آه: إن صاحبنا يقصد بـ " تكتك وسكسك" أنه مكر مفر مقبل مدبر معا، كما قال شاعرنا العربي القديم إمروء القيس. أي أن خطط تحركاته غاية في العقل والإحكام. وقد إتضح أن صاحبنا رجل طيب بالرغم من جملته التي يرددها كثيرا "إحنا بتوع التكتكه وإحنا بتوع السكسكة". وأنا أتخيل أن أحسن واحد يمكن أن يرد هذه الجملة الفكاهية هو الفنان الكوميدي الظريف سيد زيان وسوف يرددها بهذه الطريقة المضحكة كما عهدناه "يابا إحنا بتوع التكا تكا إحنا بتوع السكا سكا يابا".

لقد تربي وترعرع صاحبنا في بيئة دينية فوالده ازهري يعمل مدرسا للغة العربية، وصاحبنا مواظب على الصلاة في أوقاتها. ولكن كثرة كلامه عن معارفه من الشخصيات المرموقة وترديده الدائم لعبارة "التكتكه والسكسكة" جعل الزملاء يعتقدون أنه ولد "مقطع السمكة وديلها" كما يقول التعبير المصري. ونسى الزملاء اسم والده تماما وأصبحوا ينادونه باسمه متبوعا بكلمة "تكتكه" وفي بعض الأحيان "سكسكة".

ولا أدري كيف أغرى بعض أولاد الحرام صاحبنا التكتكة بقضاء ليلة حمراء بعد وصولنا لمدينة كييف بثلاثة أيام فقط. وذهب الزملاء الثلاثة وكان صاحبنا التكتكة رابعهم إلى غرفة أحدى العاملات في مطعم بيت الطلبة وكانت شابة صارخة الجمال وكان معها في هذه الليلة إختها وصديقتان لها وأكلوا وشربوا البيرة والفودكا ذلك المشروب الروسي القوي اللعين. ولم يكن صاحبنا قد تعاطى خمرا أو إرتكب منكرا قبل ذلك. وقضت عليه الفودكا وأفقدته رجولته في هذه الليلة. وفضحه الذين كانوا معه، فقد كان الثمانية يمارسون الجنس في غرفة واحدة. وقالوا: إن التكتكة خلع جميع ملابسه ولكنه أبى أن يخلع القميص والكرافته، ولما لم يحدث له إنتصاب ولم يستطع فعل أي شيء أخذ يمص ثدي رفيقته ويحسس على صدرها ويقول "ياسلام على الزلابية يا ولاد" وآخذ يردد طول الليل "ياسلام على الزلابية يا ولاد".

ولكنه لم يفعل شيئا. وأصبحت هذه العبارة من العبارات التي يتندر بها الزملاء ضاحكين عند رؤية صاحبنا التكتكة. ولم يكرر التكتكة هذه المحاولة. ولم يشارك في ليالي حمراء أو بيضاء أو سوداء بعد ذلك، ولكنه على كل حال قد تزوج من روسية يعني أنه مازال " آخر تكتكه وسكسكه".

***

الفلاحة والعاهرات

كانت تجمعنا والزملاء الروس أمسيات جميلة نتحدث فيها عن مصر الفرعونية وأهراماتها وآثارها وعظمتها وتقدمها كما نتحدث عن مصر الحديثة ونهضتها ومسايرتها لروح العصر وخوضها غمار سباقة وتحدياته. وتتناول الأحاديث عظمة مدينة لينينجراد التي بناها القيصر بطرس الأكبر وجعلها عاصمة لروسيا ومقرا لحكومته وسميت باسمه "بطرس سبورج" ثم تغير إسمها إلى لينينجراد على اسم الزعيم السوفييتي لينين، وذلك بعد قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧ والقضاء على حكم القياصرة.

ونصحنا الاصدقاء الروس بزيارة مدينة لينينجراد ومشاهدة عظمتها السياحية والثقافية والفنية. لأن من لم يشاهد لينينجراد كأنه لم يشاهد شيئا في روسيا. وكان بعضنا يقضي الأجازة الصيفية في روسيا ولم ينزل إلى مصر.

وفاتحنا المشرفة التي تتابع مسيرتنا الدراسية في هذا الموضوع وكانت سيدة طيبة للغاية، وتحمست لزيارة لينينجراد حماسا شديدا، ووعدتنا بالحصول على موافقة إدارة المعهد للقيام بهذه الزيارة. ثم جاءتني فرحة مبشرة قائلة: لقد إعترضت إدارة المعهد في البداية على هذه الرحلة بقولهم: كيف تسافرين وحدك مع شباب من شتى الأوطان والملل، ولما قلت لهم إنك معي ستساندني وتشاركني المسئولية، وافقوا فورا. قلت لها: شكرا لكي ولإدارة المعهد على هذه الثقة الغالية، وسيكون لكي مني ما وثقتي فيه وما تعهدتي به.

واستمتعنا بهذه الرحلة الجميلة للمدينة العظيمة وشاهدنا أكبر متحف فني في العالم "الأرميتاج" ويضم المتحف آثارا فرعونية ولوحات فنية لعظماء ومشاهير الفن في روسيا والعالم. كما زرنا قصور القياصرة وأعجبنا بكل ما فيها من تماثيل ومحاريب وأواني مذهبة وغير مذهبة غاية في الإبداع والاتقان كأنما صانعوها هم مردة الجن وخدم النبي سليمان. وزرنا الكوخ الذي كان يختبئ فيه الزعيم لينين عن عيون شرطة القيصر. وصعدنا إلى الباخرة التي إنطلقت منها شرارة الثورة الروسية. وقمنا برحلات نهرية جميلة. كل ذلك جعل مشرفتنا ريمه في حالة سعادة ونشوة عظيمة. وكما تقول استاذتنا المذيعة العظيمة سامية الأتربي في برنامجها الشيق الناجح حكاوي القهاوي: أما ما جاء بعد ذلك يا سادة يا كرام فقد جعل ريمة في غاية الهم وعدم الوءام. إذ إنضم إلينا فوج من فاتنات بولنده جعل مزاج الست ريمه يتعكر من بداية النهار ده. ومما زاد الطين بله أن هؤلاء الفاتنات كن من المرحات المتحررات، فأعتبرتهن ريمة من الساقطات العاهرات.

وضبطتني الست ريمة في وضح النهار أتضاحك مع إحداهن وأشرب السيجار. وأعتبرت أن ما حدث جريمة العصر التي تستلزم طردي إلى مصر.

وشخطت ريمة في البنية فردت عليها البولندية بالروسية، وكنت أن الضحية، وكأنني أشهد عركة في بولاق الدكرور يتم فيها التشريح بالسكين والساطور. وشتمت ريمه كل فوج البولنديات ووصفتهم بالعاهرات الساقطات أما البولنديات فرددن الشتيمة بأقذع منها ووصفوا ريمه وأهلها بالروسيات الفلاحات المتخلفات، وكاد حلف وارسو أن ينهار بسبب الضحك والسيجار. وأبعدنا البولنديات عن الاشتباك بالروسيات.

وقالت ريمة إنكم تواعدوهن على الغداء سرا. قلت بل في أفخم المطاعم جهرا.

قالت ريمة إعزمني على الغداء وسيبك من هؤلاء العاهرات، قلت لها يا الله بينا وما فات قد مات. وذهبت مع الفلاحة الروسية وخسرت الفاتنة البولندية.

***

نوادر وطرائف

لا تخلو حياة الطلبة في جميع أنحاء العالم من النوادر والطرائف، وذلك بالرغم من صعوبة هذه الحياة وتواضعها بل وقسوتها في بعض الأحيان.

فالطلبة هم الشباب الحالم الذي يرنو دائما بعقله وفكره نحو المثاليات ويتوق دائما إلى تغير الحياة نحو الأفضل. يقرأ كثيرا عن القانون وحقوق الإنسان والعدالة والمساواة، فيؤمن بكل ما في ذلك من خير وجمال، ويعتنق ما فيها من مبادئ ومثل، ويحاول أن يجد صدى أو أذان واعية لما يقرأ عنه ويؤمن به ويعتنقه، ويصدم بالواقع الأليم، كذب ونفاق، ورشوة، ومحسوبية، وضلال وفساد إلى النخاع. لكن الشباب لا يعرف اليأس ويحاول التغيير، ونادرا ما ينجح، وكثيرا ما تنزل المطارق على رأسه والهراوات على ظهره، وطلقات الرصاص في صدره، ولكنه لا يهجع ولا يستكين ولا يرتد ولا يتنازل عما يؤمن به ويعتنقه.

ولا ينسى الشعب المصري ثورات الأزهر ضد الفرنسين ولا ثورات الطلبة ضد الاحتلال الإنجليزي.

وقد استطاعت حركة الطلبة أن تفرض التغيير في فرنسا عام ١٩٦٨ وأن تأتي بحكومة غير حكومة ديجول، بعد موافقة الرئيس ديجول على إجراء إنتخابات حرة، علما بأن حكومة الرئيس ديجول لم تكن قد أكملت مدتها القانونية. لكن الرئيس ديجول كان من القيادات العظيمة الواعية التي لا يكون هدفها وجل تفكيرها الاحتفاظ بكرسي الرئاسة والحفاظ عليه حتى ولو أريقت الدماء وفنيت الشعوب.

أما في الصين فقد حدث عكس ما حدث في فرنسا فقد قمعت حكومة الصين حركة الطلبة وسحقت إعتصامهم في ميدان القبة السماوية في العاصمة بكين ولم تعبأ حكومة الصين بعدد القتلى ولا الجرحى ولا بكم الدماء التي اسيلت ولا بالارواح التي أزهقت وأتذكر عندما كنت تلميذا صغيرا في مدرسة ساحل سليم الابتدائية قبل ثورة علم ١٩٥٢. كنا نخرج في مظاهرات نطوف فيها بساحل سليم وبالقرى المجاورة لها، نهتف مطالبين بجلاء الإنجليز عن مصر، وبسقوط حلف الأطلنطي. وكان إخواننا الطلبة السودانيون بمدرسة ساحل سليم الثانوية، وكانوا على درجة عالية من الثقافة والوعي السياسي، يخطبون في تجمعات القرويين من الفلاحين يشرحون لهم كيفية سيطرة الإنجليز على مقدرات الأمور والإقتصاد في مصر والسودان، ويضربون المثل بالقطن المصري الذي يشتريه الإنجليز بأبخث الأثمان، ثم يصدروه مرة أخرى إلى مصر والسودان بعد تصنيعه في مصانعهم وبيعه لنا بأغلى الأسعار.

وعندما تقدم بي العمر صرت أسخر من نفسي ومن زملائي ونحن تلاميذ صغار، وأقول لنفسي "هل هتاف تلاميذ صغار في ساحل سليم في الصعيد سوف يسقط حلف الأطلنطي". طبعا لم يسقط حلف الأطلنطي بعد هتافنا بسقوطه، ولن يسقط هذا الحلف حتى ولو هتفت ضده جميع الشعوب المقهورة. لكن الموضوع أنه كان هناك وعي بأن السيطرة السياسية هي في نفس الوقت سيطرة على إقتصاديات الشعوب ومعيشتها. وإتضح لي أن الغرض من الهتاف ضد حلف الأطلنطي هو مطالبة حكوماتنا في ذلك الوقت بعدم الوقوع والارتماء في أحضان السيطرة السياسية والاقتصادية لدول حلف الأطلنطي.

وعلى المستوى الفردي لطالب أزهري صعيدي صغير السن في بلدة البداري بأسيوط، ولقبه "الضرس" وتنطق في الصعيد "الدرس". لم يصبر "الدرس" على الظلم ولم يرضى بالذل والمهانة عندما علم أن مأمور مركز البدارى حبس جده وعذبه وأمره بأكل

التبن. غلى الدم في عروق "الدرس" وأقسم لينتقمن لكرامة جده من هذا المأمور الظالم. وتربص "الدرس" لهذا المأمور الظالم وأطلق عليه الرصاص فارداه قتيلا.

وكانت هذه القضية من أشهر القضايا في الثلاثينيات من هذا القرن. وترافع كبار المحامين عن "الدرس" هذا الشاب الذي ثار لكرامة جده ولم يرضى بالذل والهوان. وحكمت المحكمة على "الدرس" بالسجن المؤبد. وأنشد فيه زملاؤه من طلبة الأزهر شعرا يصفون فيه شجاعته وثورته على الظلم ومن ضمن ما قالوا هذا البيت، الذي يفخر بشجاعة البداري بلد "الدرس".

إن البداري أمة .. قتلت باغيا بنهار

وجبال الألب تخشى بأسها .. وتقول آه من بأس البداري حذاري

وفلاديمير إليتش لينين قائد الثورة البلشفية في روسيا بدأ يعد للثورة ويكتب المنشورات داعيا إلى العدل والمساواة عندما كان طالبا بكلية الحقوق بجامعة قازان. وقد أعدم أخوه الكسندر عام ١٨٨٧ عندما أشترك في مؤامرة لقتل القيصر الكسندر الثالث وفي عام ١٩٠٥ حصد حرس قصر القيصر آلاف الأرواح من المشاركين في حركة سلمية كانت تريد مقابلة القيصر ومطالبته باصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية في روسيا. ومن هذه اللحظة بدأ لينين وهو مازال طالبا بكلية الحقوق بعدم اقتناعه بجدوى المسيرات السلمية وكتابة العرائض المطالبة بالاصلاح. وبدأ يخطط لتغيير الاوضاع تغييرا جذريا وإقامة مجتمع تسوده العدالة والمساواة على أسس ومبادئ النظرية الماركسية.

ويذكر الشعب المصري بكل إعزاز وتقدير الزعيم الوطني الشاب مصطفى كامل. وكيف بدأ كفاحه ضد الاستعمار الإنجليزي أيام أن كان شابا يافعا يدرس في مدرسة الحقوق. وكان مصطفي كامل يخطب في الجموع ويكتب في الصحف في الداخل والخارج مطالبا بجلاء الإنجليز عن مصر وفاضحا اساليبهم القمعية في إذلال الشعب المصري والسيطرة على مقدراته ونهب ثرواته، وقام مصطفى كامل بحملة شعواء أطاحت باللورد كرومر المندوب السامي البريطاني بعد حادث دنشواي الشهير الذي نصبت فيه المشانق لأهالي دنشواي واعدموا وجلدوا أمام أهلهم وذويهم ظلما وعدوانا. ثم كون مصطفى كامل الحزب الوطني. وظل مصطفى كامل مناضلا في سبيل استقلال مصر إلى أن صعدت روحه إلى بارئها وهو في ريعان شبابه.

ولكن بالرغم من أن حياة الطلبة بها كثير من الجد، لكنها لا تخلو أبدا من النوادر والطرائف والهزل.

وكنت أعتقد أن الطلبة في مصر فقط هم الذين يعرفون ما يسمى بالبرشام وهو عبارة عن أوراق صغيرة الحجم مكتوبة بخط صغير جدا يستعين بها الطلبة عند آداء الامتحانات في تذكر الاجابات ويخرجونها من جيوبهم خلسة وينقلون منها إجابات الاسئلة في غفلة من المراقبين. ولكن آه لو تم القبض على طالب وهو في حالة تلبس بالغش من البرشام فيا ويله ويا سواد ليله يطرد فورا ويحرم من الامتحان لمدة عامين.

وعندما سافرت إلى روسيا للدراسة إتضح لي أن جميع الطلبة في كل انحاء العالم يستخدمون البرشام. وهناك مقولة يتداولها الطلبة والطالبات الروس وهي "الطالب لا يكون طالبا بدون برشام".

يوم الإمتحان في مادة التصميم وأجزاء الماكينات جاءت الزميلة تانيا جارو كافا كعادتها دائما أنيقة متأنقة، ضاحكة ومستبشرة، لا يعتريها قلق ولا كآبة ولا خوف من الامتحان ولا من استاذ المادة ووكيل المعهد اليهودي ابراهام مديفيتيف، وكان استاذا جادا ومتمكنا في علمه وصاحب مؤلفات في التصميم وأجزاء الماكينات. وفي إنتظار دورنا لدخول لجنة الامتحان، حيث أنه يدخل في البداية ستة من الطلبة فقط يوزع على كل طالب منهم ورقة بها ثلاثة أسئلة، والأسئلة ليست موحدة بمعنى أن أسئلة كل طالب تختلف عن أسئلة الطلبة الآخرين وعندما ينتهي الطالب من إجابة الأسئلة الخاصة به يجلس أمام الأستاذ ليناقشه في إجاباته ثم يحاوره في المقرر الدراسي بالكامل. أي أن الامتحانات شفوية. وعندما يخرج طالب من اللجنة يدخل بدلا منه طالب آخر وتعطى له ورقة أسئلة مختلفة، وهكذا. وكانت تانيا توزع على الزملاء ابتساماتها وتعليقاتها وقفشاتها. ثم دخلت لجنة الامتحان وأخذت الأسئلة من الأستاذ وجلست لتجهز الإجابات.

وكانت تانيا تلبس جيبة قصيرة وشراب طويل جدا يغطي فخذيها. واستغلت تانيا إنهماك الأستاذ واستماعه لإجابات الطالب الذي يجلس أمامه، ولاحت من الأستاذ إلتفاته ناحية تانيا فلمحها ترفع الجيبة وتخرج برشامة من بين فخذها والشراب فترك الأستاذ مكانه وذهب إليها وأخذ منها البرشامة وقال لها كفاية كده وتعالي أجيبي على الأسئلة أمامي. وخارت قواها. وقلنا والله ضاعت تانيا يا ولداه، ولابد أنها راسبة في هذه المادة، وخاصة أن الأستاذ كان ذو وجه صارم وهو ليس أستاذ المادة فقط ولكنه وكيل المعهد. وعندما جلست تانيا أمامه ترتعش قال لها بنصف إبتسامة "أنا عندي بنتي معكم في كلية الميكانيا وأنا أراها وهي تضع البرشام في شنطتها ولكني أول مرة أرى واحدة تضع

البرشام بين فخذها والشراب فضحكنا وعادت إلى تانيا روحها ودخل إلى نفسها بعض الاطمئنان أن الأستاذ لن يذبحها. وأخذ الأستاذ يسألها بطول المقرر وعرضه وهي تجيب في ثقة وكانت تانيا من النوع الواثق من نفسه وتجيد التعبير عن أفكارها. وبالرغم من إجاباتها الشفوية الممتازة إلا أن الأستاذ أعتبرها ناجحة بدرجة مقبول فقط. قلنا الحمد لله أنه لم يعصرها بين تروس الماكينات.

مرة أخرى ونحن في قاعة مناقشة مادة الفيزياء. وأستاذ المادة هو صمويلوف وهو أستاذ عكر المزاج يقترب عمره من الستين يوجد بينه وبين الطلبة ود مفقود، يكره الطلبة الأجانب ولا يثق في استيعابهم للمادة. وكان الطلبة الروس والأجانب يبادلونه كرها بكره، ولا يثقون فيه ولا في تقييمه لأن تقييمه كان دائما يخضع لحالته المزاجية.

وكان هذا الأستاذ ذو تعليقات لاذعة ولسان زفر. وكان موضوع المناقشة هو "المجال المغناطيسي". وبدأ هذا الأستاذ العكر يسأل ونظر في سجل أسماء الطلبة ونادى: تانيا جاروكافا، ووقفت تانيا وسألها الأستاذ: ما هو المجال المغناطيسي وما هي خواصه؟ وأخذت تانيا في الإجابة. ثم قالت: "ويكون المجال المغناطيس عموديا.." ثم توقفت ولم تكمل، وقال لها الأستاذ بتهكم وإزدراء: أجيبي لماذا لم تكملي، إجيبي المجال المغناطيسي عمودي على إيه؟ ما يمكن يكون عمودي عليكي؟ ولم تدري تانيا ماذا تقول لهذا الأستاذ البذئ وأصبحت في نص هدومها كما يقول التعبير المصري. واستنكرنا نحن هذه العبارة غير اللائقة، وإزددنا كرها وإحتقارا له وضقنا به ذرعا. ويصف الروس أمثال هذا الأستاذ بأنه "إيفان الروسي"، أي ذلك الفلاح الذي جاء من وراء الجاموسه ليس عنده ذوق ولا حياء.

كان في مجموعتنا الدراسية زميل روسي، كف يده اليمنى مقطوعة، وكان هذا الزميل جادا ويعتمد على نفسه ويرسم مشاريعه بيده الشمال. ولكنه كان دائما يضع ما تبقى من ذراعه في جيب بنطلونه.

وفي إحدى المرات ناداه صمويلوف هذا، ليجيب على أحد الأسئلة ووقف الزميل وأخذ يرسم الدائرة الكهربائية على السبورة ويكتب المعادلات بيده الشمال وواضعا ذراعه الأخرى في جيبه. وعندما لاحظ ذلك صمويلوف قال له بإحتقار: أخرج يدك من جيبك وإنت عامل كده زي ما تكون من كبار الطبقة البرجوازية. وهنا لم يحتمل الزميل المصري نصر شكري هذا الموقف المحرج لزميلنا الطالب الروسي، وخاطب الزميل نصر هذا الأستاذ بعصبية قائلا له: إن هذا الزميل له ظروف خاصة تجعله يضع يده في

جيبه ولم يكن هناك أي داعي لأن تسخر منه قبل أن تعرف السبب. قال الأستاذ البذئ لا داعي للعراك يا أيها الرفيق المصري فقد فهمت الموقف الآن وإنتهى الموضوع. ألم أقل لكم أن هذا الأستاذ هو "إيفان الروسي".

في إحدى المرات أبلغ أحد الزملاء المصريون إدارة المعهد أن بعض زملائه من المصريين يلعبون القمار وقد عقد لنا مدير المعهد إجتماعا أنبأنا فيه بما وصل إليه، وقد نفيت أنا هذه التهمة عن الزملاء، وفي تحدي سافر أصر مدير المعهد أن يقوم بحملة تفتيشية مفاجئة على غرف الزملاء المصريين الذين لم يحضروا الاجتماع. وسبقته إلى غرف الزملاء لتحذيرهم إن كان هناك شئ غير لائق. وعندما طرقت باب إحدى الغرف فتحوا لي بعد أن عرفوا من الطارق. ويا هول ما رأيت إنهم يطبعون صوراً جنسية فاضحة. والصور ملصقة على زجاج شبابيك الغرفة لكي تجف. كما توجد الصور في كل مكان على الاسره وعلى الكراسي، ومازال الطبع مستمرا. وكان هذا الفيلم ملكا لأحد الزملاء الايرانيين. وللأمانة لم تكن تنتشر في روسيا مثل هذه الأفلام في ذلك الوقت.

قلت لهم يا أبناء الأبالسة إخفوا كل هذه الأشياء بسرعة قبل أن يصل المدير وتصبح فضيحة أنيل من فضيحة لعب القمار. وبسرعة فائقة أخفينا كل شيء وقام المدير بحملته التفتيشية ولم يجد شيئا وإنتهت الليلة على خير.

***

إذلال الشباب الألماني

كان يوم ٩ مايو عام ١٩٤٥ هو يوم إنتصار القوات الروسية والسوفيتية على القوات الالمانية ودخول الجيش السوفيتي العاصمة الالمانية برلين. وأعتبر الروس يوم ٩ مايو هو عيد النصر.

ويحتفل الروس إحتفالا كبيرا في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي بعيد النصر في يوم ٩ مايو من كل عام. وفي صباح ذلك اليوم يقام عرض عسكري كبير في الميدان الأحمر أمام قصر الكرملين في العاصمة السوفيتية موسكو. تستعرض فيه روسيا نماذج من وحداتها وتشكيلاتها العسكرية لمختلف الأسلحة. وفي هذا اليوم تظهر روسيا العين

الحمراء للدول الرأسمالية المناهضة للأنظمة الشيوعية في العالم. ويشهد هذا العرض العسكري قادة الدولة السوفيتية وزعماء الحزب الشيوعي السوفييتي. وزعماء الأحزاب الشيوعية في العالم، وكذلك سفراء الدول والملحقون العسكريون.

وكذلك يقام هذا الاحتفال وتلك العروض العسكرية في جميع مدن الاتحاد السوفييتي. ويعلق فيه قادة الحزب والجيش والمحاربون القدامى على ستراتهم جميع الأوسمة والنياشين التي حصلوا عليها وما أكثرها وكان أشهر وأرفع هذه الأوسمة هو وسام لينين للعمل الوطني.

وفي المساء يتم الاحتفال بالأكل والشرب والموسيقى والرقص وتكون موائد الروس عامرة بكرم شديد وبسخاء أشد بكل مالذ وطاب من لحوم وأسماك وكافيار وشمبانيا ونبيذ وفودكا وكونياك. ويستمر الأكل والشرب والرقص طوال الليل وإلى الساعات الأولى من الصباح.

وفي مدينة استراخان التي كنا ندرس بها، أقام النادي الدولي، وهو نادي يجمع جميع الدارسين من جميع الدول. أقام النادي الدولي إحتفالا كبيرا. وأوعز لنا الروس أن نوجه الدعوة إلى فوج من الطلبة والطالبات الالمان من جمهورية ألمانيا الديمقراطية والذين يدرسون بكلية طب الأسنان بمدينة فولجاجراد الروسية "ستالينجراد سابقا". وكان هذا الفوج الألماني يزور مدينة استراخان في ذلك الوقت. ووجهنا لهم الدعوة لحضور هذا الإحتفال فلبوا دعوتنا شاكرين.

ولم نفطن في البداية إلى الفخ الذي نصبه الروس لاذلال الشباب الألمان، إلا بعد بداية الحفل وإلقاء الكلمات لتهنئة الروس بعيد النصر. وفي الكلمات التي ألقيت تم إحياء ذكر الاحتلال النازي لاراضي الاتحاد السوفييتي وما صاحب ذلك من خراب وقتل وتعذيب. وفي بداية كلمتي هنأت الروس بعيد النصر على القوات الالمانية الغازية وعلى النازية وعلى العنصرية. ثم هاجمت بشدة حكومة المانيا الغربية متهما إياها بإمداد إسرائيل بالمال والسلاح الذي تقتل به العرب وتحتل أراضيهم. فصفق الروس كثيرا لكلمتي وسمعت منهم عبارات التهنئة والاستحسان. وكنت في هذا المقام متأثرا بالحملة العنيفة التي شنها الرئيس عبد الناصر على حكومة المانيا الغربية عندما أمدت إسرائيل بصفقة دبابات كبيرة عام ١٩٦٥ زيادة على دفعها تعويضات مالية هائلة لإسرائيل. ولكن

والحق يقال إن الرئيس عبد الناصر كان يكن إحتراما كبيرا للشعب الالماني، وكان دائما في جميع تصريحاته يؤيد توحيد المانيا ويدافع عن حق الشعب الالماني في وحدة أراضيه.

وخلقت الكلمات التي ألقيت جوا من الكآبة ظهر على وجوه الفتيات الالمانيات الحسناوات والشباب الالماني البرئ. وقد لمت نفسي بعد ذلك وفطنت إلى الفخ الذي أوقعنا فيه الروس لاذلال الشباب الالماني.

ثم جلسنا على الموائد في مجموعات تضم كل مجموعة العديد من الجنسيات ومنهم الالمان بالطبع وأخذنا نتسامر ونتحدث مع الشباب الالماني ووجدنا أنهم يتفهمون الموقف تماما. ومما قالوا: أنهم يعانون دائما من الحياة في روسيا، وأن العداء يقابلهم أينما حلوا، في قاعات الدراسة، وفي بيت الطلبة وفي المطاعم وفي الشوارع. في كل تلك الأماكن يقابلهم الروس بالكراهية واللعنات. وأنهم جاءوا للدراسة في روسيا بناءاً على إتفاقية ثقافية بين الاتحاد السوفييتي وجمهورية المانيا الديمقراطية. وأنهم لم يكن لهم الخيار ولا الرغبة للدراسة في روسيا. وإنما حكومتهم هي التي أرغمتهم علي ذلك. وعندما وصلوا إلى روسيا طلبوا من المسئولين الروس طلبا بسيطا هو ألا تكون الدراسة في مدينة فولجاجراد التي شهدت أبشع المعارك بين الروس والالمان والتي تهدمت جميع منشآتها ومبانيها بالكامل. وكان طلبهم ذلك لتأكدهم أن الروس في هذه المدينة لم ولن ينسوا الدمار والخراب ومئات الالوف من القتلى والجرحى بسبب الهجوم الالماني الشرس على هذه المدينة. وأنهم سيواجهون بالكراهية والسخط واللعنات في كل مكان يحلون به في هذه المدينة. ولكن الروس لم يستجيبوا لهذا الطلب البسيط بحجة أنه لابد من تطبيع العلاقات بين الالمان والروس ونسيان الماضي. ولكن الروس لم ينسوا الماضي وصبوا كل حقدهم وكرههم ولعناتهم على هذا الشباب البرئ الذي لم يكن له أي ذنب فيما حدث.

وأنا أقول لنفسي الآن إذا كان الروس لم يستطيعوا نفسيا تقبل تطبيع العلاقات مع الالمان بالرغم من أن المانيا الديمقراطية كانت تابعة للمعسكر الاشتراكي وعضو بارز في حلف وارسو الذي يقوده الروس، فهل من السهل أن ينسى الشعب المصري الخراب والدمار والقتل الذي حل بمدنه وإقتصاده وأهله نتيجة للعدوان الصهيوني في عام ٥٦ وعام ٦٧، ويتقبل ما يسمى بالتطبيع مع إسرائيل. أعتقد أن ذلك إحتمال مستحيل. بل إن الشعب المصري يرفع شعار وإن عدتم عدنا وجعلنا سيناء للصهيونية جهنما وسعيرا.

كانت المحاضرة الأولى من كل يوم إثنين في كل أسبوع مخصصة للسياسة العالمية وللتعليق على أحداث الساعة. وقال الأستاذ المحاضر تعليقا على المظاهرات التي

قام بها طلبة جامعة براغ في جمهورية تشيكوسلوفاكيا بعـد دخـول الدبابـات الروسـية ووحدات الجيش السوفييتي تشيكوسلوفاكيا والسيطرة على مقدرات الأمور بها في صيـف عام ١٩٦٨. وقد طالب طلبة جامعة براغ بحل الجيش التشيكي لأنه لا فائدة منه، فقد رفع يديه واستسلم للقوات الغازية في الحرب العالمية الأولى، ثم رفع يديه واستسـلم للقـوات الالمانية النازية عام ١٩٣٩ ثم رفع يديه واستسلم للقوات السوفيتية الغازية عام ١٩٦٨ فما الفائدة من وجود هذا الجيش:

وكان تعليق الأستاذ المحاضر: أن طلبة جامعة براغ مخطئون في تفكـيرهم وأن القوات السوفيتية ليست قوات غازية وإنما هي قوات حليفـة وصديقـة جـاءت لحمايـة المكاسب الاشتراكية للشعب التشيكي والقضاء علـى الثـورة المضـادة التـي يسـاندها الاستعمار الغربي وأن الجيش التشيكي عضو فعال في قوات حلف وارسوا التـي تقـف حاميا ضد أي عدوان تقوم به الدول الرأسمالية الاستعمارية علـى أي دولـة مـن دول المعسكر الاشتراكي.

وكنا نلمس حدة الصراع ما بين الروس والتشيك في المباريات الرياضية وخاصـة في مباريات الهوكي على الجليد فهي مباريات حياة أو موت وغالبا ما يكون النصر فيـها للتشيك، ويحتفل التشيك إحتفالات كبيرة عند إنتصـارهم علـى الـروس فـي الميـادين الرياضية.

وكانت هذه الاحتفالات يظهر فيها العداء الشديد للروس إحتجاجـا علـى وجـود القوات السوفيتية في تشيكوسلوفاكيا.

***

الشاب الالماني
الذي زلزل كيان الاتحاد السوفييتي

تمتاز الشعوب الأوروبية بالقلب الجسور الذي يعشق المغامرة ويتحلى بالشجاعة والمجازفة، فالواحد منهم في إستعداد أن يجوع ويعرى ويموت ويفنى في سبيل تحقيق الهدف الذي يؤمن به. فهم أناس كما قال أمير الشعراء:

شرف العلا لمجازف جوال .. ركاب؟ أهوال إلى أهوال

وشاعرنا العظيم كان يحث شبابنا في قصيدته هذه إلى ركوب المخاطر والأهوال وبناء الشخصية القوية التي لا تهاب المجهول ولا تخشى الصعب وتقهر المستحيل. ولا يركنوا إلى الاستكانة والكسل فيمسهم التخلف والتقهقر وتتكالب عليهم الأمم. ويغريهم الخوف من الاقدام فيخرجهم من سباق الإختراع والاكتشاف والمعرفة إذلة وهم صاغرون. ولقد شهدت مصر شبابا له الريادة في اكتشاف الصحارى والواحات والقفار مثل الفارس الرحالة أحمد حسانين باشا رئيس الديوان الملكي والرحالة عادل بك ثابت وعالم البحار العظيم وسندباد عصره الدكتور/ حسين فوزي والعالم المتبتل في كشف أسرار البحر الأحمر ومخلوقات الله البحرية الدكتور/ حامد جوهر وعلماء الذرة الدكتور مصطفى مشرفة والدكتور يحي المشد والدكتورة سميره موسى وغيرهم كثير من الشجعان أبطال المخابرات المصرية والصاعقة والمظلات والطيران ومختلف أسلحة الجيش المصري. هزموا الخوف وعبروا المستحيل وهدموا معبد غرور العدو، وداسوا صلفه وأزلوا كبرياءه. في أشرف معركة شاب فيها ولدان بني إسرائيل وعلت وجوههم الغبرة وأذلتهم القترة وكان جزاؤهم جزاء الكفرة الفجرة. وأعادوا لمصر والعروبة كرامتها وأخذوا بناصية تقدمها وريادتها. ونتمنى من الله أن تسود روح رمضان وروح أكتوبر بحماسها وإخلاصها وتنظيمها وتخطيطها وإقدامها وبسالتها وشجاعتها، جميع تصرفات الشعب المصري والشعوب العربية. حتى نصبح الأمة الرائدة في جميع مجالات الحياة.

وعودة إلى أوروبا وقلب شبابها الجسور. فالأوروبيون هم الذي سادوا البحار وأكتشفوا رأس الرجاء الصالح والأمريكتين صارعوا الأمواج العوالي وجبال الثلوج العواتي والرياح الصرصر وبرد الزمهرير والجوع والعطش، لم تلن عريكتهم، ولم تهن عزيمتهم ولم يتنازلوا عن أهدافهم. والذين اكتشفوا منابع النيل لم ترهبهم العقارب

والتماسيح والثعابين. لم ترهقهم الملاريا ولم يخافوا مرض النوم وأكلة لحوم البشر. رسموا الخرائط وحددوا الأعماق وكانت اكتشافاتهم هاديا بعد ذلك لإقامة السدود وشق القنوات وسلامة الملاحة في هذا النيل العظيم.

وشباب أوربا هم الرواد في اكتشاف آثار مصر وكنوزها. وهم كذلك مخترعوا السيارة والطائرة والغواصة وسفن الفضاء.

ولقد تأثر شاب من ألمانيا الغربية بروح المغامرة التي تسود ساكني أوروبا وكان ذلك في نهاية ثمانينيات هذا القرن وقبل توحد دولتي ألمانيا الشرقية والغربية.

قاد هذا الشاب الالماني الجسور المغامر طائرته الصغيرة واخترق الدفاعات الجوية لثاني أكبر وأقوى دولة في العالم وهي الاتحاد السوفييتي. لم يبالي بالدفاعات الجوية المحكمة والقديرة والقادرة. ولا بدوريات الطيران الحربي التي تحمي أجواء الاتحاد السوفييتي ولا بالردارات الكاشفة لكل هدف مهما صغر. ولا بأجهزة اللاسلكي والتنصت التي تسمع دبيب النملة. ولم يعمل حسابا يخشاه لإحتمال تدمير طائرته وهلاكه في الحال إذا ما اكتشف أي من تلك الأجهزة إختراقه للمجال الجوي السوفييتي، وهو إحتمال أكيد طبقا لنظرية الاحتمالات. وطبقا لهذه النظرية نفسها فإن عدم اكتشافه بتلك الوسائل والاستحكامات هو إحتمال مستحيل.

وقد فاجأ هذا الشاب الألماني المغامر والجسور الاتحاد السوفييتي وقادته وجيوشه والعالم أجمع بهبوطه في ميدان الكرملين بموسكو في أجرأ وأشجع مغامرة أذهلت الجميع ولم تستوعبها عقولهم. وقال الشاب في قلب موسكو وفي ميدان الكرملين أنا داعية سلام وجئتكم بالسلام وأنا لست من جهاز الاستخبارات ولم أغامر لجمع الأسرار والمعلومات. ولكني رغبت بكل بساطة في زيارة بلدكم ولتكون زيارتي نواة لتطبيع العلاقات بين الشعب الألماني والشعوب السوفيتية بعد سنوات طويلة من الحروب والعداء.

وأصاب القادة السوفييت الذهول والهلع وتزلزل كيانهم والحق هذا الشاب الألماني الخزى والعار بالقوات السوفيتية.

وأطاحت القيادة السوفيتية بوزير دفاعها وحكمت على الشاب الألماني الشجاع بالسجن لمدة ثلاث سنوات. ولكنها أفرجت عنه بعد ذلك طبقا لمعونة مالية ضخمة قدمتها ألمانيا الغربية نظير موافقة الروس على انسحاب القوات السوفيتية من برلين ومن ألمانيا الشرقية وكذلك الموافقة على وحدة ألمانيا.

وفي منتصف الستينات وقبل حرب عام ١٩٦٧ بعامين قاد شاب إسرائيلي طائرته الصغيرة من تل أبيب وطار على مستوى منخفض وهبط بالقرب من بور سعيد وقال إنه جاء داعيا للسلام بين مصر وإسرائيل وتم إبلاغ الرئيس عبد الناصر بذلك وتصرفت القيادة المصرية بمنتهى الحكمة والإنسانية وسمحت لهذا الشاب الإسرائيلي بالعودة بطائرته سالما إلى إسرائيل.

***

كيف جاع شعب روسيا

لقد عشت في روسيا من سنة ١٩٦٦ وحتى ١٩٧٢ وكان أرخص شيء في روسيا هو الطعام والأدوات الكهربائية وأسطوانات الموسيقى والسكن.

والطعام في روسيا كان طعاما نظيفا صحيا مغذيا. والشعب الروسي هو الشعب الوحيد في العالم الذي كان يفطر على اللحوم.

فالإفطار في روسيا في المطاعم العامة الشعبية التي يرتادها الطلبة والعمال كان مكونا من البطاطس البوريك عليها كمية كبيرة من الزبد وشريحة كبيرة من اللحم وبيضتان مسلوقتان مع شرائح الجبن والخبز وقهوة باللبن أو شاي باللبن.

أما الغذاء في روسيا فكان يتكون من الأول وهو عبارة عن السلاطة والخبز وشريحة اللحم أو شربة السمك ثم الثاني ويتكون من الأرز أو البطاطس المحمرة مع شرائح اللحم أو الفراخ أو السمك مع العصائر والفاكهة.

أما العشاء فكان يتكون من الزبادي والقشدة والجبن والمربة والبيض المقلي.

وكانت هذه الوجبات الثلاث لا تكلف الفرد أكثر من مائة وخمسون قرشا مصريا أي ثلاثة روبلات بالعملة الروسية.

ولذلك لم يكن غريبا أن يتمتع الروسي بصحة جيدة شبابا وشيوخا ونساءاً ورجالاً. فالجميع يتغذون جيدا ويمارسون الرياضة بإنتظام. وكانت مادة التربية الرياضية من

المواد المقررة في جميع سنوات الدراسة بما فيها الدراسة الجامعية وهي مادة هامة مثـــل جميع المواد الدراسية ولها درجات رسوب ونجاح ولابد من ممارستها عمليا حتى الإنتهاء من مرحلة الدراسة الجامعية.

كان الطعام نظيفا ورخيصا وشهيا ومغذيا والأسعار ثابتة في جميع أنحاء الاتحـــاد السوفييتي يستوي في ذلك السلعة الموجودة في موسكو والموجودة في سيبيريا والموجــودة في سوخولومي على الحدود مع اليابان.

وظل الحال على هذا المنوال حتى سنة ١٩٨٧ وبعد أن تولـــى رئاســـة الاتحـــاد السوفييتىي عمنا الرفيق السابق جورباتشوف الذي أطلق صيحته الشهيرة البريســـترويكا أي إعادة البناء. وظن الروس أن مجرد ترديد شعار البيريسترويكا ســـوف يجعـــل كـــل مواطن روسي من أصحاب العمارات والفيلات ويمتلك أفخم أنواع السيارات.

ولكن قسوة الواقع كانت صدمة لكل أحلام الخيال. فإعادة البناء يجب أن يســـبقها هدم لكل ما هو موجود بما في ذلك النظام الاقتصادي والسياسي وتبعا لذلك إنقلبت حيـــاة المواطن الروسي رأسا على عقب وأصبح الإنسان الروسي يسأل نفسه وأهله وعشـــيرته وحكومته أين المفر؟ ولا مجيب! لأنه لا النفس ولا الأهل ولا العشيرة ولا الحكومة تعلـــم أين المتجه ولا أين الحل ولا أين المفر؟ وبعد أن كان المجتمـــع الروســـي يمثـــل قمـــة الإنضباط قلبته الأوضاع الجديدة إلى قمة الفوضـــى، وظـــهر المجرمـــون واللصـــوص وعصابات المافيا التي تتاجر في كل شيء من العملة والهيروين والكوكـــايين والدعـــارة والرقيق الأبيض والأطفال والأعضاء البشرية. وأسرار الأســـلحة الذريـــة وتصميمـــات المعدات الحربية. وأصبح كل شيء في روسيا الجديدة مباحا لمن يدفع أكثر.

وكتب كبار ضباط المخابرات في الاتحاد الســـوفييتي الســـابق مذكراتـــهم التـــي يعترفون فيها بجميع أسرار الدولة السوفيتية ودول المعسكر الاشتراكي الســـابق وكشـــفوا النقاب عن عملياتهم وعملائهم في الدول الغربية. وباعوا تلك الأسرار والمذكرات نظـــير حفنة من الدولارات. وأصبح الدولار هو السيد والإله الجديد في روســـيا وتحـــت وطـــأة الجوع وسطوة الدولار سهلت واستبيحت خيانة الأوطان.

وكان يقول لنا الروس إنه في أثناء الحرب العالمية الأولى والحرب الأهليـــة فـــي روسيا عند قيام الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ وحتى سنة ١٩٢٣ إجتاحت روســـا وبلـــدان الاتحاد السوفييتي الجديد أزمة إقتصادية طاحنة ومجاعة شديدة الوطأة وإنهيار كامل للعملة الروسية وهي الروبل. حتى أن الإنسان يستطيع بالكاد أن يشتري كسرة خبز نظير جـــوال مملوء بالروبلات.

وعندما بدأ يحدث نوع من الاستقرار الاقتصادي في أواخر الثلاثينيات من هذا القرن لم يصل فيه المواطن السوفييتي إلى درجة الرفاهية وإنما أصبح قادرا على أن يجد قوت يومه بدون صعوبة. إجتاحت القوات الالمانية واليابانية الأراضي السوفيتية في سنة ١٩٤١. وعانى المواطنون السوفييت ويلات الحرب الطاحنة الضروس من قتل وتشويه وجوع وتشريد.

وكانت حربا بشعة ضروس شرسة وهي جهنم اللواحة للبشر التي لم تبقى ولم تذر.

وأثناء محاصرة القوات الالمانية لمدينة لينينجراد وهي أكبر مدينة بعد موسكو وذات تاريخ حضاري عريق وكانت عاصمة للإمبراطورية الروسية أيام القيصر بطرس الأكبر وقد سميت على أسمه وكانت تعرف باسم مدينة بطرس بورج حتى قيام الثورة البلشفية وبعد قيام الثورة تغير اسمها إلى لينينجراد على اسم زعيم الثورة لينين. وتضم مدينة لينينجراد أضخم وأغنى متحف فني في العالم وهو متحف الارميتاج. وقد عاد إليها اسمها القديم بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وزوال دولة الشيوعيين.

وأثناء حصار القوات الألمانية لمدينة لينينجراد لقى مليون جندي ألماني حتفهم على حدود مدينة لينينجراد فقط من الجوع والبرد والقتل كما مات مليونين من سكان مدينة لينينجراد من الجوع والبرد.

وقد سأل أحد الصحفيين الغربيين رئيس الوزراء السوفييتي السابق اليكس كوسيجين هل كنت تأكل السمك نيئا أيام حصار القوات الألمانية لمدينة لينينجراد؟ فأجاب كويسيجين ومن أين لي بالأسماك وقد كانت مياه الأنهار متجمدة في شتاء روسيا القاسي؟

ثم عقب قائلا: لقد كنت أتغذى على خشب الأشجار.

لقد قال الروس لنا إن نصيب المواطن السوفييتي من الطعام أثناء الحرب العالمية الثانية كان مائة جرام فقط من الخبز في اليوم. لقد قتل ومات عشرين مليون مواطن سوفييتي أثناء هذه الحرب.

ولقد خلفت هذه الحرب المشوهون والأرامل واليتامى والجياع والخراب.

وقد تحمل المواطنون الروس والسوفييت قسوة الحياة وشظف العيش لإعادة بناء الدولة السوفيتية بعد خراب الحرب. ولم ينعم المواطن الروسي والمواطن السوفييتي بوفرة في الغذاء والطعام إلا لفترة خمس وعشرون عاما فقط، من منتصف الستينات وحتى نهاية

الثمانينات. وكان الاتحاد السوفييتي في هذه الفترة في أوج قوته وعظمته وبالرغم من أن الاتحاد السوفييتي في هذه الفترة كان يقدم مساعدات عسكرية واقتصادية لغالبية الدول النامية زيادة على دول المعسكر الاشتراكي، إلا أن المواطن الروسي كان يجد وفرة في الطعام والغذاء.

ومع صيحة البيريسترويكا التي أطلقها رئيس الاتحاد السوفييتي السابق جورباتشوف جاء الجوع والتضخم والأزمة الاقتصادية الطاحنة. وعلى يديه تفكك الاتحاد السوفييتي.

ولقد سألت كبير الخبراء الروس الذي كان يعمل بشركة مصر للألومنيوم بنجع حمادي في أواخر الثمانينات.

كيف حال البريسترويكا؟ قال لي: إن صيحة البيريسترويكا هي طبل أجوف وسوف تجلب النحس والخراب والجوع على روسيا والاتحاد السوفييتي.

وضرب لي الرجل مثلا قائلا: إن مصانع القطاع العام في روسيا هي التي تعمل وهي التي تنتج وكان انتاجها يكفينا من الملابس والأحذية. ولكن الآن لا توجد في محلات القطاع العام أي ملابس أو أحذية علما بأن مصانع الدولة مستمرة في الانتاج فأين ذهبت الملابس والأحذية. والمؤكد أن طبقة السماسرة هي التي تستولى على الانتاج وتبيعه لحسابها بأضعاف الأسعار الحكومية. وقد كان محرما قبل صيحة البيريسترويكا ممارسة أي نشاط تجاري للأفراد.

وفي نفس اليوم قرأت في جريدة الأهرام مقالا للأستاذ خليل عبد الملك مراسل الأهرام في موسكو يقول فيها: إن البضائع التي تأتي لمحلات القطاع العام تباع لحساب السماسرة الذين يرفعون الأسعار أضعافا مضاعفة نظير عمولة مجزية لمديري محلات القطاع العام. وأن ذلك يحدث تحت سمع وبصر رجال البوليس الروسيون.

قلت في نفسي أين أنتي الآن يا أيتها الزميلة أولجا لقد تم طردك من الكلية ومن منظمة الشباب وتم تشريدك ونفيك إلى سيبيريا عندما ضبطك البوليس الروسي تبيعين بالطو مطر لا يزيد ثمنه عن خمسة دولارات لحساب أحد الزملاء المصريين.

ومع صيحة البريسترويكا حدث تضخم رهيب في دول الاتحاد السوفييتي ومنها روسيا وانخفضت قيمة الروبل انخفاضا ليس له مثيل وأصبح الدولار مساويا لمئات الروبلات. وكانت قبل ذلك قيمة الروبل في البنوك الروسية أعلى من قيمة الدولار كما كانت قيمة الدولار في السوق السوداء لا تزيد عن ثلاثة روبلات.

وتأخر دفع مرتبات العاملين والموظفين وضباط الجيش لعدة شهور. وزاد السخط والقلق بين المواطنين وبين ضباط الجيش.

وحاول وزير الداخلية ووزير الدفاع ومدير المخابرات في حكومة جورباتشوف الإنقلاب عليه لمحاولة السيطرة على الأوضاع الاقتصادية والسياسية المتردية.

وفشل الإنقلاب لسبب بسيط وهو أن التعليمات قد صدرت من قادة الإنقلاب بعدم إطلاق النار على المواطنين.

وركب رئيس جمهورية روسيا الاتحادية الموجة وتم تصويره وهو يمتطي إحدى الدبابات وأوهم يلتسين رئيس روسيا العالم بأنه هو الذي تصدى للإنقلاب وأحبط مخططاته. وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة فلو استخدم الجيش العنف لاستولى على الحكم في دقائق وما وقفت أي قوة مهما كانت في وجهه.

وجاء يلتسين بجورباتشوف ضعيفا متهالكا وإنتهى جورباتشوف بإنتهاء الاتحاد السوفييتي وتفككه واستقلال جمهورياته عن الاتحاد.

وإرتفع نجم بوريس يلتسين رئيس جمهورية روسيا الاتحادية أكبر دولة ورثت الاتحاد السوفييتي السابق. وأنهى يلتسين سيطرة الحزب الشيوعي على الحكم. وبدأت وسائل الإعلام الغربية في تلميع صورة الرئيس يلتسين والدعاية له وإظهاره على أنه منقذ روسيا من ديكتاتورية الحزب الشيوعي وعلى يديه سوف يجرى الخير وتتحقق الديمقراطية والإصلاح الإقتصادي في روسيا.

ومن يرى الرئيس الروسي يلتسين من بداية ظهور نجمه لا يتفاءل أبدا بأنه الشخص الواعي القوي الذي يمكن أن يقود دولة كبيرة مثل روسيا ويصل بها إلى بر الأمان.

فالرئيس الروسي يلتسين مريض بالقلب وصديق دائم لمعاقرة الخمر. ولا يكاد يفيق من السكر وليس ذلك من عندي ولكنها تقارير الصحافة ووسائل الإعلام العالمية.

ولم يبدي الرئيس يلتسين أي نوع من السلوك الديمقراطي. وعندما إختلف معه أعضاء البرلمان الروسي بقيادة حسب اللاتوف وإعتصموا بمبنى البرلمان سحقهم يلتسين بالمدافع والدبابات. وأخذ الإقتصاد الروسي يشهد إنهيارا وراء إنهيار بالرغم من المساعدات التي تقدمها المانيا وأمريكا ودول الغرب والتي تبلغ مئات مليارات الدولات.

وأخذ الرئيس الروسي يتخبط في قراراته كالغريق المسطول وأخر هذه القرارات الهزلية فقد جاء بحكومة رئيس وزرائها شاب غرير عديم الخبرة لا يزيد سنه عن خمسة وثلاثين عاما وهو كرينكو. وعارض البرلمان الروسي تعيين كرينكو رئيسا للحكومة لسنه

الصغير وعدم خبرته. وهدد الرئيس يلتسين بحل البرلمان إن لم يوافق أعضاؤه على تعيين كرينكو رئيسا للحكومة. ووافق أعضاء البرلمان على مضض.

ووقع رئيس الحكومة الشاب الغرير في حيص بيص كما يقول المثل المصري. وقد وصلت قيمة الروبل على يديه إلى أدنى قيمة. حتى أن البنوك الروسية امتنعت عن التعامل بالروبل.

وقد أطاح الرئيس يلتسين بحكومة كيرينكو قبل أن تكمل شهرها الخامس وذلك حتى لا تنسب للرئيس يلتسين أسباب الإنهيار الاقتصادي.

ثم جاء يلتسين بتشيرنوميير يدين لرئاسة الوزارة وقد كان تشيرنوميير يدين هو رئيس الوزراء قبل حكومة كيرينكو. ولم يوافق البرلمان على تشيرنوميير دين واضطر يلتسين إلى تعيين بريماكوف وزير الخارجية ومراسل البرافدا السابق في القاهرة رئيسا للوزراء. ويتخبط الرئيس المريض المسطول يلتسين في قراراته ولا يمكن أن يقود رجل بهذا الشكل بلدا بهذا الحجم وبهذه الإمكانيات إلى بر الأمان.

ولكن السؤال المطروح الآن هل يمكن أن تنهض روسيا من كبوتها وهي تملك جميع الإمكانيات المادية والعقلية والبشرية كما نهضت ألمانيا وكانت خرابا بعد الحرب العالمية الثانية. ثم صارت بعد بضع سنوات أعظم دولة اقتصاديا وحضاريا في العالم تحت قيادة إديناور وايرهارد وهيلموت كول.

أنا أعتقد أن روسيا سوف تنهض من كبوتها وتقال من عثرتها. إذا توافرت لها قيادة قوية واعية لا تسيطر على إرادتها وتوجهاتها مخابرات الغرب وعصابات المافيا.

فروسيا تملك جميع الامكانيات التي تجعل منها عملاقا عظيما.

***



رقم الإيداع ٩٩/١٥٦٥

الترقيم الدولي I.S.B.N.

977-221-090-8



الكاتب في سطور

* م. زكريا تركي محمد

من مواليد ١٩٤٠م

ـ ساحل سليم الصعيد.

ـ بكالريوس هندسة ميكانيكية من معهد التقنية للإقتصاد والتصنيع بالاتحاد السوفييتي عام ١٩٧٢.

ـ دورات في الإدارة الحديثة من الجامعة الأمريكية ومؤسسة هانس زايدل الالمانية.

ـ له عدد من الترجمات من اللغة الروسية أهمها:

* ميتالورجيا الالومنيوم

* سبائك الالومنيوم

* بحوث في إنتاج الالومنيوم

* التبريد والتكييف

ـ يعمل الآن مديرا لإدارة التبريد والتكييف بشركة مصر للألومنيوم بنجع حمادي

* * *

هذا الكتاب

لقد شهدت مصر انتكاسات أليمة وانتصارات عظيمة.

كما شهد الاتحاد السوفييتي إنجازات كبيرة وانهيارات فاجعة ومفجعة.

ومن بين كل هذه الانتكاسات والانتصارات، ومن ساحل سليم في الصعيد إلى كييف في أوكرانيا وموسكو واستراخان في روسيا كان لي ولكم هذا الكتاب.

* * *